النفس والعدوان

دراسة نفسية اجتماعية في ظاهرة العدوان البشري



الدكتور ريكان أبراهيم

النفس والعدوان

دراسة نفسية اجتماعية في ظاهرة العدوان البشري





الدكتور ريكان أبراهيم



دار ومكـ
للنشـ

عمان - وسط البلد - تلفاكس : 4640597 6 962+
ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن
dar_alkindi@yahoo.com




مكتبة
طريق العلم


مع .. هنا سور الأزبكية على الهواء
mohamed khatab

النفس والعدوان

دراسة نفسية اجتماعية في ظاهرة العدوان البشري

الدكتور

ريكان إبراهيم خلف

الطبعة الأولى

2014م /1435هـ



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2013/6/2021)

302
خلف، ريكان إبراهيم
النفس والعدوان: دراسة نفسية اجتماعية في ظاهرة العدوان البشري/ ريكان إبراهيم خلف، عمان، دار الكندي للنشر والتوزيع، 2013
( ) ص.
ر.أ.: 2013/6/2021
الواصفات: /علم النفس الاجتماعي/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية أخرى.

الطبعة الأولى

2014م /1435 هـ



عمان – وسط البلد – تلفاكس • 4640597 6 962+
ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن
dar_alkindi@yahoo.com

ISBN: 978-9957-523-19-0

« يا سيدتي ... إنك مخطئة.. هذه ليست أصابعي التي تلاعب خُصلات شعرك.. إنها مخالبي .. ابتعدي عن قبلاتي .. أخاف عليك نابين حادين في فكي.. يا سيدتي فهمتني .. لك قيثارٌ يشدك بموسيقاه نحو شقائي.. يا سيدتي لا أحبُ أن أغادرك ولا أحب أن أحبك.. فبين بقائي فيك وحبي لك يكمن ألمي بين اللاحب فيك وبين قتلك بأظافري خنقاً لعدوانية تكفي لزلزلة الأرض تحتك.. لا تعجبي من أمري.. أما سمعت بالغول.. إنه أنا يا سيدتي أيتها « الغولة » الجميلة.

ريكان ابراهيم

تمهيد

مقدمة: يبدو أن قاعدة الشيء وضده من القواعد التي تستند إلى قيمتها، العالمية، مما يجعلها راسخة في ميادين ومسارب دراسة الأحياء وفاعلة في القيمة المعنوية للأشياء. ولم تجد حضارة الإنسان البناءة وازدهار المعطيات الخلاقة في التمدن والرقي نقيضاً لها إلا العدوان والتدمير. فما أن تنشأ مدينة لشعب من الشعوب ترتكز إلى أسس ثقافته وفلسفته في الحياة، حتى تمتد إليها شرعة الغضب في أبنائه أو أبناء جيرانه تعيث فيها الدمار والخراب آتية على كل عطاء نيّر بالفناء. ويكاد الإنسان ينفرد عن باقي المملكة الحيوانية في قتل جنسه بدءاً بنفسه. وإذا كان الانتحار مبرراً لعقاب الذات ضد نزوعها إلى العدوان فإن قتل الآخرين - لا النفس - يبقى بدون تبرير ولا يفسر إلا أنه عملية عنف يمارسها الإنسان على سلالته. إن العدوان ظاهرة خطيرة في سلوك الفرد ومأساة كبرى من مآسي المجتمع البشري، وسيلتها العنف وقطافها فناء أجيال كاملة مع كل مخلفاتها من العطاء والتقدم. وإذا كان بنو البشر مطالبين بشيء أمام اشراقة الحياة فإنهم مطالبون بمناقشة العدوانية في أنفسهم. إن الدارس لظاهرة العدوان يقف حائراً أمام كثير من المغاليق في تفسيرها. فهل الانسان حيوان مفترس؟ هل وجد الإنسان لأغرا ض التدمير؟ هل استفادت الحياة في دورها من سلوك الانسان للبدءمن جديد ومن الصغر عند كل عملية انتهاء من إنجاز حضاري؟ تلك هي تساؤلات مطروحة أمام هذا السلوك العنفي في الإنسان وأمام هذه الدراسة.

محاولات للتعريف

اختلفت مدارس علم النفس الكثيرة في وضع واف للعدوان البشري، وترادفت مع ظهور كلمة عدوان مفاهيم عديدة جعلت عمّلية الفصل بين هذه الكلمة وتلك المفاهيم مناظرة شائكة. ومحاولة تقسيم الظاهرة ابتداءً من ظهورها كمشاعر عداء يمتلكها الفرد مروراً بكلّ حالات الاضطراب الحركي التي تمثلها وانتهاءً بأقصى حالات العنف والإبادة، تلك المحاولة صعبة لأغراض التحديد التعريفي السريري والميداني والبايولوجي والاحصائي. فمشاعر الميل أو النزوع العدواني وأفكار ترتيب العملية العدوانية في مسلسل عقلي تعتبر عدواناً وتنفيذها في سلوك مرعب مسقط على الوسط عدواناً أيضاً. ولكن يبدو أن القول أن العدوان هو السلوك الذي يعبر بوساطته الكائن عن مشاعره ودوافعه الداخلية بوسائل ظاهرة، مباشرة أو غير مباشرة في إلحاق الأذى بالوسط من حوله أو بالانكفاء إلى نفسه، هذا القول يبدو تعريفاً مناسباً للعدوان.

نبذة تاريخية

منذ أن قتل قابيل هابيل، كان العدوان على الأرض سمةً من سمات الإنسان ولقد ظلت الأساطير والروايات والرقم المسجلة تذكر الصراع الدامي للإنسان تجاه الظروف الصعبة من حوله ممثلة بالظواهر الطبيعية وأفراد المملكة الحيوانية والجنس البشري نفسه. لقد خاف الإنسان في أولى ساعات وجوده على الأرض. خاف ما حوله مناخاً وزلازل وحيوانات و آلهة؛ فتوجه إلى الدفاع ضد هذا الخوف. وحاول منذ بدئه أن يؤشر مصادر الخوف ليجعل منها معاليم يسهل عليه قتالها اقتراباً منها وسيطرة أو ابتعاداً عنها وخلاصاً. وحاول هذا الكائن البدائي توضيح مصادر قلقه ليتسنى له العدوان على معلوم محدد؛ وله قدرة

وحجم ومقاييس يستطيع أن يوظف قدراً معيناً من قواه لمواجهتها. لقد عاش الانسان في سلالاته الأولى مغترباً عن ذاته، يخاف المحيط، يخشى النار والبراكين والرعود؛ ويتوسل الرجاء في الظواهر الدائمة كالشمس والقمر والنجوم في بث عامل الأمن وابعاد مصادرالخطر. ولكي لا يقتل بوسيلة من وسائل الطبيعة فإنه حاول قتلها. ولم يكن المجتمع الإنساني ظاهراً واضحاً في بنيانه ولا يملك من الروابط ما يجعل أمر تسميته مجتمعاً تعبيراً ممكناً. لذا فقد كان الإنسان الآخر في أبناء جنسه خصماً لا يختلف عن الحصان أو الأسد أو الزلزال. لقد كانت وسائل التغذية أو ظروف السكن صعبة، والصراع من أجلها جزء من الصراع في سبيل البقاء والعدوان هو إحدى وسائل الصراع. ولما كان الإنسان محدود القدرة في المواجهة فإنه كان عاجزاً عن مجابهة كل مصادر القوة في الطبيعة، فتدرج تفكيره في ابتكار وسائل دفاع أخرى كانت جزءاً من عدوانيته. إنه لم يكن قادراً على الحد من شدة الرعد في السماء ولا تحجيم البراكين الثائرة فهادنَ فيها القوة.. وعبد فيها القوة خائفاً.. واتخذ مصادرتسخيرها أرباباً وآلهةً...

كان في صلبه يخاف هذه المصادر.. يخشى هذه الآلهة ولا وسيلة لديه لتدميرها بغية استيلائه عليها فاستبدل صفحة الصراع المباشر بالتقرب وابداء الحب.. فأحب الإنسان الآلهة حباً مشوباً بالكراهية.. يحبها لأنه لا يقدر عليها ويتقرب إليها لأنه يخافها. ومنذ ذلك الزمن السحيق وعالم الخوف هو الدافع الكبير وراء السلوك العدواني البشري.

نبذة بايولوجية

ولقد تشعبت الدراسات التي تناولت أصول النشأة الإنسانية وركزت على أسسها البايولوجية باعتبار الانسان جزءاً من الأسرة الحيوانية.

والمميزات التي امتاز بها الانسان بها في الطبيعة تتركز في خصلتين: انتصاب

القامة والقدرة العقلية. إن انتصاب القامة كان تعويضاً طبيعياً لوهن الإنسان وافتقاره إلى معدات العدوان في غيره من الحوان كالأنياب والمخالب والخراطيم. والقدرة العقلية وما أفرزته من عمليات معقدة في الفكر واللغة والذاكرة والابتكار كانت تعويضاً عن الوهن الجسمي الذي تميز به الإنسان عن بقية المملكة الحيوانية. إن عدم توظيف العقل في النزوع العدواني يكفـ أكبر ميزة من ميزات التفوق الإنساني على الطبيعة، إنه باستخدامه لهذه القدرة استطاع أن يختزل كثيراً من قدرات مصادر الخطر عليه من الطبيعة إن هذه الدراسات كانت وما زالت تهدف إلى اعتبار العدوان في الإنسان دفاعاً بايولوجياً صحيحاً ضد الطبيعة وعندما يتسامى الإنسان في وظائفه العليا، سيسلخ من سلوكه البدائي التي اشترك مع الحيوان في امتلاكها ومنها مفردة السلوك العدواني.

العدوان البشري في المنظور الفلسفي

إن مطالعة الفلسفات الشرقية والغربية تؤكد أن النزوع العدواني هو قوام الناتج النهائي لنوازع الشر في النفس البشرية بجانب نوازع الخير. وأن صفحات التلون السلوكي حقيقة من حقائق السلوك. وتعتبر هذه الفلسفات أن الظواهر الطبيعية كالزلزال والرعد والمطر والرياح وهي متنفسات الغضب الطبيعي تفرج الطبيعة عن كربتها وتصب جام غضبها في مثل هذا الزفير العنيف. والمملكة الحيوانية والنباتية جزء من الظواهر الطبيعية وسلوكها العدواني مماثل لسلوك الطبيعة الأم في التنفيس عن كوامن الغضب. ولهذا فإن الكثير من مدارس الفلسفة ترى العدوانية البشرية سلوكاً طبيعياً كائناً بالضرورة وإذا غاب أو افتقر إليه في الممارسة فجدير أن نسأل عنه. وتعزو بعض المذاهب الصوفية في فلسفتها ظهور حالة الغضب والهياج إلى طبيعة الإنسان الغاضبة التي تسلخ بها عن نفسها صدأ التبلد والوهن وعوامل الخمول وترسبات السكون.

ملاحظة حول هذه الدراسة

قسمت هذه الدراسة على أربعة أقسام:

١ - العدوان البشري في الدراسات النظرية: وأتناول فيه ما قدمته الدراسات والفلسفات والمفاهيم النظرية التي ناقشت هذا الموضوع.

٢- العدوان في الدراسات البايولوجية: وهي محاولة لايجاد أسس مختبرية وبايولوجية وسريرية للعدوان البشري.

٣- العدوان في الدراسات النفسية والاجتماعية: وهي دراسة علاقة السلوك العدواني بمفردات حياة الفرد اليومية وحاجاته وارتباطاته وامراضه.

٤- المعالجة: وهي محاولة لايجاد بعض الأسس العضوية والنفسية والاجتماعية للحد من ظاهرة العدوان البشري.

القسم الأول

العدوان
في الدراسات والبحوث النظرية

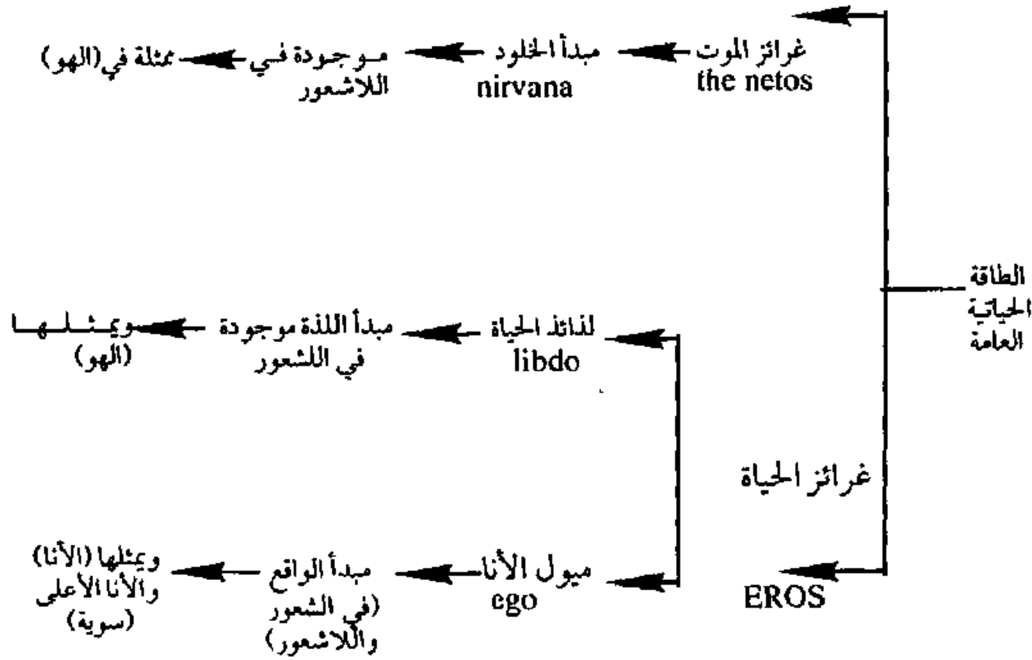
الفصل الأول
العدوان والتحليل النفسي

مقدمة

جهدت مدرسة التحليل النفسي أن تجد لكل الظواهر النفسية، والمعتلة منها خاصةً، جذوراً في النشأة الطفلية الأولى وحاولت أن تجد شرحاً لكل أعراض حياتنا على أساس تجزيئي أولي يتخذ أسسه من الخبرة الطفولية المبكرة، وفي بواكير تصنيفه، حاول سيغموند فرويد أن يعتبر غريزتي الغضب والجنس النواة الأولى في حياة الفرد وأعاد إليها بشكل تجريدي كل الحالات المركبة في البناء الشخصي. وظلت هذه المدرسة تتأرجح في دوامة التنازع العلمي بين أن تعتبر حالتي الغضب والجنس ذات مسار واحد في منظور الاستجابة والأعراض والنتائج وبين أن تعتبرهما حالتين منفصلتين، لكل منهما طريقة الانبعاث والتأثير والانكفاء. إننا هنا نريد أن نستفيد من شرح هذه المدرسة للسلوك العدواني وجزمها أو عدمه في أنه من المفطورات التي جبل عليها الكائن البشري. كفى هذه المدرسة ما أصابها من المعارضة والنقد، ما أصابها من التأييد والتوفيق . . . وأعتقد أن المثلبة الأزلية التي تجعل فيها للنقد موطئ قدم هي صفة التطرف في تقرير النشأة الأولى للفرد، الأمر الذي جعل أول عشاق ما أقدم فرويد عليه في تأكيد دور الجنس في حياة الفرد، أول المنشقين عنه. إن لم يكن كلياً، فبدرجة كبيرة من النصح والمطالبة بتخفيف هذا التأكيد المتطرف. إن سيغموند فرويد لم يكن المبدع المبتكر للتحليل بهذه الصيغة قدر ما كان مستفيداً ممن سبقه. . من الغربيين، معاصري أوائل حياته أو من مات قبل ظهوره بقليل. . أو قدر ما كان مسبوقاً بتوجهات الفلسفة الشرقية في علوم العرب والمسلمين والهنود في محاكمة النشأة الأولى. . فلقد أسهمت هذه الفلسفة في التدقيق في حالة العدم والصيرورة وإعطاء الجانب العقلي قدراً كبيراً من الاهتمام.

العدم والوجود

إن من أولى الخطوات في الفكر الفريدوي حول ظاهرة العدوان كسلوك هي مناقشة العدم والوجود. إن ظهور فكرة الثاناتوس Thanatos أو غريزة الموت عند فرويد أطرت فكرة أن الكائن راكض نحو العدم وأن الإنسان، من بين الأحياء الأخرى، ولد ليموت، فهو إنما ينشأ لينشأ للعدم. ولكل الشيء



مخطط نشوء ومسيرة صراع الفناء مؤديا العدوان مع صراع البقاء مؤدياً الى السكينة (وجهة نظر فرويد)

الذي أغفله منظور فرويد، على ما يبدو، هو هل أن هذا الاستباق البشري نحو العدم ناشيء من عودة الكائن إلى الحالة الأولى؟ هل يبدأ الكائن ليعود إلى حالة ما قبل البداية(العدم)؟ وهل حالة ماقبل البداية هي العدم؟ هل نشأ الوجود من العدم؟ هل هي دورة الكينونة؟ تلك تساؤلات أغفلها الفكر الفرويدي منشداً

إلى الشطر الثاني من المسألة وهو أن الإنسان راكضٌ نحو النهاية. إذن فالموت - كغريزة وحسب التنظير الفرويدي - مولود من بينها - تعزز هذا الميل وتعجل في الكائن التهاوي والهروب إلى الأمام.

الإحباط

والشيء الذي يبقى مسجلاً خالداً لفرويد هو تقليله لدور الإحباط - مع تأكيده إياه كضرورة لنشوء العدوان. أنه افترض وجود حافز عدواني فطري واعتبره موجهاً أصلاً بصورة تدميرية نحو الذات. كما أنه افترض أن توجه هذا الدافع إلى الخارج مكاناً وبيئةً وأفراداً إنما هو من قبيل الظواهر الثانوية. إن دراسة الرضيع أظهرت اختلافات أولية مبكرة بين الرضع في المزاج الفطري. ففي حين نجد أحدهم هادئاً نجد الآخر أكثر نشاطاً وهياجاً. وقد لطف اللاحقون في مدرسة التحليل النفسي بعضاً من تطرف سابقيهم بأن أضافوا إلى هذه البواكير المزاجية الفطرية للرضيع أثر البيئة، فالبيئة العدوانية تزيد درجة العدوان في التركيب الفطري الأولي للفرد الرضيع وعكس ذلك صحيح في بيئة غير عدوانية. ويبدو أن هذه المسحة الفطرية العدوانية في حياة الرضع أمرٌ له أهمية في تعزيز أركان شخصية الفرد مستقبلاً. وحين مستقبلاً. وحين نقف جاهدين لمنع تأصل العدوان كظاهرة في حياة الفرد نقف أيضاً جاهدين بل وراغبين أيضاً في إبقاء قسم منها في قرارة النشأة الأولى ولو عن طريق خلق بعض الاحباطات - كأحد أساليب خلق العدوان - لتعزيز ظهور حالة عدوانية بسيطة الدرجة تمنع جوانب شخصية الطفل من الترهل والارتخاء ثم السقوط، نظراً لافتقارها إلى عملية التماسك التي يخلقها وجود شيء من العدوانية فيه عليه مبكراً.

نظرية ميلاني كلاين

وهنا نجد ميلاني كلاينMelanie Klein - تحاول أن تؤشر حقيقتين في هذا المضمار. الحقيقة الأولى: إن للإنسان غريزة رعدوان موروثة. الحقيقة الثانية:

دور القلق وصعوبة البيئة في زيادة انفعال هذه الغريزة بالشكل الذي قد يجعل منها مثار تعثر وتحول ماس في حياة الفرد اللاحقة، مما حداها إلى تأكيد تحسين ظروف النشأة الأولى بغية خفض درجة ظهور الغريزة العدوانية إلى حد لا تؤثر في الفرد ولا يؤثر بها على المحيط تأثيراً يؤدي إلى فصله عنه وشله كعضو فاعل في مجتمعه. ولا نعلم يقيناً فيما لو كانت السيدة كلاين تخفف بهذا من غلواء سيغموند فرويد في اعتبار العدوان جزءاً من الغريزة الجنسية أو أنها تحاول التأشير فقط ثم التلطيف لهذه الظاهرة كدعم لحركة التحليل النفسي في بناء الفرد بناء سليماً.

وسواء لدينا اعتبار العدوان مفصولاً عن الجنس أولاً. وحتى ظهور العدوانية الجنسية أو الجنس بشكل عدواني أو معبراً عنه بصيغة عدوان ذكوري تجاه استسلام انثوي.. لا يعني بالضرورة ترابط العدوان والجنس غريزياً فقد تكون غريزة الجنس في حاجة إلى العنف كواحد من معالم ظهورها وتجسدها.. ومع ذلك تبقى حالة الفصل بين هذين السلوكين - العنف والجنس - قائمة.

نظرية ألفريد آدلر

حاول آدلر - وهو من رفاق فرويد المختلفين معه - أن يؤكد امكانية ظهور العدوان والجنس كحالتين منفصلتين مع احتمال تلازمهما في وقت ما. وحاول كذلك أن يؤكد كون العدوان غريزة يعتورها الاخفاق أو النجاح في الظهور تبعاً للظروف المحيطة. إنه يعتبر العدوان في النفس البشرية وواحداً من الموروث الفطري الذي - إن أخفق أو نشأ بشكل مخطوء - يؤدي بالفرد اختلال كيانه وتدهوره. وعليه فالتطبيقات السريرية والميدانية في مسيرة الفرد بشكل عدواني هي انفعال غريزي للعدوان الموروث على قاعدة «الكفاح من أجل التفوق» كما ورد ذلك في الأوراق الأخيرة لكتابات آدلر. وإن الكفاح للجنس إن يشكل قوة عدوانية فله ذلك ولكن ضمن الانفعال النهائي لظاهرة العدوان الغريزي.

اتجاه واحد أم اتجاهان؟

ولقد كان لفرويد اعتراض عند إقرار غريزة الموت وغريزة الجنس مؤداه إن هاتين الغريزتين تعملان في اتجاهين متعاكسين، فبينما يركض الكائن في الأولى نحو عدمه وفنائه، يركض في الثانية نحو بقائه وتعزيزه. إننا نعتقد إن الغريزتين – حسراً بالفرد وليس بالامتداد البايولوجي العام – تعملان في اتجاه واحد هو اتجاه الفناء أو العدم. فالثاناتوس تنهي الكيان الخلوي وتفرغه من محتواه الحي باستمرار التناضج، وغريزة الجنس تنهي الفرد بعد أدائه (واجب) حفظ النوع بمستوى خلية الجنس وكأن في عملية التصارع الفردي مع البيئة جنسياً وعدوانياً ركضاً نحو النهاية.

العدوان ومبدأ اللذة

ولقد نادت مدرسة التحليل بمبدأ اللذة. ويبدو لفريق من الباحثين أن العمل العدواني يعمل على خفض كمية الإثارة وهذا يساعد على ابتعاث اللذة. إن السؤال الذي يبحث عن إجابة: هو هل أن مبدأ اللذة هنا يعمل كمثير ثانوي لبدء العمل العدواني أي نتيجة تلقائية يحصل عليها الكائن عند ممارسة العمل العدواني؟ يعتقد البعض أن العمل العدواني ينطلق بدءاً من المرتكز الغريزي مستجيباً لمواطن الإثارة الخارجية أو الداخلية. . إلا أن نشوء اللذة المرافقة لهذا العمل يزيد من الرغبة في استمرار العمل العدواني طالما أنه أصبح مدعاةً لظهور تلذذ الكائن. إن هذا هو عينه الذي نعنيه بالمفهوم العصابي الرحامي لظاهرة تزامن اللذة مع العدوان باعتبارها مكسباً ثانياً يشد لا شعور الفرد إلى استمرار الحالة العدوانية ،كعنصر تحصيل لهذا المكسب.

ماهو الهدف إذن بعد تحققها – من اللذة؟ هل هو لخفض التوتر؟ ومتي يتم ذلك؟ لقد اعتقدت هذه المدرسة أن غريزة الموت تظل تركض بالكائن نحو الفناء. وكل عملية إطلاق لفعل عدواني تسهم في خفض التراكم العدواني الغريزي.

وتتمثل حالة الكائن هنا بحالة التبدل غير المستقر . فالهدف إذن من العمل العدواني هو خفض التوتر وخفضه يساعد في وصول الكائن إلى حالة من الاستقرار . وتعتقد هذه المدرسة التحليلية أن الموت يمثل حالة الخفض النهائي الكامل للتوتر . وبهذا تحقق غريزة الموت هدفها النهائي في الكائن تكرر النزوع العدواني المتلاحق ودعمه ، كأنني هنا أجد أن المدرسة التحليلية منشدة إلى التقرير أن هناك ميلاً في الكائن إلى العودة إلى حالة السبات الأولى قبل الولادة وقبل التكوين تتحقق بالموت .

أعتقد أن فرويد قد قرر بذلك حالة النرفانا Nirvana اطار المسار نحو العدم .

العدوان والذات

يبدو أن عنصر التدمير الذي تتصف به غريزة العدوان البشري موجه أصلاً نحو الذات . إنه يعمل على تحطيم الكائن خلايا وأنسجة وأعضاء ويركض به نحو نهائية(الموت) . وتظهر الغريزة الجنسية وانعطافات العملية العدوانية نحو الخارج(الناس ، الأشياء ، الأحداث) مُثبطّة لمسيرة التقدم بهذه الغريزة نحو العدم والفناء للفرد . كما يبدو أن الإنسان لولا ممارسات العدوان التي يسقطها على غيره (لا على ذاته) من حين إلى آخر مؤخرة لرسم النهاية المزيلة للتوتر (أي الموت) . فتظهر البيئة وكأنها هي المطيلة لبقاء الكائن (وهذا ما توضحه حالة العزلة والانطواء حيث لا يحدث التفاعل مع الوسط فتؤدي إلى حالة افناء الفرد لنفسه بالإيذاء أو المرض الاكتئابي أو الانتحار) . وهنا يؤدي العدوان الخارجي (من الكائن على البيئة) دوراً ايجابياً على الرغم من خطورته – في استمرار تفاعل الفرد وديمومته . وبانتفاء كل مثيرات العدوان أو حتى ظروف العدوان البيئي ، ينتفي عمل الدافع العدواني نحو البيئة الخارجية وتتجه العملية العدوانية إلى الداخل(الذات) . ألا يعني هذا أنه مالم يكن هناك إحباط من نوع ما وبحجم ما فلن يكون هناك سبيل إلى نشر عمل الدافع العدواني خارج الكائن؟ يبدو أنه لا

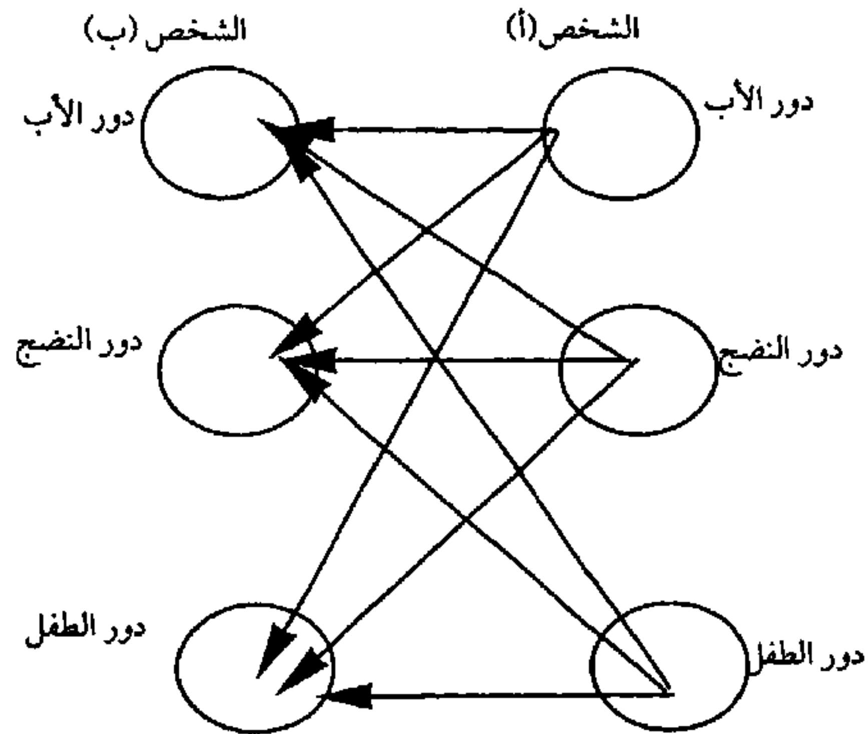
بد من وجود احباط يسبق العدوان لاظهاره بيد أن شريطة تحقق الاحباط كضرورة لظهور العمل العدواني على الذات ما يزال مثار تساؤل طويل.

ربما يكون من المفيد أن نؤشر في ميدان التحليل أن مخيلة الكائن في أدوار طفولته الأولى مزودة بقدرة كبيرة على نسج عالم خاص من التصورات المرسومة عن المحيط تختلف من طفل إلى آخر يعزز ذلك بعض العوامل منها مدى ارتباط الطفل بأمه وطريقة احتضانه وجغرافية نشأته وموروثه النسيجي الدماغي ولهذا فهناك اختلاف جبلي بين طفل وآخر في مضامين التصور والخيال والقدرة على التعامل وإبراز أو كبت النزعة العدوانية ويؤكد الباحثون في التحليل النفسي على ضرورة مراعاة مثل هذه الظروف في حياة الطفل عند دراسة ميله وعدوانيته اللاحقة. إلا أنه ما يبعث على الحسرة أنه لم تتوفر الآن الطرق التجريبية أو الاختبارية التي تستطيع رسم المنحنى البياني لمخيلة الطفل الأولى وموقع فطرة العدوان فيها ومنها.

نظرية إركبيرنا

يقرر هذا الباحث أن كلاً منا يحمل في داخله ثلاثة وجوه للتعامل طبقاً لثلاث شخصيات تتوفر في كل فرد في آن واحد. وهذه الشخصيات هي شخصية النضج الأبوي (Father Figure) وشخصية النضج المعتاد السوي (Adult Figure) وشخصية الطفل (Child Figure). وأننا في تعاملنا اليومي نتقلب في تقمص هذه الشخصيات تبعاً للظروف التي تمر بنا. ففي موقف معين قد نمارس سمات وتصرفات شخصية أبوية فنتبنى دور الأبوة والنصح والإرشاد. وفي موقف آخر قد نمارس دور الشخصية المتعادلة المتناظرة مع المقابل فنعتبر الطرف الآخر معادلاً لامكاناتنا ونستطيع معه التواصل الايجابي المستمر. ولكن قد نتعرف بحدود شخصية طفلية في موقف آخر. ونستطيع إحداث خصام واستعداء أي فرد بتغيير صيغة التعامل معه. فعندما نتعامل مع شخص قريب منا في العمر والمستوى الثقافي بصفة الأب المهيمن المقلل لدوره فإنَّ هذا كفيل

بإحداث استثارة له واثارة عدوانيته . ويعزو ارك بيرنا ظاهرة العدوان البشري إلى طبيعة ممارستنا لهذه الوجوه الثلاثة .



الفصل الثاني
العدوان والنشاط الجنسي

مقدمة

لاحظنا أن مسألة التلازم بين النشاط العدواني والنشاط الجنسي مسألة قائمة في كثير من مجالات هذين الدافعين. ونحاول الآن أن نتبين أثر العدوان كدافع فطري فسلجي الأثر في الحياة والنشاط الجنسي للفرد وكذلك أثر الطبيعة الجنسية -صحيحها ومعتّلها- في النزعة العدوانية للفرد أيضاً. يشير كثير من الأبحاث إلى أن العمل الجنسي الإنساني لا يتم إلا بتوفر النزعة العدوانية بين الجنسين بمعناها الموجب، ويلاحظ بعضهم أن إسقاط صورة المعشوق من الطرف الأول على الطرف الثاني يعتبر تعبيراً عن النزعة الجنسية العاشقة للذات الأولى والمصحوبة بطاقة الانفعال المفضي إلى العنف أو الممارسة بصيغة من صيغة.

العدوان وثنائية الجنس

وتلعب الحقائق العملية التي قررت ثنائية الجنس -والتي لا نقررها هنا لأنها ليست موضوعنا- دوراً كبيراً في إتمام العمل الجنسي بشكل عدواني. فقد وجد أن كلاً من الذكر والأنثى يحمل جزءاً من الجنس الآخر معه بصورة ضامرة. فالانيما Anima هي الناحية الأنثوية في الذكر والانيموس Animos هي الناحية الذكرية في الأنثى. والانيما هي الباحثة في الذكر عن الأنثى وعن التوحد فيها والانيموس هي الباحثة في الأنثى عن الذكر وعن التوحد فيه.

ومالم يتحقق هذا اللقاء فإن كلاً من هاتين الناحيتين (الانيما والانيموس) يعمل عمله كمثير ذي أثر متزايد في إحداث توتر مفضي إلى التحري بعدوانية ساعية إلى خفض التوتر. إذن يبدأ العمل الجنسي كتعبير عن التقاء الأنيما والأنيموس خفضاً للتوتر بشكله الاسقاطي.

العنف الجنسي

وللتذكير بمسألة العنف الممارس خلال عملية جنسية كاملة يكفي أن نذكر أن بعض الأبحاث وجدت أن جهداً يعادل ٧ - ١٠ كغم ثقلاً يبذل خلالها ويبديه طرف على طرف آخر. وبمفهوم ميكانيكية العنف فإن إبداء مثل هذا الجهد العنيف يبدو مؤذياً لو مورس ومن شخص على آخر بدون مثل هذه العملية. إلا أن عامل اللذة (لذة الألم وليس ألم اللذة) هو المانع للشعور بدرجة مثل هذه العنف مما يؤدي إلى الاستمرار في العملية على الرغم من عنفها.

تشابه فسلجة العدوان والاثارة الجنسية

إن التغيرات الفسلجية في الكائن البشري التي استطاعت أن تحصيها أغلب الدراسات عقب إثارة ناجحة لتحقيق عمل عدواني تشمل زيادة سرعة النبض وارتفاع ضغط الدم وازدياد حركة الدم في أجزاء الجسم الخارجية وارتفاع نسبة الكلوكوز في الدم وازدياد سرعة التنفس وتقلص عضلات الأطراف والجذع وتوقفّ الهضم وحركة الأمعاء وزيادة افراز حامض المعدة والعصارات الهاضمة وانتصاب الشعر، والتكشير عن الأسنان وإطلاق صيحات لا إرادية وانخفاض درجة الإدراك الحسي وتعطل وظيفة الأعصاب الناقلة للألم، وإذا أردنا تتبع التغيرات الفسلجية عقب اثارات جنسية أو خلالها نجد أن أغلب هذه التغيرات التي حصلت في الحالة العدوانية، إن لم تكن جميعها حاصلة في مرحلة التهيؤ للعمل الجنسي أو أثناءه. إلا أن هذا يجب أن لا يقودنا إلى القول إن العدوان والجنس يمثلان دافعاً فطرياً واحداً.

ويبدو أن مراكز الاستجابة العدوانية في منطقة الهايبوثالموس في المخ قريبة تشريحياً من مراكز الاستجابة الجنسية. وقد أدى تحفيز مراكز العدوان في مخ قطة في التجربة إلى إحداث حالة عدوان وهياج من عدم وجود مثير خارجي. ولكن إثارة هذه المراكز لم يثر جانباً جنسياً على الرغم من وجود قطة أخرى في حقل

التجربة من جنسٍ آخر. وفي تجربة أخرى أدى وجود قطة أنثى إلى استثاره مراكز أخرى في الهايبوثالموس لم تتصاحب باستثارة المراكز الأولى في التجربة الأولى ولم تؤشر المراكز التي أحدثت عدواناً باستثارتها أي انحراف في المؤشر الكلفاني على الرغم من الهياج الجنسي الذي أبداه القط الذكر في التجربة.

إن الدراسات التي عكفت على استجلاء الحياة الجنسية في الإنسان والحيوان بينّت إن وجود المثير أمرٌ ضروري لحدوث الاستجابة الفسلجية وتحقق العمل الجنسي. وتشير تلك الدراسات إن عزل قردة منذ ولادتها في مكان لا تتحقق فيه اثارة جنسية يخلق لديها جهلاً بالآلية الجنسية واستجابة الجنس، ولو تم لقاؤها بقرد بعد سنين كان هو الآخر خلالها معزولاً عن كل استثارة جنسية (غياب المثير).. لما كان هناك أثر للحياة الجنسية بينهما.

ولكن الصورة تختلف عندما يتم عزل أنثى ذات تجربة جنسية أو ذكر ذي تجربة جنسية في مكان ينعدم فيه المثير ثم يعرضان إلى الاثارة بعد زمن، حيث يتحقق العمل الجنسي، وفي الحالة الأولى (فقدان التجربة الجنسية منذ البداية) وجد أن حال المزاج والنشاط اليومي تسير بصورة طبيعية ولا تتحق حالات عدوانية أو غضب. إلا أنه في حالة القردة المجربة للعمل الجنسي والممنوعة من الاستثارة بانعدام المثير فإنها تمر بحالات غضب وهياج بين مدة وأخرى من استثارات أخرى حتى وإن كانت استثارات غير جنسية وتمارس عدواناً بآلية الازاحة الدفاعية المعروفة، بينما ترى مدارس أخرى إن الحيوان والإنسان يمكن أن يُثار جنسياً حتى بانعدام وجود للمثير.

أما في حالة الكائن البشري فالتجربة الجنسية الأولى تعمل عملها الفاعل في خلق الاستجابة الجنسية وتعمل الذاكرة والقدرة العقلية في الانسان عملها المميز في هذه الناحية. ولكن بانعدام المثير المستمر تنخفض الاستجابات إلى حد كبير، وهذا ما نلاحظه في فوارق النشاط الجنسي بين المجتمع الزراعي المحافظ والذي تنخفض فيه اثارت الجنس ورموزه إلى حد كبير عن تلك التي تتوفر للمجتمع الصناعي.

الجنس مثيراً للعدوان

كما أن حالة العدوان في الأنسان الذي لم يجرب الجنس لمرة في حياته من كلا الجنسين أقل بكثير من أولئك المجربين أو الذين جربوه وحرموا منه لأسباب أخرى فتعمل الآلية الجنسية والهرمونات داخلياً ترافقها حالة التذكر للتجربة الجنسية الأولى على زيادة التوتر نحو تحقيق عمل جنسي لاحق في حالة انعدام هذا التحقق وحصول حالة الاحباط بتحقيق واحد أو سلسلة من الأعمال العدوانية الخافضة للتوتر بإسقاطات قد تشمل نواحي الحياة الأخرى ومجالاتها خارج دائرة الحياة الجنسية. وللتدليل على أن العدوان البشري يمكن أن يكون صورةً من صور الجوع الجنسي والاستثارة الجنسية وليس مرتبطاً بالضرورة بها، أودّ أن أشير إلى أن انعدام القدرة الجنسية لسبب كالعنة أو اصابات الدماغ المصحوبة بالخذلان الجنسي الهرموني المنشأ، لا يلغي ظهور الحالة العدوانية عند الكائن. كذلك نجد من جهة أخرى. إن المريض بالكآبة المزمنة الشديدة يمتلك ميلاً عدوانياً كبيراً ولكنه يشكو من الضعف الجنسي دائماً.

الاختلاف الجنسي والعدوان

يحدثنا التاريخ والاساطير في حضارات الشعوب إن السيادة في الأرض كانت للأنثى لا للذكر؛ وإن كثيراً من الشعوب رفعت منزلة الأنثى إلى مقامات الآلهة ومولدات الخصب ثم حدثت الثورات التاريخية المتلاحقة وتم للذكر أن يحقق انتصاراً على الأنثى التي كانت تمثل التملك والهيمنة. ومن هنا تستنتج تلك الدراسات الانثروبولوجية إن العمل الجنسي يحمل روح الانتقام الذكوري المُجسّد بالعمل العدواني ضد سيدة الموقف الحيوي الغابر(الأنثى). ونستطيع تقبل هذه الشروحات في اطارها الفلسفي إلا أننا لا نعتقد أن الموضوع يعدو مسألة الفارق البايولوجي بين الهرمونات الذكرية والأنثوية التي يتطلب كل منها موقفاً معيناً من الآخر. فعلى الرغم من أن طبيعة عمل تلك الهرمونات لم

تكتشف بصورة كاملة إلى الآن، إلا أن المتيسر من المعلومات عنها يشير إلى أن الهرمون الذكري (الاندروجين) يطبع الكائن ومنذ أوائل نشأته بمميزات منها مادية فيزياوية وفسلجية منظورة كالصوت والشعر والعضلات ومنها معنوية كنمط الشخصية واختلافاتها واشاعة روح الانتهاك والسطوة والسيطرة. كما تعمل الهرمونات الأنثوية(الاستروجين) على طبع الكائن بصفات مرئية كهدوء الصوت وتناغمه وكثافة الشعر في الرأس وانعدامه وقلته في الجسم وتلدن الأخير بالشحم واكتناز المفارق الجسمية به؛ وبصفات معنوية كقوالب الشخصية الأنثوية وما تنطوي عليه من روح الكتمان والسرية والاحتجاب والرضا بممارسات الهيمنة الذكرية. إلا أن التركيز على الجانب الهرموني لا يلغي العوامل الأخرى التي تساعد على تمييز الذكر بالعدوان على الأنثى.

العدوان انحرافاً جنسياً

يعاني الفرد في حياته الكثير من الأمراض الجنسية التي تعطل فيه نشاطه الجنسي أو تحوله في غير اتجاهه المطلوب. ويعتقد الباحثون أن هذه الانحرافات ترتبط من طرف خفي بروح العدوان البشري، كمسبب أو كمصاحب لظهورها وكمعزز لظهورها ففي السادية وهي الظاهرة التي لا يبلغ فيها الذكر ذروة العملية الجنسية مالم يلحق الأذى في شريكه.. نجد أن الفرد السادي يمثل حالة احباط مزمنة من جراء سلسلة طويلة من الاخفاقات الجنسية في حياته، ويحمل في لا شعوره حالة خسارة في الموقف تجاه الأنثى. فيعمل العنف عمله في زيادة التوتر وخلق حالة غضب مبكرة تجاه الجنس الآخر يرتفع به إلى مستوى الاثارة الجنسية عن طريق العدوان. في الجنسية المثلية يجد كثير من الباحثين أن زيادة جزء الانما والانيموس في الذكر والأنثى على التوالي هي التي تحدث الميل إلى الجنس المماثل. كما يجد بعض الباحثين الآخرين إن الاحباط الذي يتلقاه جنس من جنسٍ آخر نتيجة الفشل في إقامة علاقة ناجحة يؤدي إلى ممارسة العدوان على

الذات ممثلاً بالعادة السرية أو تعشق المثيل (نفس الجنس) ويعالج بعض الباحثين مسألة البغاء وظهور المومسات على أنه (البغاء) نوع من العدوان على الذات.
فالمومس إنسان عانى أخطاء ومساوىء نشأة قاسية ومر بمرحلة اكتئاب عصابي شديد مزمن ولما لم تستطع المومس من اسقاط العدوان على المحيط المنشيء لهذه الحالة فإنها تمارس العدوان على الذات من جديد. وتحاول بعملها أن تستنزف أحد طرفي المأساة (الفريسة) طالما تعذّر عليها استنزاف الطرف الآخر المفترس (البيئة). ويقول بعض الباحثين أن ظهور العجز الجنسي **Impotance** بغياب الأسباب العضوية يمثل نوعاً من أنواع العدوان على الذات. سببه التعثر في إقامة علاقة ناجحة فإما أن يتخلص الشريك الأول من الشريك المثير للإحباط بإقامة علاقة جنسية جديدة مع شخص آخر أو يسقط عدوانيته على ذاته ويتخذ رمزاً جسمياً مبعراً هو العجز الجنسي.

الفصل الثالث
العدوان والصراع الطبقي

مقدمة

لا تقف خصوصيتنا المختلفة مع فلسفة الصراع الطبقي وما تحيط به كل مظاهر الحياة به من شمول واهتمام، ضد مناقشة بعض جوانب التناول التي أولاها منظرو هذه المدرسة لمسألة العدوان في النفس البشرية. وفي مختلف الدراسات التي تناولت الصراع الطبقي كمفرزة اجتماعية، لم تفترق ظاهرة العدوان والظاهرة الجنسية عن التنظير في افتراضات الصراع الطبقي. وعلى الرغم من أن معظم الدراسات التي قامت في هذا الصدد كانت من قبل باحثين في ميدان الاجتماع، إلا أن ادخالها للمناقشة في باب علم النفس الاجتماعي لا يحيد عن ميدان هذه الدراسة التي نحن بصددها.

تاريخية مشتركة

إنَّ مهمة التحليل النفسي تبدأ، بصورة أكيدة من المواقع التي حددها له أغلب المتخصصين البوجوازيين بمجاله، وبعض السياسيين الماركسيين، والهدف الأول في ذهن هؤلاء - كما يتراءى - هو تحديد الامكانية المعرفية لا الإدراكية. وحينما تبنى ماركوز نقطة انطلاق من نظريات فرويد، كما يعلق أحدهم، اعتبرت تلك الاتيانات وتلك التبنيات ذات قاعدة تاريخية مزيفة أمام الأبحاث المتعلقة بما قبل التاريخ. والتحليل النفسي ينطلق معتبراً الغريزة الجنسية بادئة منذ أول الطفولة الباكرة ومشتركة في التجليات والاهتمامات البدائية لنشاط الفرد، وفي تحديد القدرات التي يملكها للتفاعل مع المحيط مباشرة وتحقيق التكوينات الأساسية لما يسمى بعد ذلك بالأنا الواعي. ولا تجري السيطرة على مظاهرها ولا الاحساس بها من قبل الطفل بصفتها مؤثراً أو لذة دافعة للعدوان أو للقيام بصيغة من صيغه،

ان قدرة السيطرة عليها تكتسب مثل اكتساب القدرة على ضبط النشاط العضلي، وتختلف في ذلك من شخص إلى آخر ومن هنا تزرع النواة الأولى في هذا الاختلاف لنشوء الطبقة والعمل الجمعي الموجب ضمناً والمغاير والسالب تجاه طبقة أخرى تختلف بالقدرة على التحكم هذا. إلا أن البناء الفوقي يمنحها في المجتمع شكلاً نوعياً خاصاً بحضارة ذلك الوسط الذي تعيشه الطبقة التي ينتمي إليها الفرد. إن خاصية المرحلة الفمية تشير إلى افتراض إقامة الطفل علاقات لذة مع أول شخص، أي أمه، ويفعل الطفل ما يروق أمه(إخراج البراز. . التغوط. . التبول) ويتحدد الكثير من المعالم للفرد في هذه المرحلة الانتقالية وتتحدد هوية الفرد المرشح للانضمام إلى طبقة لها خصوصيتها وأثرها في البناء الاجتماعي اللاحق. وفي ذروة المرحلة القضيبية، يفرض ذوو الفرد حظر النشاط الجنسي مما يولد نوعاً من الاحباط المؤدي إلى نشوء نزعة العدوان وتراكمها خلال مدة الكمون(مرحلة التفكير بخطر الزنا) والتهديد بالخصي بالنسبة إلى الغلمان.

صراع الطبقة وعدوانية الجنس

وعلى صعيد ثقافة المجتمع تتطابق مع هذا النشاط الجنسي المحبط سلسلة كبيرة من الصفات المرتبطة به ومنها صفات الشخصية العدوانية وتصير المزايا الاجتماعية كالاخلاص والحب والاستقلال ومثيلاتها: التفكير وحرية الاختيار من ملازمات الحياة الاقتصادية والانضباط الذاتي والقدرة الابداعية التي تتجاوز في تحقيقها أو عدم تحقيقها قدرة الفرد ومسؤوليته إلى قدرة طبقة تمثل الفرد ومسؤوليتها، وتؤجج فيه الخبرة العدوانية أو تحبط المتنفس الأول إلى الافضاء. إن كل التنوع والتعدد بشكل أو بآخر يبدو أنه ظهر بصفة انقلاب تقني، لم يكن تحقيقه حاصلاً إلا بوساطة القسر المخصوص مقيداً مختلف وسائل إنتاجه بما فيهم الفرد بالعمل الاجباري والمجاعة بخلاف ما كان مفهوماً إن المصادفة البحتة كانت صورة من صور القسر الخارجي لظهور الرأسمال وظهور الطبقة ومميزاتها عن

غيرها. ويحدد التحليل النفسي، منذ المرحلة الشرجية، الطابع الفردي في استبطان عملية القسر هذه بأقوى صورها مفضياً من جديد إلى أن مسؤولية الفرد في المحيط - بمستوى الصراع بين الطبقات - لا تقل عن مسؤولية المحيط فيه (في الفرد). وبما أن هذه المرحلة الشرجية لها أثر كبير في المخيلة الفردية للنشأة، فلا عجب أن يمتد الأمر بأريك فروم (Erik Fromme) إلى أن يطلق على مثل هذه الطباع(الطباع الماسوشية التحكمية). ولهذا ومع أن مفهوم الطابع الشرجي ذو دلالة فردية، فإنه يحدد في النظام الرأسمالي طباعاً إجتماعية يمكن أن يكون لطبقة. وتمتاز هذه المرحلة بالافراط الشديد في التراكم العدواني بشطريه الفطري والمكتسب. ولهذا يتعزز هذا الميل(العدواني) في الشرائح اللاحقة لظهور هذه الطبقة فيما بعد. وليست الأمراض الظاهرة المطابقة لمثل هذه الطباع إلا عصاباً استحواذياً وقد وجد أن قسطاً كبيراً من العدوان على الذات يجري خلال العصاب الاستحواذي بشكله الوسواسي القهري كعنصر تنفسي وتفريغ لشحنة العصاب. إن العلاقة بين المرحلة الشرجية والطبع القسري بما فيها من نزوع إلى العدوان على الذات أو على المحيط، كبيرة كما أيدتها الدراسات. ومن مجموعة المعالجين في هذه الدراسات لاحقاً إرك فروم وويلهام رايش. إن سيطرة الطبع الشرجي والمبادئ الاقتصادية الناشئة على أساس منها تؤثر في النشاط العدواني كما تؤثر في النشاط الجنسي سواء بسواء. وعند ظهور الطبقة وما تمثله من صراع، يصبح الجنس وحيله العدوانية الاسقاطية مقيساً بمقاييس القيم التبادلية(عدد النساء في حياة الرجل، عدد طلبات الزواج عند المرأة.. الخ).

يقول موروس: - إن عصر النهضة، هو من جميع الوجوه، عصر الإنسان لم تعد فحولة الرجال في حاجة إلى الاثبات بمآثر بطولية: ولعل بروز هذه الصفة هو أبرز خصيصة من خصائص أدب النهضة الغرامي».

البيئة الطبقية والعدوان الفردي

ومثلما يحاول بعض منظري الصراع الطبقي أن يفصل الحب عن النشاط الجنسي ويحوله إلى شيء نقي، صاف، مقدس وأثيري؛ يحاول هذا البعض أن يجرد الغضب من العدوان أو العدوان بالطبقة على عكس العدوان وعوامل إثارته تبعاً للصراع الطبقي. وربما يكون مفيداً أن نقرر أن الفرد، بالمنظور البورجوازي، وعلي صعيد فرديته، يتوقف عند مدخل المرحلة السلبية لعقدة أوديب أو يتراجع عند بلوغه عنها. وبهذا الصدد يؤكد فرويد أن بنية الفرد النفسية المحددة بالثوابت العاطفية ما قبل الأوديبية، تتأرجح بين الحط من قيمة الشخص المحبوب أو رفعه المبالغ فيه إلى عالم المثال الأعلى. ويحاول هربرت ماركوز أن يعتبر القمع المشدد، صورة من صور العدوان في المجتمع الطبقي، قيوداً وتضييقات جعلتها السيطرة الاجتماعية ضرورية. ولهذا، وفي نظره، يلتقي مبدأ المردود الاجتماعي والصناعي، بالضمن، مع ما أسماه فرويد «السبب الثالث» كما يجمع بين مبدأ الواقع والسبب الثاني، أي الجهود التي ينبغي أن يبذلها الفرد لمجابهة مواقفه الخارجية.

إحباط الطبقة والعدوان

تزداد مسألة القمع الطبقي لنزعة العدوان، كعملية كف غير مشروط، مع تزايد التراكم الاقتصادي المستمر. وقد جاءت تحليلات كنسي بالبرهان على أن ذروة العدوان والنشاط الجنسي المكبوت تزداد طردياً مع القمع والحاجة إلى زيادة درجة التعليم. ويحاول منظرون آخرون في مجال الجدل والمدرسة الشرقية السوفيتية اعتبار عملية الاستمناء (العادة السرية) لدى الفئات الدنيا في مجتمع طبقي تعبيراً رمزياً عن الرفض المستمر والتدريجي للاحباط الممارس من الفئة الحاكمة والمتسلطة وبذلك تشتبك طرق الخبرة الجنسية البدائية المفتقرة إلى المداعبات الممهدة لعمل جنسي ناجح مع الحاجة إلى آلية أو أكثر من آليات الدفاع عن موقف عدواني لم يتحقق. ولقد أثبت ماركوز في تحليلاته السيوسيولوجية

أنه « يحدث منذ حين في الفرد نزوع قمعي للطابع السامي للغرائز والنشاطات الجنسية» .

مفرزات الصراع الطبقي وأثرها في العدوان . . . . . .

إن كبت الجنس والمثيرات الجنسية التي تنشرها الأفلام والأزياء والموضة والإعلانات والحلول الجاهزة للمشاكل الشخصية المشوشة يجمل أهم مفرزات تسلط طبقة معينة في مجتمع طبقي بصيغة عدوانية تمتهن إنسانية العناصر المسحوقة وتعزز مواقف الاحباط المفضية إلى خلق العدوان وتنميته من جديد. وهي بمثابة نداء خفي لافراغ الروح العدوانية على المتحررين جنسياً كاللواطيين والسحاقيين والهيبيين. وكذلك هي بمثابة تعبئة واستخدام للقلق كظاهرة مضادة للرغبة الجنسية ومحققة للعصاب. وبهذا يحقق القلق تبريراً للعدوان كظاهرة مرئية ممارسة من ظواهر القلق الحركي Psychomotoric anxiety . ويرى باحث معاصران من أهم مفرزات الصراع الطبقي هو العجز الذي يظهر في زمن مبكر جداً ويشمل تحويل الرغبة الجنسية إلى غرض آخر يجعل أولئك المصابين بهذا العجز، عاجزين عن تحمل الواقع ومحبطين، وبالتالي عدوانيين. وهذا مؤكداً، عرض من أعراض حالات الانهيار الذهاني ومختلف أشكال داء الفصام والذهان الهذياني. وبذلك يعمل الاخفاق في عملية التحويل - كصعوبة من صعوبات الصراع الطبقي - إلى نشوء النزعة المرضية النفسية بشكل عدواني مستثار.

يسأل فرويد في كتابه « الحياة الجنسية» : ما هي علاقة النرجسية بنزعة الاشتهاء وما علاقة النرجسية بالعدوانية؟ . من الضروري الاقرار بأنه لا يوجد منذ البدء في الفرد وحدة يمكن مقارنتها بالأنا ويكون على الأنا والحالة هذه إن تخضع لنمو وتطور. لكن النزعة الشهوانية والعدوانية في آن موجودة منذ البدء. ولأجل إبراز هذا المولود منذ البدء، تظهر الأنا كتعبير خاص ممثل لأقرب صيغ التواجد.

الشهواني والعدواني، بتعبير ما يسمى بالنرجسية. ويمض الصراع الطبقي في إحباط وبالتالي في استثارة النزعات النرجسية بشكل كبير.

أمثلة لامتهان العدوان الفردي في المجتمع الطبقي

وإذا أردنا أن نتمثل صورة من صور الترابط بين الصراع الطبقي والعدوان، فلنتمثل التسهيل الذي قدمته الطبقة المتسلطة في إحدى المجتمعات البورجوازية للنزعة الساديّة وتعزيزها بعد الاعتراف بها، فلقد قدمت مصانعها كمامات ذات سيور جلدية وقيوداً جلدية وأصفاداً للعراقيب وأصفاداً للقبضتين وخوذات جلدية وارداناً من الجلد وأغطية جلدية واقية للذراعين وسوطاً ذا (حزام) جلدي وأحزمة بكارة وتنانير جلدية. كما أن التقاط الصور الفوتوغرافية وتسجيل الأفلام السادية الجنسية وتوزيعها تعزيز للسادية الجنسية كصورة من صور العدوان الناشيء من موقف محبط سابق. إن اشاعة روح الاحباط في الفئات الدنيا في مجتمع طبقي تتأتى من يقين الطبقة المتسلطة بأن الازدحام العائلي والغزارة النسلية يقللان من فرصة التعليم والرقي الجنسي واهتمام العائلة بالفرد والتقليل من نزعاته العدوانية بتقليل مواقف الاحباط في حياته، وتلعب وسائل منع الحمل أو زيادته(بشكل عقاقير أو وسائل أخرى) ورقة رابحة في أيدي إدارة الصراع لتأزيم العدوان في المجتمع الطبقي ويبلغ التطرف عند أحد عشاق الكتابة عن الصراع الطبقي حداً كبيراً إلى درجة اعتبار الحب - الزواج - الحياة الجنسية مثلثاً قمعياً صاغته البورجوازية وقد طالب بإعادة مناقشته تحليلياً في المدارس الماركسية. ولقد حدد ويلهلم رايش وظيفة الزواج الاجتماعية بثلاثة طرق اقتصادياً: أي أنه يؤسس وجوده المادي على هذه القاعدة المادية وبهذا يمثل صورة من صور العدوان بطريقة التملك ضمن إشاعة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج. وسياسياً: أي أن الزواج يسعى إلى تكوين نواة لأعضاء المجتمع التحكمي ويعزز ظهور مواصفات الطبقة المتسلطة. واجتماعياً. أي يشمل تبعية المرأة والأولاد

وبذلك يزيد فرصة ظهور موقف الاحباط وبالتالي نزعة العدوان. وعلي الرغم من اختلافنا الشديد، خصوصاً في هذه النقطة، مع ويلهلم رايش فإننا لا بد من أن نورد هذا التنظير كسياق من سياقات ميكانيكية العدوان في مجتمع الصراع الطبقي. وأراني موفياً باكتمال الصورة في أقل تقدير، عندما أذكر لويلهلم رايش اقتراحه بتلطيف الوهن الذي يعتري الرغبة الجنسية ويزيد من فرصة الاحباط وظهور العدوان . يقترح رايش الانفصال النهائي عن الشريك أو خيانته بصورة مؤقتة أو الايحاء له بذلك، بغية زيادة التوتر وزيادة التحريض وتوجيه العدوان بشكل موجب بين الجنسين وبذلك يتم التحويل في صفحة العدوان من اطاره الفجّ الموجه إلى المحيط إلى إطاره الذاتي المنعش لحياة جنسية موشكة على الانهيار.

الفصل الرابع
العدوان وفلسفة الجدل

مقدمة

في النصف الأول من هذا القرن العشرين، أفاق العالم على اكتشافات في علم الانسان أحدثت صدى كبيراً في قراءة ماهية النفس وموقعها في سلم التطور. وترتكز هذه الاكتشافات على ثلاثة أسس: كشوفات أصل الأنواع وقانون الارتقاء، وكشوفات الطاقة وتحولها وديناميكية الكون، وكشوفات عالم الخلية في الكائنات الحية. وقد اعتمد الفكر الجدلي على هذه الاكتشافات اعتماداً كبيراً وتبنى المنظرون فيه أسساً في دراسة النفس البشرية.

وما يعمنا من هذه الفلسفة المادية الجدلية هو نظرتها إلى ماهية العدوان في النفس وأثر التطور والديناميكية في زيارة بروزه أو نقصه.

مرتكزات الجدل المادي

يرتكز الجدل المادي على ثلاثة قوانين رئيسة في منظوره الفلسفي: -

١ - قانون التغير الكمي إلى تغير كيفي.

٢- قانون وحدة الأضداد وصراعها.

٣- قانون نفي النفي.

ففي قانون التغير الكمي إلى تغير كيفي تدلل هذه الفلسفة على أن المادة سابقة على الفكرة وأن الأشياء موجودة بالكم وأن الأنواع في الشيء تمثل صورة الكيف. مثال: الشجرة: كيف كمي من مادة الشجر. الماء الجليد:

كيف كمي من مادة الماء، الماء السائل: كيف كمي من مادة الماء. وفي قانون وحدة الأضداد يهدف الشيء المادي إلى ايجاد النقيض، ويدخل في صراع ومعه ولا يتحقق وجوده إلا بوجود نقيضه. ومن هذا الصراع ينشأ المجمل أو المحصّلة

التي هي بدورها شيء جديد يبحث عن نقيض جديد ليدخل معه في صراع ولينشأ من صراعهما شيء مجمل أو محصلة جديدة باحثة عن نقيض هكذا . . . وفي قانون النفي تعمل الأشياء على التواجد بإبراز نفي المضاد.

الجدل وفسلجة بافلوف

وقد أقام بافلوف اتجاهه التجريبي على أساس هذه القوانين، ويلخص بافلوف الموقف في أن السلوك الانساني العام هو مظهر (محصلة أو مجمل) لنشاط مركب ومعقد في الجهاز العصبي وفي رأي بافلوق ان النشاط العصبي هو صراع بين قوتين متضادتين هما قوة الإثارة وقوة الكف. وعندما ينشأ سلوك ما، تكون الاستجابة السلوكية مجملاً أو محصلة لصراع الموضوع (المثير) مع نقيضها (الكف). فجنب كل خلية عصبية مثارة توجد خلية عصبية غير مثارة، وتحاول الأولى (المثارة) أن تؤدي عملاً ما وتحاول الثانية أن تكف هذا العمل، فتدخل الخليتان في صراع ومنهما ينشأ السلوك الفاعل أو المكفوف كمجمل أو محصلة طبقاً لتفوق الاثارة على الكف أو الكف على الاثارة. ووفقاً لهذه القاعدة التي بنى عليها بافلوف ميكانيكية الوظائف العليا بمنظور جدلي، نستطيع القول إن كل خلية مثارة تحمل شحنة الانفعال التي قد يكون بمقدور الخلية الساكنة أو المحبطة أن تكفها وقد لا يكون وبهذا تظهر جميع جوانب السلوك الانساني كمجمل لحاصل وحدة الأضداد وصراعها ويشمل ذلك العدوان وقبله انفعال الغضب. وتؤكد تنظيرات بافلوف أن هناك مراكز للعمل العنفي العدواني في المخ تحت اللحاء في مناطق الهايبوثالموس تستثار بين حين وآخر بفعل خارجي أو داخلي ونتيجة للصراع الناشيء من وحدة ضدين (خلية عدوانية مثارة وخلية كافة) ينشأ السلوك العدواني . بصيغة من الصيغ. ويبدو أن هذا الشرح الذي يقدمه بافلوف ما يزال ارتكازاً أولياً على قاعدة التطور والارتقاء في الانسان.

الجدل المادي ونظرية الارتقاء

أيدت نظرية التطور التي ناقشت موضوع الصراع، نشوء السلوك الإرتقائي الايجابي كدليل على قدرة تفوق الأقوى. والأقوى بالمفهوم البايولوجي هو الأكثر أهلية للاستمرار وإزالة محاولات الكف بما يمتلكه في الخلية من الأحماض الأمينية والجينات والبروتوبلازم وتصلب الغشاء النووي ووسائل الدفاع. ولا يخلو هذا الصراع الذي يكسبه الأقوى من شحنة عدوانية تشكل من مجموعها النهائي كتلة عدوانية تتخذ صورة من صور السلوك العدواني المعروف، ولا نعتقد أن بافلوف ابتعد كثيراً عن تنظيرات الفكر المادي الجدلي بإقرار صيغة التغير الكيفي للمتغير الكميّ. وميل الكيف إلى التحقق والحدوث دليل الدينامية والحركة وأنْ لا شيء ساكن في الوجود، وأنْ ما فيه رهن بالتحول تبعاً لقانون تحول الطاقة، وكل عملية تحول مرهونة بنزوع عدواني(سالب) كما في حالة فناء الأضعف أمام الأقوى أو(إيجابي) كما في الحالة المفضية إلى ظهور نوع متكيف للبيئة ومطور لها نحو الأحسن.

الجدل والعدوان

وإذا أخذنا حالة إنسانيّة معينة كمثال: من مجموع إثارة لنسج أو مجموعة أنسجة عصبية يبرز المحصل الجديد وهو السلوك. وعند تحقق السلوك الذي هو شيء جديد في حياة الفرد سيبدأ بالبحث عن النقيض للدخول في صراع معه، هذا النقيض هو الجسم والمحمل الناتج من صراع السلوك مع نقيضه (الجسم) ستبرز الحياة. الحياة مفرزة جديدة باحثة عن نقيض تدخل معه في صراع جديد. هذا النقيض هو الموت. محصلة صراع الحياة مع الموت هو محصلة الفناء. بما أن الفناء بالمفهوم الجدلي يلغي الدينامية ويلغي الطاقة والطاقة لا يمكن الغاؤها. فتحدث هنا حالة هروب إما إلى الذات (عودة إلى الحياة) وهذا مستحيل أو إلى الأمام(بإتجاه الموت) وهذا ما يفسر الاسراع بعملية اقتطاف الفناء ويبرر مسألة

العدوان. ولعل ما تقدم يستطيع أن يوضح أن العدوان في النفس لا يعدو كونه، في الفلسفة الجدلية المادية، مجملاً أو محصلة صراع بين قوتين، ممكن الحدوث طالما توفرت الاثارة والكف في وسطين يمكن لهما أن يدخلا في صراع مفضٍ إلى ذلك.

الفصل الخامس
العدوان والشخصية

مقدمة

لم تواجه التصنيفات التي أجراها المتخصصون بتصنيف الاضطرابات والأمراض النفسية صعوبة مثل صعوبة دراسة الشخصية الإنسانية بدءاً بتعريفها ومروراً بأنواعها وتقسيماتها وانتهاءً باعتلالها وطرق معالجتها. فلقد اختلفت آراؤهم كثيراً حولها ووجدوا صعوبة بالغة في الاتفاق على تعريف واحد لها. ونجد أنفسنا غير مهتمين هنا كثيراً بتلك المعضلة قدر اهتمامنا بما لتلون هذا الجانب السلوكي بما يؤثر على المحيط من روح العدوان وكيفية ممارسته. وفي معظم الدراسات أطلقت تسميات عديدة على العدوان وكيفية ممارسته. وفي معظم الدراسات أطلقت تسميات عديدة على أنماط الشخصية وبما يكون الأساس في ذلك الاعتبار السريري الظاهري، بغض النظر عن الاختلافات التشريحية والبايولوجية المختبرية التي يمكن أن تكون المسؤولة عن بروز هذا الاختلاف. فهناك الشخصية الفصامية والشخصية الاكتئابية والشخصية الانفجاريةوالشخصية النمطية والشخصية السايكوباثية والشخصية الكحولية(مع وجود خلاف حول هذه التسمية هذه الأخيرة). وكل هذه التصنيفات وصفية، عرضية، وليست باثولوجية الأساس، وتكمن الصعوبة في الاعتماد الباثولوجي في استحالة العثور على معطيات مختبرية في شخصية دون أخرى بما في ذلك فحوص الخلية والجينات والدم وتخطيط الدماغ والغائط والبول وتخطيط العضلات ومفرسة الدماغ. ولنأخذ هنا مثالاً من أنماط الشخصية تبرز فيه ظاهرةالعدوان بروزاً واضحاً وهو نمط الشخصية السايكوباثية. وعند مقارنة هذا النمط من الشخصية في جانبها العدواني بأنماط أخرى الشخصية الاكتئابية والشخصية الفصامية، نجد كثيراً من الاختلاف بين مفردات صفاتها وبين طبيعة ممارستها للعدوان.

العدوان السايكوباثي

في السنوات الماضية، أطلق لفظ «سايكوباثي» لتشخيص أنماط يختلف سلوك أشخاصها عن السلوك العادي. وعلى الرغم من أن كثيراً من الباحثين يحاول أن يجعل مصطلح السايكوباثي شاملاً لأنماط أخرى كالشخصية المبدعة أو شخصية المنحرف الجنسي، فإننا سنكون في منأى عن تناول هذا النوع من الانضمام لأن ما يهمنا هو علاقة العدوان بتلك الشخصية السايكوباثية كمثال للشخصية المريضة. وسأحاول هنا أن أدرج المستجدات الطبية والنفسية الاختبارية في الشخصية السايكوباثية وبالتالي أن أناقش النزعة العدوانية فيها.

١- أظهرت بعض الدراسات المجراة على هذا النمط من الأشخاص أن هناك شذوذاً في ذبذبات المخ الكهربائية بنسبة ربع إلى نصف العدد الخاضع للتجربة(احصائية مستشفى رامبتون).

٢- أظهرت بعض الدراسات أن هناك شذوذاً في الكروموسامات الجنسية بين أكثر من ٢٪ من عينات التجربة(احصائية مستشفى موس سيد Mossside). أو أشخاصاً بصفات جنسية.

٣- أظهرت بعض الدراسات في مستشفى رامبتون وجود علاقة بين السايكوباثي والنقص العقلي.

٤- أظهرت هذه الدراسات أن الكثير من الأشخاص الخاضعين للتجربة ذوو ذكاء متوسط فوق المتوسط (لاحظ الفرق بين النتيجة في (٣) والنتيجة في (٤)).

٥-أيدت المسوحات الميدانية أن هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى بيئة منزلية ينقصها الحب ويعتورها الحرمان الطفولي؛ مما يجعلهم تحت وطأة النوازع الملحة واللجاجة في طلب الأشياء.

٦- وجد أن هؤلاء الأشخاص يميلون إلى جرائم العنف والجرائم الجنسية وانه ليس هناك ميل ومتخصص بنوع معين من الجريمة، فالذي يقوم بجريمة جنسية لا يردعه العقاب الذي يناله بسببها عن الاتيان بجريمة سرقة لاحقة.

٧- يظهر هذا النمط من الأشخاص سلوكاً لا سوياً تجاه محيطهم وأقرانهم. ومن أهم مفردات هذا السلوك: اللامبالاة وعدم الاهتمام بمشاعر الغير والأنانية المتمركزة حول الذات، ومحاولة الاستيلاء على المرغوب بدون إعارة أقل اهتمام لحقوق وحاجات الأشخاص الآخرين. وعند أقل اعتراض يبديه الآخرون تجاه هذه النزعة اللحوحة فإن الحاق الأذى والميل إلى القيام بالعنف يعتبر مبرراً لهم ولا حاجة لمناقشته. وكثيراً ما لا يتناسب حجم الرد العدواني من قبل السايكوباثي وحجم المثير لاتخاذ مثل هذا الرد.

٨- يفتقر السايكوباثيون إلى مراعاة القيمة الاجتماعية والمعنوية للأشياء والأحداث فالصدق والكذب في المعيار سواء. وما يصدر من صدق أو كذب ليس إلا ما تمليه الحاجة الذاتية لا الالتزام الاجتماعي. وبما يبرر بعض الباحثين هذا الميل إلى الكذب لدى السايكوباثي يمرّ بمبرر فشله في إقامة علاقة مع الآخرين وأن هذا الكذب هو إحدى وسائل الدفاع لهذا الانسحاب من علاقة فاشلة.

٩- تمتاز مخيلة السايكوباثي بالامتلاء بالأوهام ونسج الخيال واحلال الزيف وحبك الأقاويل محل الحقيقة في مقوف من المواقف.

١٠- يبدو أن السلوك السايكوباثي مبكر في ظهوره منذ سني الطفولى الأولى ولكن أعذار الطفل من قبل محيطه من مسؤولية الكثير من تصرفاته يضيع فرصة التفريق بين ما هو سلوك طفولي ساذج وبين ما هو سلوك سايكوباثي.

١١- عند توجيه اللوم أو النصح إلى هذا النمط من الأشخاص فإنهم يزيدون في الامعان في اتخاذ مواقفهم واتخاذ مواقف جديدة قد تزيد خطورة عن سابقها.

١٢- في إحدى الدراسات المقارنة في مستشفى رامبتون وجد أن السايكوباثي ليس مجنوناً ولا يصدر هلوسةً أو ما يدل على بعده عن العالم الواقعي. ولكنه يدرك ما هو واقعي وما هو مزيف ويحاول أن يخلط الزيف بالحقيقة تحت ستار اللامبالاة التي تحطم أمامه كل قيمة معنوية للمواقف.

١٣- تعتور الشخصية السايكوباثية أفكار العظمة ويلجأ صاحبها إلى تمجيد الذات

ولكن الفرق بين شعورهم هذا بالعظمة وبين شعور المجانين بها هو أنهم قادرون على إقناع الوسط حولهم بصدق سر عظمتهم بالمزيد من الاثبات والمنطق المنسق المنسوج المترابط .

١٤- يستطيع السايكوباثي أن يتقمص أية شخصية أخرى يحتاج إليها موقف معين . وعندما لا يثق السايكوباثي بشخصيته في موقف خاص فإنه يتخذ شخصية خيالية لاجتياز هذا الموقف .

١٥- في مسألة إسقاط العدوان والشعور بالذنب ، نادراً ما يقع السايكوباثي في كآبة . وذلك لأن إحدى عناصر الاكتئاب وهو شعور بالذنب وعقاب الذات لا يحصل عند . السايكوباثي . السايكوباثي يسقط عدوانيته على المحيط وعندما يجابه بإحباط لهذا العدوان لا يسقطه على ذاته - مثل الشخصية الاكتئابية - بل يسقطه على مواقف أخرى في محيطه - مثل الشخصية البارانوية - وبهذا يجمع صفتين من شخصيتين مختلفتين . وفي هذه المرحلة فإنه لا يشعر بذنب ولا يمر بعقاب لذات .

١٦- يمثل الردع والتخويف عملية كف للعدوان في أنماط الشخصية الأخرى ويقيم أصحاب الشخصية الاكتئابية والفصامية على سبيل المثال دفاعات ضد ذلك كالكبت والازاحة والاسقاط على الذات والتسامي والانكار للخلاص من العقاب بينما لا يحدث مثل هذا السلوك في الشخصية السايكوباتية . فالسايكوباثي لا يخشى العداء ولا يخشى الأعداء . لا يبالي بالخطر أو يتوجس خوفاً من مكامنه . وتستفيد بعض المؤسسات في بعض الدول من مثل هذه الظاهرة في استخدام أشخاص من هذا النمط في مهمات تتطلب المجازفة والمغامرة وعدم اللامبالاة بالمخاطر مع إقامة التحصينات ضد شمولية نشاطهم في جوانب أخرى قد تؤذيهم أو تؤذي الوسط الذي يتعاملون معه .

العدوان السايكوباثي في نظر السلوكيين

يفسر بعض الباحثين السلوكيين نشوء السلوك السايكوباثي بأنه نتيجة للفشل في الحصول على حنان كاف في النشأة الأولى، والاخفاق في إقامة روابط عاطفية سليمة. وفي هذه الحالة تعزى مسؤولية نشوء هذا النمط من الشخصية إلى المحيط (أي إبراز مسؤولية البيئة عن نشوء هذه الحالة).

بينما لا يُبريء آخرون ساحة الفرد الوراثية واضطرابات الخلية وتغيراتها الطفرية من مسؤولية أحداث الحالة. ويرى فريق آخر أن الامتناع عن العمل العدواني في الشخص العادي يتناسب تناسباً طردياً مع حجم العقاب المفروض كجزاء. فالخوف من الإعدام يمنع ممارسة العنف بمستوى القتل والخوف من الحبس يمنع ممارسة العنف بمستوى سرقة بسيطة. بينما يرى آخرون أن الشخص العادي يمتاز بقدرة على تقبل الكف(كعقاب) مهما كانت درجته بسيطة فتمنع فيه عقوبة بسيطة إتيان عمل عدواني خطير(لأن العنصر العامل في ردعه هو نشوء القيمة المعنوية لديه للعرف الاجتماعي ولنوع العقوبة وليس لحجمها).. بينما في الشخصية السايكوباثية لا يعني نوع العقاب وكمه شيئاً في منع قيامها بعمل عدواني وذلك لاختفاء القدرة على تنشئة آليات الدفاع لاشعورياً ولتميز تلك الشخصية بعنصر اللامبالاة.

مناقشة

إننا نجد هنا ميلاً إلى الاعتقاد بأن ما يمنع العمل العدواني في الإنسان السوي - إذا أخذنا تأثير البيئة في ردع العدوان بنظر الاعتبار - حرصه على الاحتفاظ المعنوي بالقيمة الفردية له في المجتمع وخوفه - ليس من العقاب - بل من احتمال سحب الحب والرضا الاجتماعي منه. وإلا ففي هذه الحالة يتطابق النظر في مسألة عقاب الشخص السوي والسايكوباثي عن جرعة معنية يتعفن فيها الشخص العادي السوي ولايستفيد منها الشخص السايكوباثي ونعتقد كذلك إن مسألة

اصلاح أو تقديم العلاج لحالة الشخصية السايكوباثية لا تتأتى بطريقة العقاب (لأنه لا ينفع) بل بمحاولة تحليل ظروف هذه الشخصية وإرجاع الشخص إلى ظروف نشأته الأولى ومناقشتها والتعامل مع عوامل ظهور هذا العدوان الاجتماعي الخطير، وتحري الأسباب التي تعيق هذه الشخصية من إقامة علاقة موجبة مع الآخرين. والأمل كبير في أن يستجد جديد في عالم المختبر النفسي وعالم الخلية في سبيل إيجاد أسس بايولوجية معتلة أدت أو تؤدي إلى ظهور مثل هذا النمط الشخصي وبالفعل فقد جرت محاولات مختبرية لدراسة أنسجة جسم السايكوباثيين ولكن نتائج هذه البحوث ما زالت في حاجة إلى متابعة وتطوير.

الفصل السادس
العدوان والكآبة

مقدمة

ربما تبين من كلامنا السابق عن العدوان أن هناك أدواراً ايجابية للعدوان بدءاً من حاجة الطفل الرضيع إليه في بناء وتصالب عناصر شخصيته، ومروراً بعلاقته بحياة البشر الجنسية وما إلى ذلك من أدوار موجبة. ربما تبين أيضاً ما يقوم به الفرد العادي من أدوارخلال مرحلة العدوان وما يخلق الفرد من تغيرات فسلجية خلال وبعد نوبة عدوانية هياجية. إلا أن ما نفتقده أنه ما يزال في حاجة إلى ايضاح هو حالة هذا الدافع(الفطري) لدى المعتلين نفسياً أو المصابين بأمراض نفسية وعقلية. هؤلاء الذين نشأوا بطريقة تعذر عليهم فيها الخلاص من الانتكاسات النفسية وبالتأكيد سيتعاملون بطريقة تختلف عن غيرهم من الأسوياء تجاه دافع العدوان. ماذا يرى مريض الاكتئاب وكيف نراه نحن في صورته العدوانية وما هي فروق سلوكه عن أصحابه؟.

تبدل المزاج والميل العدواني

ربما تيسر للفرد العادي(ولنُسمِّه: السويّ كمعدل) أن يلاحظ أحياناً مروره بنوبة هياج أو حالة من حالات العدوَان التي يعبر عنها بشكل عنيف فيبدي تذمراً من تلك الحالة وربما طلب لها حلاً من صديق قريب أو من طبيب واستشار رأي غيره في الخلاص من هذا الشعور العدواني وكأنه قد حمل ما لا يرغب حمله من نزعة أو شعور. وربما تعرض أحدنا إلى موقف معين، داخلي كالمرض، أو خارجي كمؤثر بيئي سبب له تصاحباً أو تزامناً مع بروز الرغبة في إبداء شيء من العدوان يسقطه على نفسه أو على المحيط، وربما أفضى أداؤه بشكل عنيف إلى وتخفيف أثر تلك الأزمة الخانقة التي انتابته على الرغم مما لهذا الأداء العدواني

من مخاطر أو أذىً. ومن هنا نلاحظ التلازم الشديد بين انتكاسات وتعكر المزاج وبين ظهور حالة العدوان في النفس. أما في حالة كبت أو كف هذه النوازع العدوانية فإن زيادة من الاكتئاب واشتداد الحالة ربما يتتج عن ذلك. هذا في حالة ما يطرأ من مواقف آيلة إلى الاختفاء والتلاشي في مسيرة الفرد العادي. أما في حالة الاكتئاب فإن الصورة تختلف نوعاً وكماً في ظهور السلوك العدواني لدى المصاب.

نوع الاكتئاب وشدته وعلاقته بالعدوان

إننا لا نجد فائدة تذكر من تأشير التصنيفات التي حاولت تقسيم الكآبة في علم الأمراض النفسية بما يتعلق بموضوع العدوان. فعلى الرغم من أن هناك تقسيمات كثيرة تشير إلى أنواع عدة من الكآبة كالعصابية والذاتية والانفعالية إلا أن ظاهرة العدوان يمكن أن تحدث في أي منها دون تفريق وربما كان أخذنا شدة الاكتئاب ومدته بنظر الاعتبار أجدى بكثير من أخذنا نوع الاكتئاب بنظر الاعتبار. ربما نجد في حالة اكتئابية بسيطة الوطأة ظهور الأعراض العامة للمرض كالحزن والوهن الجسمي واختلافات الفسلجة وتبلد الشعور واضطراب النوم وفقدان الشهية وازدياد الوهن الجنسي وتعكر المزاج والميل إلى العزلة والاحجام عن العمل والشعور بالتعب.. كلها قد نجدها بشكل متكامل ولكنها خفيفة الأثر والوطأة على مسار الإنسان المصاب ولكن و على الرغم من ذلك قد ترتكز شدة الاصابة في بروز العدوانية بشكل مفرط وبشكل غير متناظر مع وحدة الأعراض التي ذكرنا. ولدينا ما نسترشد به من الاحصاء في مثل هذه الحالات كحالة الكآبة الضامرة أو المقنعة وهي صورة من صور الاكتئاب التي تنتاب بعض الأشخاص الذين لا تسمح ظروف معينة فيهم كبنائهم الشخصي والقيود الاجتماعية حولهم بظهور هذه الأعراض فيبدو هؤلاء الأشخاص وكأنهم غير مكتئبين ظاهرياً أو أنهم مكتئبون بشكل بسيط. ولكن الفعل الاكتئابي يعمل عمله في الداخل

ويدفع هؤلاء الثمن التعامل معه من بنائهم وصحتهم الجسدية والنفسية. وقد يلجأ مثل هؤلاء إلى القيام بالعمل العدواني غير المتوقع وغير المتناظر مع حالتهم الظاهرة وربما برز ذلك بصيغة محاولة انتحار أوانتحار تام. وقد سجلت الاحصاءات الطبية مثل هذه الحالة التي راح ضحيتها أناس كان لا يبدو عليهم مظاهر الكآبة بصورة صريحة. وربما حدث العكس من ذلك تماماً، فعندما تشتد الوطأة الاكتئابية ببعض المرضى قد يبرز استفحال في الأعراض العامة التي ذكرناها وتخف الوطأة العدوانية بشكلها المؤدي إلى عقاب الذات والشعور بالذنب.

علاقة العدوان بمسيرة المرض الاكتئابي

ولقد وجد بعض الأطباء النفسيين خلال علاجهم لمرضى اكتئابيين أن ازدياد الشعور بالعدوان والميل إلى إبداء هذه النزعة العدوانية في المراحل الأخيرة من مدة المعالجة بشير بتحسين الحالة والتماثل للشفاء. ويعزو هؤلاء الأطباء تلك الظاهرة إلى انحسار العدوان على الذات وهو ما كان يشعر به المكتئب ويسبب له ألماً وظهوره وبشكل إسقاطي على البيئة، وهو ما يوفر راحة داخلية للمكتئب نظراً لتغير مسار النزعة العدوانية من الداخل إلى الخارج.

وهكذا فكلما اقترب المريض من شاطئ الشفاء، تحولت النزعة المنكفئة إلى الداخل، إلى اسقاط عدواني على الخارج وهو عين ما يبديه هؤلاء المتماثلون للشفاء. يجدر بنا أن نذكر أن في هذا الاكتئاب تبرز النزعة العدوانيةبشكل عنيف يوجهه المريض إلى ذاته كنتيجة لشعوره بالذنب ازاء موقف داخلي أو خارجي يعتقد أنه كان سبباً في حدوثه ومسألة عقاب الذات يتخذها هذا المريض وسيلة من وسائل التعبير عن حزنه، ويستطيع المتتبع أن يجد هذه الظاهرة شائعة في صفوف المكتئبين كما في حالات الفشل العاطفي أو الخسارات المالية أو فقدان الاغراء والأمل أو التعرض للسجون أو التعرض للغربة أو حالات الاكتئاب الذاتي الذي لا يستند إلى أسباب ظاهرة.

الحب والكراهية عدواناً اكتئابياً

يشير أحد الأطباء إلى حالة خاصة من حالات الحزن التي أدت إلى ظهور الشعور بالذنب عندما توفي لأحد الأشخاص أحد معارفه الذي كان يناصبه العداء في حياته ويبادله الشجار الدائم. وعندما توفي هذا الشخص شعر الأول بحزن تصاحب مع شعوره بالذنب وعدوان على ذاته شديد الوطأة.

ويفسر هذا الطبيب هذه الظاهرة بأن وجود الشخص المتوفي كان يشكل لوحة حية يسقط عليها الشخص الأول عدوانيته بشكل خارجي(خارج نفسه) مما يخلصه من المزيد من عدوانيته، وبموت هذا الشخص فقد الأول هذا العنصر المفرغ للعدوانية التي ما لبثت أن استحالت إلى ذاته وأحدثت هذه الحالة من المفرغ للعدوانية التي مالبثت أن استحالت إلى ذاته وأحدثت هذه الحالة من الشعور بالذنب ومسحة الحزن الشديد. ومثل ذلك ما يحدث عند فقدان شخص عزيز لأحدنا. فوجود هذا الشخص كان يمثل هدفاً نسقط عليه الحب والعدوان بدون عملية كف لمشاعرنا، وعند فقده أو موته نخسر هذه الصفحة الماثلة للاسقاط . . . بمعنى أننا نخسر متنفساً لاسقاط الحب والعدوان معاً وانجاحه موقف إحباط وينكفيء العدوان إلى الذات وينشأ الاكتئاب. وتدلل مدرسة التحليل النفسي على علاقة العدوان بالاكتئاب على نحو ترشيح فيه أن كلاً منا يحمل جانباً مكتئباً في زمن ما نتيجة للظروف التي نمر بها بدءاً من الرضاعة الأولى، فعندما توفر الأم الحب والغذاء للطفل، يخلق التلكؤ في تقديم هذين المكسبين من قبل الأم للرضيع مقابلة منه لها بالصياح والعويل فتمتزج صورة العطاء بشيء من العدوانية يختزنها الوليد تجاه أمه وبهذا تعتبر أمه هدفاً للحب والعدوان في آن. ولما لم يكن واحد منا لم يمر بمثل هذا الموقف المهمل لطلباتنا من قبل أمهاتنا عن غير قصد فإن مسألة تزامن الحب والعدوان والقدرة على إسقاطهما لاحقاً يمكن أن تشمل أياً منا في كل حين، وتبرز ظاهرةً عند مجابهتنا لأي موقف مثير لوضع اكتئابي. ويبدو أنه في وضع اكتئابي معين، يعاني المصاب من فقدان القدرة على منح الحب للمحيط

حوله لانحسار الطاقة النفسية عموماً فيه ولما كان يملك حالة وعي لا تسمح له بإسقاط الجانب الآخر منه وهو العدوان على المحيط فيقوم بإسقاط العدوان على ذاته ويعتبر الذات هي المسؤولة عن الاخفاق في خلق موقف صلب أمام حدث معين، وهي المسؤولة عن الاخفاق في منح الحب للمحيط وبالتالي الاخفاق في إقامة علاقة عاطفية ناجحة مع الوسط.

البيئة العدوانية والاكتئاب

والذي يعرفه الكثير من العاملين في مجالات علم النفس والطب النفسي أن العصابي المكتئب يعاني حالة اعتماد كبيرة على الآخرين في حياته نظراً لعدم اكتمال بنائه الشخصي وحاجته إلى تعويض هذه المنقصة البنائية بحنان وعطف واسناد الآخرين. وفي حالة انسحاب هذا الموقف الساند له من قبل المحيط، يمر بحالة كبيرة من الاحباط وتحدث عملية كفّ شديدة لحبه الذي يسقطه على الآخرين ويبدي المزيد من الشعور بالذنب تجاه خسارة هذا الموقف ويؤدي به ذلك إلى عقاب ذاته بالمزيد من العدوان، واذا استخدمنا عبارات بافلوف فيبدو أن هذا العصابي ربما يمتلك لحاءً ضعيف التكوين ويعمل أبطال الموقف الحنون له من قبل الوسط كعامل كفّ شديد له يؤدي إلى تلاشي الارتباط الشرطي وظهور العامل العدواني في آليات ومراكز ما تحت اللحاء الضعيف.

الحب بديلاً للعدوان الاكتئابي

وقد يبدي بعض المصابين بالاكتئاب المزمن تعاطفاً مع أشخاص مكتئبين آخرين ويحاولون إقامة علاقة ود معهم. . وبمثل هذه العلائق يعتد بها بشكل إنساني إنها نموذج للتوحد المريض واحساس داخلي بشراكة المأساة واقتسام عقاب الذات. فحب المريض لمريض آخر هو في الحقيقة حب الذات في الآخر وليس حب ذات الآخر. ولا ينكر ذلك كثير من المعالجين النفسيين حين يقع مرضاهم في

حبهم. يحبون المعالجين كرمز لحب الذات؛ ولأن المعالج بصورة أو بأخرى يظهر نوعاً من التناغم مع مشاعر المريض المحتاج إلى الحنان المسحوب منه من قبل الوسط حوله فيجد في معالجه تعويضاً باسقاط هذا الحب والعدوان في آن واحد. ويجد في المعالج جليساً مشاركاً لمأساة واحدة. وسرعان ما يسقط هذا الحب ويتلاشى حال اكتساب المريض الشفاء حيث تتماسك اليته الدفاعية ويستطيع بعد ذلك في وضع صحي جيد أن يمارس عدوانيته في إطار موجب ويتخلص من انكفائها إلى الداخل وإلى عقاب ذاته. وربما لا يغيب حتى على المراقب العادي لمريض مكتئب مزمن حالة الاعتماد المفرط على غيره وابتزاز الكثير من خصال شخصية الآخر والعيش على تعاملاتها الاجتماعية لأنه غير قادر على التعبير عن مشاعر الغضب والحب تجاه الوسط فيجد مثل هذه الشخصية التي اعتمد عليها مجالاً لمثل هذه المهمة. وتلعب أدوار النشأة الأولى مع أم لا تقدم الحنان بشكل مشبع للطفل إلى انتكاسته واهتزاز شخصيته فيعود في مراحله اللاحقة عرضة للاخفاق والنكوص إلى مراحل طفلية اعتمادية على آخرين ربما يجد في نضجهم العاطفي والشخصي مجالاً للتعويض.

حالة مرضية بالعدوان الاكتئابي

وفي تجربة لطيفة قام بها أحد الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية على شخص كان يمثل وصفاً سليماً نفسياً فلم يكن يعاني من عرض اكتئابي، وكانت تربط هذا الشخص عدواة وكراهية شديدة بزميل له في العمل أدت به في يوم إلى القيام بقتل هذا الزميل. وبعد بضعة أيام نقل هذا الشخص إلى المستشفى النفسي الذي يعمل فيه الباحث(الذي يروي التجربة) على أثر محاولة انتحار لم يكتب لها النجاح لاسعافها المبكر من قبل العاملين في الموقف(السجن) الذي أودع فيه. وعند استجواب هذا الشخص من قبل الباحث أوضح أنه لم يجد عملاً يعادل جريمة القتل إلا قتل نفسه(انتحاره). وأنه كان قد قام بعملين يريد أن لا يقل

أحدهما عن الآخر عنفاً . . عملية عدوان أفضت إلى القتل (قتل زميله) وعملية عدوان أفضت إلى القتل (قتل زميله) ، عملية عدوان إلى الداخل(قتل نفسه) . . وبعد اسعاف محاولة الانتحار أصيب بكآبة مزمنة رافقها تدهور مستمر في صحته الجسميّة وعانى من نشوء المزيد من الأمراض الجسمية ذات المنشأ النفسي وكأن شدة العنف توزعت بشكل تدريجي على الجسم بعد الاخفاق في أدائها الانتحار .

الفصل السابع
العدوان والذهان

مقارنة بين العدوان الاكتئابي والذهاني

لاحظنا أن المصاب بالكآبة يعاني من حاجة وعوز إلى حب الآخرين له فيحاول - بصورة اعتمادية - استمالتهم والابقاء على رضاهم لكي لا ينسحب بساط هذا الحب من تحت قدميه ويحاول أن يعتبر نفسه مسؤولاً عن نزعة العدوان فيقوم بعقاب ذاته واسقاط عدوانيته على نفسه مما يزيد من حدة صراعه، أن لا يخسر هذا الحب المريض في الأساس وصراع نشوء العدوان في اتجاه إلى الداخل مما يحدث له ألماً مريراً يزيد من حدة مرضه الاكتئابي.

أما في حالة الذهان أو مانسميه بمجموعة الأمراض العقلية جوازاً، الذي يصاحبه الكثير من اختلالات الوجدان العام واخفاقات المشاعر، نجد أن الذهاني يعاني من صعوبة كبيرة في الابقاء على رضا الآخرين وحبهم ويجد المزيد من السطحية والتفاهة في إقامة علاقة حب مع المقابل.. ولذلك فسرعان ما ينسحب الذهاني إلى عالمه الداخلي معتبراً هذا العالم كفيلاً. بنزهة عمر طويلة وبديلاً عن علاقة زائفة بالآخرين، ولا يعتبر نفسه المسؤول عن هذا الاخفاق في إقامة علاقة إجتماعية سليمة بل الآخرين. فيظهر العدوانية تجاههم بشكل واضح وبأساليب مختلفة. ويؤدي هذا الانسحاب في الذهاني إلى نشوء حالة من التعاظم والتعالي والازدراء بالجو الاجتماعي المحيط. وتؤدي به عزلته إلى استجلاء مواقف التفوق الفكري الفردي وزيادة الانتاج. وربما لا يكون جديداً اذا قلنا أن الانسحار والميل إلى الانكفاء عن المحيط لدى هذا الذهاني - على صعوبته وقسوته - يهييء مجالاً جديداً للانتاج بعيداً عن صخب الحياة. وربما نظر كثير منا إلى بعض المصابين بهذا التعاظم ووفق ما تنسجه مخيلتهم من فكر وما تدبجه قرائحهم من عطاء نظرة حب وتقدير. إلا أن الامعان الذي يبديه الذهاني في مقت حب

الآخرين وتتفيهه لعنصر الحب الانساني ورجم المحيط بصفات الشر والكراهية يؤشر من جديد أن الذهاني يعيش - كمحصلة - حالة غير سوية وأنه بكرهه لهذا الحب محتاج لهذا الحب وأن حالة الاتهام التي يلصقها بالمحيط في أنه محيط عدواني شرير ما هو إلا حيلة دفاعية للخلاص من صعوبة يجدها في قرارته لإقامة علاقة موفقة. وعندما يبدي الذهاني هذه الزيادة من الشعور بالعظمة والكبرياء واللامبالاة بحب الآخرين واستظهار القوة والقدرة والجبروت في حياته، يشعر أنه ضعيف في الداخل وأنه في حاجة إلى حب الآخرين، هذا الحب الذي يعتقد بعدم وجوده بل باستبداله من قبل المحيط بمشاعر العداء والكراهية وسوء الظن. وهكذا ينسحب الذهاني إلى مخيلة داخلية تملؤها الأوهام والاعتقادات الخاطئة وأحلام اليقظة المريضة بحب الذات من جانب وبكره ذات الآخرين من جانب آخر.

تتبع حالة العدوان الذهاني

وعلي الرغم من ظهور المدارس الحديثة التي تؤكد النزعة البايولوجية والخلل المختبري في فسلجة الذهاني، إلا أننا نظل في حاجة إلى دراسة مرحلة النشأة الأولى في حياة الذهاني، خصوصاً إذا ما أقررنا بإمكان التداخل لاحقاً بين حالات العصاب والذهان واستشراء العصاب بالشدة والأزمان حتى يرسب حاله من حالات الذهان أو يخلق صورة قريبة منه في سلوك الفرد. والصراع الذي ينشأ لدى الذهاني في إبراز عدوانه على المحيط صراع مرير. فإن تقديم الحب من الآخرين له يهينه - أو هكذا يشعر - وعدم تقديمه إليه يجعله في حاجة ماسة إليه ويزيد بحثه عنه واتهام الآخرين بالعدوان وهكذا يتكرر هذا المسلسل المرعب بين الحاجة وافتقارها من جهة واستبدالها أو استبدال فقدها بالضد المرير من جهة أخرى. ولكي نكون في موقف منصف من الوضع الذي قد يوجد فيه الذهاني، علينا أن نقرر أنه له ما يبرر سلوكه في التدهور واستمرار الشعور العدواني إذا ما

فرض عليه العيش بين مجموعة يزيد سلوك أفرداها حالته تدهوراً وانحطاطاً. كيف يستطيع الفرد العادي أن يتصرف سوياً مع أناس يتلقى منهم نتائج انحطاط حضارتهم وهبوط مستواهم السلوكي. . إن الفرد السوي سوف يتخبط في سلوكه أمام هذا الوسط المريض، ناهيك عما يلاقيه الذهاني في مثل هذا الوسط(وهذا يوضح أثر البيئة في نشوء الذهان؟). وربما يكون مفيداً أن نتذكر خطورة هذه النقطة في نشوء الطفولة الأولى(الأم والأب). ونظراً للانحسار الشديد الذي يمر به الذهاني منكفئاً إلى داخله، تعاني تجربته الاجتماعية افتقاراً كبيراً إلى النضج فيظل الذهاني يحمل بين جنباته سلوكاً واسقاطاً غير ناضج وغير راشد لعدائه على المحيط، الأمر الذي يولد لديه خطأً كبيراً في إقامة معادلة بين تصرفات الآخرين واستحقاق تلك التصرفات من المجابهة العدوانية التي يبديها، فإزاء سلوك ساذج بسيط من شخص في موقف معين سرعان ما يهول الذهاني هذا السلوك ويعطيه حجماً من الخطورة يجعل الرد عليه بعنف أمراً واجباً. وعند توجيه شيء من اللوم والتثريب إليه لاتخاذه مثل هذا الموقف الاسقاطي، يشعر الذهاني بالحراجة في موقفه ويزيده ذلك أذىً فوق أذاه لا ينفع معه تبريره لقيام نزعة كراهية من المحيط تجاهه. وعلينا، والموقف هكذا، أن ندرك مدى حساسية الذهاني للوسط وأن نكون حذرين من توجيه النقد - بأبسط صيغة - لأن الذهاني يقيم سدوداً عالية متينة أمام النقد بكل أشكاله ويعتبره من قبيل الاذلال والإهانة. والذهاني، لكي يتجنب عدوان الآخرين أو قل شعوره بهذا العدوان، يحاول أن ينحسر إلى عالمه وأن يقيم - إن وفق في ذلك - علاقات سطحية مع الآخرين تسودها اللامبالاة والغرور والكبرياء والتوجس. وكثيراً ما جابه بعض الذهانيين شعورهم بعداء الآخرين لهم بأن هذا العداء ناتج من شعور المحيط بالحطة وعدم التكافؤ معه وربما حدا بهم الأمر إلى ملء هذه الدفاعات بالادعاء الهذائي، وتصوروا أنهم يمثلون قوة خارقة أو أنهم مختارون من قبل السماء كأشخاص متميزين وأنهم عرضة لمناجاة القوى العليا لهم مما يجعلهم

عرضة للاضطهاد والعداء من قبل الآخرين كصفوة مختارة. ومن الأمور التي يجدها المعالجون كثيراً في الذهاني هو اخفاقه في المجال الجنسي وكثيراً ما يبرر أمثال هؤلاء المخفقين جنسياً هذا العوق بأنه نتيجة لمشاعر العداء التي تكنها لهم أزواجهم وأنه معذورون في هذا الفشل لأنه من المستحيل عليهم أن يقيموا علاقة حب جنس بشخص كارهٍ لهم كما يزعمون.

الجذور الأولى للعدوان الذهاني

وما تجدر الاشارة إليه، قولنا، سابقاً، إن شيئاً من العدوان في بواكير نشأتنا، ضروري لبنائنا الذاتي وتقويم أركان شخصياتنا، الأمر الذي يؤدي فيه عدم استلام مثل هذا القدر من الممارسة العدوانية بشكل دقيق في عوائل أنشأت أشخاصاً ذهانيين لاحقاً، يؤدي إلى نشوء ظاهرة العدوان المبكر بالشكل الكافي لتأكيد الذات، ويقود هذا الميل إلى اسقاط العدوان علي المحيط، الذهاني إلى التعبير عنه بوسائله العنيفة التي ترتفع إلى مستوى القتل. ولهذا فسحب المسؤولية من هؤلاء المصابين وعدم تسليمهم مراكز يشكلون منها خطراً، مهمة يقوم بها التشخيص الأولى وتظافر جهد المجتمع في إبعادهم عن مثل هذه المسؤولية.

المجتمع العدواني والذهان

إننا الآن أمام قطة احصائية مهمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب الحضاري للمجتمع، لقد وجد أن نسبة الاكتئاب في المجتمعات المتحضرة وبضمنها الصناعية أعلى منها في المجتمعات المتأخرة حضارة. بينما تكون نسبة الذهان والذهان البارانوي(الاضطهادي) في المجتمعات المتأخرة أعلى منها في المجتمعات المتقدمة. وبما أن نسبة الشفاء والخلاص من نوبات الاكتئاب أعلى من نسبته في حالات الذهان، لذلك فإن فرصة خلاص الفرد من العدوان الموجه إلى الذات في المجتمعات المتحضرة أكبر من فرصة انحسار العدوان الذي يرتبط

وجوده بوجود حالات الذهان في الفرد في المجتمعات المتأخرة. وطبقاً لتدني المستوى الحضاري للمجتمع وشيوع المعتقد المتخلف فإن اسقاطات العدوان في فرد المجتمع المتخلف تأخذ وسائل عديدة في ظهورها كاتهام الفرد الذهاني غيره بمحاولات تسميمه أو عمل السحر ضده أو ماشابه ذلك من الممارسات المتدنية. وعندما يتخذ العدوان الذهاني صوره من صور الصراع الثقافي يعمل عمله الهدام في المجتمع وأذكر هنا أنني قرأت يوماً لباحث نفسي صهيوني بحثاً نشرته إحدى الصحف الغربية يناقش فيه مسألة الكرم العربي وانفراد العربي بهذه الخصلة التي تكاد تميزه عن غيره فيدعي أن العربي عندما يحاول أن يقري ضيفه بالمزيد من أنواع الأكل ولذائذ الشراب، إنما ليفهم هذا الضيف أن مجيئه وضيافته تكلف غالياً من الجهد والمال والاهتمام وبذلك يدفعه إلى الامتناع عن معاودة الزيارة. فهو إنما يقدم لضيفه الحب والعدوان معاً. هنا نلاحظ أن هذا الباحث الصهيوني لا يعدو كونه إحدى ضحايا الفصام البارانوي(الاضطهادي) الذي يحجم عن قبول هدية الغير ويعتبرها إهانة وإذلالاً تحط من كرامته ولهذا فقد شرح صفة الكرم من صديقه أو أصدقائه العرب الذين لاحظوا فيهم هذه الحفاوة (لأنه يذكر في مقاله أن ملاحظاته مبنية من تجارب مع عرب مقيمين في أوروبا) بطريقة إسقاط العدوان والتشكيك به بحيلة دفاعية ملتوية. وفي المجتمع الذي يشجع ظهور الحركات السادية كالمجتمع الرأسمالي يميل الساديون فيه إلى ابراز السلوك الفصامي الاضطهادي مما يزيد من حدة السادية الجنسية التي قد لا تؤدي إلى التلذذ بإيذاء الشريك حسب بل إلى قتله بعد انتفاء اللذة.

الفصل الثامن
العدوان والأدب والفن

مقدمة

مثلما كان للانسان عقله، كانت له كذلك عواطفه، ومثلما اتجه بقدرة الأول ومعطياته إلى سبل الحقيقة العلمية منذ قديم عصوره وسلالاته، كذلك اتجه بقدرة الثانية ومعطياتها إلى استكشاف الطعم المعنوي والاشراق الروحي في جوانب حياته، وهكذا صار على العقل أن يحاكم ظواهر الطبيعة محاكمة حسابية مقننة فلا تظهر الحقيقة إلا باقترانها بأخرى ولا تكذب النتائج صحة الأسباب المؤدية إلى ظهورها، كذلك صار على العواطف أن تبرز على ساحة حياته الخاصة والعامة، تؤشر فيه تذوقه للجمال والحياة والمباهج، وتدل فيه على استجاباته المختلفة لساعات الحزن ومواقف الألم، ومثلما كانت للحقيقة العلمية أهميتها في الحياة، كذلك كانت لاستجابات النفس البشرية السامية والمتشوفة لتطلعات الخيال أهميتها أيضاً.

وأمام هذه الحاجة الكبيرة التي أفرزها وجود الانفعال والتوق الروحي إلى استبصار الوجود بعيون الحزن والفرح والألم والمواكبة، كان لا بد من ظهور الوسائل، فكان الأدب وكان الفن. هذان مظهران من مظاهر التعبير عن مكنون النفس ازاء ما تحسه تجاه المحيط حولها، والذي يخصنّا في هذا الفصل هو دراسة هذين المظهرين من مظاهر التعبير في الجنس البشري ومحاولة قراءة علاقتهما بالنزعة العدوانية واستكشاف أثر العدوان الجبلي والمكتسب على طبيعة الأدب والفن شكلاً ومضموناً واستبار ما يمكن أن يثيره الفن والأدب المكتوب بصورة عدوانية من تحريض موجب أو سالب في البناء الانساني عموماً.

ما يطرأ علي الفكرة الأدبية والفنية قبل ظهورها

إن المتتبع من الكتاب والشعراء والروائيين لمسيرة كتابة نص، يستطيع أن يستوضح قبل غيره إن هذه العملية تمثل مسلسلاً فسلجياً ونفسياً معقداً. فعملية كتابة من هذا النوع تبدأ بفكرة أو مجموعة من الجزيئات الصغيرة المكونة لفكرة. وعلى الرغم من أنَّ عملية الأيض الحقيقية لنشوء الفكرة في المخ لم تكتشف بعد، إلا أن الأبحاث المستمرة في هذا الجانب استطاعت أن تحيط كثيراً من جوانب هذه العملية بشيء من الايضاح والسبر.

هناك عوامل عدة تسهم في تحديد معالم الفكرة الأولية لنصّ في ذهن كاتب أو شاعر: (١) عامل الانتقاء(٢) عامل الابتكار (٣) عامل التأثر (٤) وعامل المزاوجة. ففي البواكير الأولى للفكرة في ذهن الكاتب، تزدحم قدرته على انتقاء صورة معينة للفكرة وقد يكون هذا الانتقاء اصطفاءً من وسط وموروث فكري وثقافي، وقد يكون من مجموع أفكاره الخاصة وتصوراته. كذلك يشترك في العملية قدر معين من إبداع الكاتب في ابتكار فكرة لك يصل إليها أحد سابق عليها. وهنا يشترك عامل التجريد الكامل لمرفقات المخيلة الأدبية، وعامل التأثر بالوسط في الفكرة الأولى لدى الكاتب بما تم اختزانه من تجارب المحيط والبيئة الثقافية التي يعيشها الكاتب. ثم تدخل قدرة الأديب على أحداث عنصر المزاوجة بين فكرته وفكرة من سبقه أو بين ما يطرحه وبين ما يستطيع أن يؤثر فيه في محيطه المعاش. والفكرة. في مخيلة كاتبها قد تأخذ قالب شعر أو قصته أو مسرحية أو لوحة أو رواية، تؤثر في ذلك رغبة الكاتب وتوجهه وقدرته. والعوامل الخارجية التي تؤثر في كتابة النص بعد حصول التصالب الأولي لفكرته عديدة ويمكن أن نشير إلى أهمها: (١) العرف الاجتماعي السائد (٢) البيئة الثقافية (٣) ثقافة الكاتب (٤) شخصية الكاتب(٥) الحرية (٦) السلوك الفردي للكاتب. وبعد ظهور النص الأدبي بشكل من الأشكال، يعمل عمله في الوسط الذي تقرر أن يكتب له. وتحدد عوامل عديدة قدرة النص على التأثير في الوسط وأهم تلك

العوامل : (١) شكل النص (٢) توفر الحاجة الاجتماعية لما يدعو إليه النص (٣) احساس الوسط بروح الأمانة في النص (٤) قرب النص نفسياً من تفكير الوسط .

علم نفس الكاتب

من هذا يتبين لنا أن ظهور نص من النصوص الأدبية يمر بمراحل عديدة ويتأثر بعوامل عديدة. ولما كان الأدب في كل نصوصه هو إنتاج أديب، فعلينا أن نتبين أثر المنتج على الناتج. وهذا يتطلب بعض التوضيح لمعالم شخصية (أديب)، واستكناه جوانبها.

(١) وجد أنه لكي يكتب أديب نصاً ناجحاً لا بد من أن يجد ميلاً نفسياً عن المألوف السوي منحرفاً عنه، وغالباً ما يمتاز هؤلاء - وعلى الخصوص في فترة كتابة النص - بشيء من الاكتئاب المقرون بالعزلة والانفراد.

(٢) يمر الأديب في كتابة النص بظاهرة الاستبطان، فلكي يعطي تصويراً لموقف. عليه أن يستبطن مفردات هذا الموقف.

(٣) يمر الأديب خلال كتابة نصه الناجح بإحساس معين من العدوانية التي كثيراً ما يحاول أن يوظفها بشكلها الموجب، وإذا كانت مرحلة الاكتئاب هي الغالبة على الكاتب أثناء كتابة النص فإنه يمارس هذا العدوان الأدبي (النص) بطريقة عقاب الذات واشعاره بالذنب تجاه حدث معين في وسط. أما إذا كانت الميول التي تعتور الأديب في مدة الكتابة ميولاً فصامية - وهذا شيء مسجل احصائياً لبعض الكتاب - فيقوم بعملية اسقاط عدواني على الوسط والظروف والمجتمع ويعتبر أن الضيق والعتمة التي يمر بها النص الأدبي مسؤولية الآخرين من اضطهاد للفكر وغياب للحرية ومصادرة للكلمة.

(٤) تمثل شخصية الأديب في الغالب شخصية قلقة غير مستقرة، خائفة في أحسن ظروف استقرارها، تميل إلى استخدام المزيد من آليات الدفاع اللاشعورية في التغطية على موقف أو للخلاص من موقف.

(٥) يتبلور الانسحاب الفصامي من المواقف كثيراً في نصوص الأدباء الذي يكتبون أدبهم في مدد معاناتهم لهذا الذهان بصورة من الصور. فالنص المكتوب بوجدان فصامي نص متطير يفتقر إلى روح الألفة مع الوسط ويلهث وراء العواطف التي لم تنضج فيه بعد ولم يفسح المجال لاستلامها من الطرف الآخر. وهنا يعوض الفصامي في نصه عن هذه الفجوة الواضحة في التواصل مع المحيط بإشاعة المزيد من عناصر المكابرة والغطرسة في روح النص واستصغار الوسط.

أمثلة للايضاح

* فليعلم الجمع ممن ضم مجلسكم ... بأنني خير من تسعى به قدم
* الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقدم
* هذا جناه أبي عليّ ... وما جنيت على أحد
* غير مجد في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنّم شاد
* طلبت المستقر بكل أرض ... فلم أر لي بأرض مُستقرا
* لم يكن لي غد فأفرغت كأسي ... ثم حطمتها على شفتيا

عندما كان كاتب البيتين الأولين يمر بنزوع فصامي، لجأ إلى المعاندة والمكابرة والخيلاء: وتصور أن أحسن دفاع هو ما يقدمه النص الذي كتبه يقول فيه: أيها الجمع إنني خير من سارت به قدم. إملاءٌ للنص بدفاع ذهاني داخلي وعدوان اسقاطي على الوسط لا مبرر له إلا تلك الحالة البارانوية. فهو معروف من قبل الخيل والليل والسيف والرمح والقلم والبيداء فقط.

كذلك فإسقاط العدوان على الأدب لأنه المسؤول عن مجيء الشاعر إلى الدنيا وتبرئة ساحة المتكلم من مسؤولية الجناية على أحد ميل عدواني فصامي هو الآخر: يختلف فيه الشاعر شخصية وحالة مرضية عندما يعمم أنه لا جدوى فيما يعتقد في مفارقات الحزن والفرح. لأنه كان يمر في حالة اكتئاب ساعة كتاب النص. والعقاب هنا بصيغة الاعتداء على الذات لا على الوسط(الأب) كما في

الحالة الأولى.

أما الذي لم تسعه الأرض بما رحبت ولم يجد فيها مستقراً فلم يترك في نصه الأدبي ثغرة بسيطة إلا وأشار فيها إلى القلق الذي كان يمر به. ويشير الأخير إلى العدوان المستفيض الناجم عن الاحباط. لم يكن لي غدٌ (موقف احباط) فأدى ذلك إلى افراغ كأسه.. ثم تحطيمها.. أين؟ على شفتيه (على الذات).. عدوانية نصية ظاهرة ولا شك. ولو حاولنا الاتيان بالشبيه لذلك من نصوص الأدب لما جئنا الا بالكثير الكثير ولما خرجنا الا بنتيجة واحدة وهي أن الأدب مفرزة نفسية معبرة عن حالة من حالات الكاتب يعتورها العدوان الموجب أو السالب والمتجه إلى الذات أو إلى المحيط تبعاً لظروف كتابة النص وعناصر تكوين الفكرة ونوع الحالة النفسية التي يجتازها الكاتب وشدتها.

النفس والمسرح

ومثلما يلعب الأدب المقروء شعراً ورواية وقصة في هذا الدور في إبراز عدوانية الكاتب، كذلك يلعب الأدب المسرحي في موضوعه وشخوصه دوراً كبيراً في هذا الجانب. يبدأ العمل المسرحي بنص يكتبه كاتب ويمر بأدوار حركية يؤديها شخص أو أشخاص على مسرح أمام جمهور وينتهي بأثر يتركه ذلك العمل في الجمهور المشاهد. وفي خصوص النص لا يختلف علم نفس الكاتب في النص المسرحي عنه في الذي أشرنا إليه في العمل الأدبي المقروء. إن الفنان الممثل يمر بحالة غير سوية من حالات السلوك. فالقدرة على تمثيل دور من أدوار العمل المسرحي تكشف عن تقمص من قبل الممثل لشخصية الدور المطلوب بكل ما يمكن من الايضاح- وإبراز المعالم. إن أي ابتعاد للممثل عن جوهر التقمص كفيل بأن يبعده عن دوره المؤثر في جمهوره والقدرة على التقمص تعني نضج آلية من أهم آليات الشخصية الفنانة الدفاعية. وهذا النضج لا يتم إلا بتوافر عملية كف ناجحة لصفات وخصائص الشخصية التي لا يحتاجها الفنان أثناء أدائه لدور

قد لا تتفق تركيبته التي هو عليهامعه. وتقوم عملية التقمص بتأدية مهمة كبيرة في افراغ العدوان المستكن في نفس الممثل عبر حركات وتصرفات الشخصية التي يمثلها مثلما تقوم بافراغ الحب الذي يكنه عبر تلك الحركات في أداء دور يلعب عطاء الحب دوراً فيه. ولقد سبق أن أشرنا إلي أن كل نزعة عدوان تشاب من قريب أو بعيد بنزعة حب والحب الذي غلبّه على الآخرين هو حب الذات أولاً ويتمثل في إسقاط الحب والعدوان على المقابل في آن واحد. إن ما ذهبنا إليه يلاحظ باستمرار عندما يختار مخرج العمل المسرحي لدور عدواني طاغ أحد الممثلين ليس سواه. فيقال إن فلاناً يصلح لهذا الدور ولا يصلح لغيره كما لا يصلح غيره له. وذلك أنه عندما يجد الممثل ذو الشخصية الأصلية التي تمتاز بالطبع الهياجي والعدوانية دوراً مناسباً لابراز جوانبه تأتي عملية التقمص مناسبة ومتسقة مع طبيعته فالممثل الهادىء الطباع، الخجول، الواهن الخطى لا يصلح لدور فارس مقاتل أو حاكم متعسف ظالم جائر وهكذا. والنص المكتوب يشرح طبيعة كاتبه أصلاً، فلا يصلح كاتب رومانسي، دافئ لتصوير مقاطع الرعب وابراز معالم جريمة مهما اجتهد في نص يقدمه للمسرح. كذلك فإن الجمهور هو الآخر يعتبر المتلقي الأول لتأثير النص المسرحي والعمل المسرحي. وتعمل الحركات المسرحية المتوترة والمؤدية إلى أعمال العنف والأذى على المسرح دوراً علاجياً لنزعات العدوان في نفوس كثير من المشاهدين. وكثيراً ما قدم المسرح النفسي جلسات علاج بافراغ شحن العدوان الموجهة لذات المكتئبين إلى خارج ذاتهم فيظهر الممثل في دور من أدواره وكأنه ينوب عن مشاهد كئيب يقوم بإفراغ عدوانه الضامر المستقر في دواخله على زملائه في العمل المسرحي. فيجد المشاهد مجالاً لتقمص دور الممثل من جديد ويرتاح لعملية مخطط لها وهو لا يدري أن ذلك يسهم في التقليل من عدوانيته على ذاته وتهوين احساسه بالذنب.

التاريخ النفسي والمسرح

وينقل الممثل في دوره الذي يتقمصه عدوان التاريخ وأحداثه ونزاع السلالات والأعراق وتقاطع المحاور الفكرية. كما ينقل استعداءات الانسان على محيطه ومثالب الشر فيه تجاه الوسط في نمط اصلاحي لا يتم إلا بالتقمص في الممثل وبالتالي في المشاهد. وكثيراً ما لعب المسرح العالمي أدوراً استطاعت أن تثبت في أذهان الناس مواصفات شخصية أصبحت تمثل شعباً بكامله. فشخصية شايلوك البارانوية الاستعدائية التي أعطاها شكسبير قدرة الاضطهاد والعدوان على الغير، انتشرت بحكم المسرح وربما أصبحت مهيمنة على تمثيل العرق اليهودي حتى شاع أن قوماً بأجمعهم يمكن أن تنسحب عليهم عدوانية شايلوك التاريخية.

لقد أدخل المسرح كإحدى وسائل العلاج النفسي، ويقوم الممثل فيه بأدوار تماثل حالات المرضى الذين يخضعون للعلاج وتقمص أمانيهم وإرهاصاتهم الداخلية ويجد حلولاً ومخارج في ختام المعالجة المسرحية لمثل هذه التطلعات المكبوتة. وقد أدى هذا الجانب العلاجي دوراً كبيراً في شفاء عدد كبير من المرض في عدد كبير من المصحات النفسية ودور العلاج.

ممارسات العدوان في الفنون الأخرى

ومثلما ناقشنا شخصية الأديب وميولها العدوانية وشخصية الممثل وقدرة التقمص فيه، أجدنا نستطيع تأشير حالة الرسام والموسيقى والنحات. إن رسومات العنف وتصوير معالم الجريمة واستدراج مواقف الغضب لا يمكن لها أن تتحقق بشيء من الابداع إلا بريشة رسام يحمل نزعة العدوان وبشكله الاسقاطي. إن المواقف المحبطة والنشأة غير السوية لمشاهير الرسامين في التاريخ تشير إلى فضلها - أو قل أثرها - في خلق شخصية رسام معتدية يستطيع أن يسقط العدوان المختزن والحب الذي لم يتحقق، على مفردات رسوماته وتخطيطاته. وظهور المدارس المجددة في الرسم كالتجريدية والسريالية نوع من

أنواع النزوع العدواني، وظهور مدرسة الكاريكاتور نوع من الرغبة الاعتدائية لدى الرسام في تشويه معالم ما يريد أن يعطيه من مواقف مكروهة منبوذة. وربما يكون ذكرنا لشخصية ليوناردو دافنشي ونشأته الطفلية(المخطوءة) مفيداً في ايضاح أثر هذه النشأة في ظهور الابداع والعدوانية معاً في لوحات هذا الفنان الكبير. وهناك الكثير من لوحات بيكاسو التي تكشف شخصية هذا الفنان المبدع، فلقد كان شخصاً مصاباً بالوسواس القهري الذي تجلى في سلوكه المتمثل بزيجاته العديدة المشتتة المتنافية وروح الكنيسة والظاهر الأثر في رسومه التجريدية العديدة. إن الكثير منا قد استمع إلى سمفونيات المبدعين كبتهوفن وموزارت وجاياكوفسكي ولكن ربما لم يكن من هذا الكثير إلا القليل الذي استطاع أن يقيم علاقة بين شخصية الموسيقار وانتاجه. إن المستمع إلى سمفونيات يتهوفن يلمح الشحنة الشاحبة واللون الانسحابي الممزوج بالاجترار العدواني. إن صمم بيتهوفن - كأحد مظاهر الحرمان الحسي - أنشأ فيه نوعاً من الاسقاط الفصامي على الواقع تجلى واضحاً في شحن موسيقاه بتلك الشحنة الاستعدائية الباحثة عن الحب في الآخرين، بل العدوان على فقدان هذا الحب. وهذه ميزة اسقاطية من مميزات الذهاني حين يقوم بتبرئة نفسه والقاء المسؤولية على الوسط. وفي المجتمعات المتدنية حضارياً، حيث يشيع الفصام، تنتشر آلات الموسيقى الصاخبة كالطبلة والدف بشكل يترك الوسط فوضى ونشازاً صوتياً وهو نوع من الاحتجاج اللاشعوري في الفرد وطريقة للرد بالزجر الموسيقي. إن ذهان العظمة والخيلاء الذي ميز المجتمع الأمريكي أنشأ الجاز كآلة موسيقية صاخبة يعترض فيها الفرد في أمريكا علي فقدان الحنان الفردي في الوسط.

إن محاولتنا إقامة علاقة بين روح العدوان السالب وحالات بعض التوجهات والابتكارات الفنية لا تعني أننا يجب أن نملك مرضى نفسيين أو عدوانيين سلبيين لكي يكون لنا أدباء وفنانون كبار مبدعون. بل على العكس من ذلك؛ إن المحاولة التي أظهرت أن وراء عمل مشاهير كباركبيكاسو وليوناردوفنشي وموزارت

وبيتهوفن ابداعاً، لا يعني أننا يجب أن نملك مرضى لكي نملك مبدعين . . إن الفن العربي والشعر العربي إذا ما وظف بشكله الموجب أدى هدفاً اجتماعياً حضارياً لا غنى عنه أبداً . وظهور طبقة من الأدباء غير المرضى بنوع مما ذكرنا لدليل على أنه يمكن أن يكون هناك توظيف لروح الابداع بعدوانية تخدم الهدف الاجتماعي . إن شيوع أدب المعركة الذي رافق حرب العراق الدفاعية ضد أعدائه دليل الصحة ، لا المرض، والابداع فيه حمل بذور العدوان الموجب الذي خدم اندفاع المواطن المقاتل بعدوانية محتواها رسوخ روح المواطنة . ومن هنا نخلص أننا في حاجة إلى حالة تواكب بين النزوع العدواني الموجب الذي يتطلبه موقف ما - كالحرب مثلاً - وجسامة الموقف وعظمته . وبذلك ولما كان لدينا مجال لاسقاط روح الابداع على الانتاج فيمكن للفنان والأديب أن ينحي جانباً اسقاطه ويوظف قدراته بعدوان موجب يشيع روح المواكبة لمواقف المجتمع .

القسم الثاني

العدوان
في الدراسات البحوث التجريبية

الفصل الأول
معلومات تشريحية وفسلجية أساسية

مقدمة

وردت وترد في هذا الكتاب أسماء لمراكز وأجزاء من الجهاز العصبي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بموضوع دراستنا عن العدوان البشري، ولأن هذا الكتاب عرضة مأمولة للقراءة من قبل المتخصص، الطبيب والفسلجي والشخص الذي من خارج الاختصاص، فإننا نجد حاجة ملحة وضرورة من ضرورات البحث العلمي أن نقدم نبذة تشريحية وفسلجية عن بعض أجزاء الجملة العصبية التي ربما تشغل ذهن القاريء الجاهل بالتشريح والفسلجة المتعلقة بالجهاز العصبي المركزي والذاتي والمحيطي للانسان. وإذا كان الاختصاص مثلبةً في هذا الشرح فإنه ذو عذر لا ينوي تقديم إلا المهم جداً عن تلك المراكز ومن أراد الاستزادة في المعرفة عن هذه المراكز الدماغية وطبيعة عمله فله أن يراجع الكتب التي تخصصت بمثل هذا الموضوع والتي سيجد إشارة إلى قسمٍ منها ضمن المراجع التي اعتمدها البحث آخر الكتاب.

التكوين الشبكي Reticular formation

توجد على امتداد ساق الدماغ، نوى عصبية صغيرة متفرقة ومتشابكة مع بعضها تحيط بالفتاة المركزية للساق، وتمتد من منطقة أسفل السرير البصري حتى النخاع الشوكي وقد تمتد إلى داخله. وتسمى هذه المجموعة التكوين الشبكي Reticular formation. وينتشر هذا التكوين فيمتد من الأعلى إلى جوانب السرير البصري وقد يمتد إلى داخله وكذلك إلى منطقة تحت السريري.

موجات الدماغ الكهربائية

من الممكن تصنيف الموجات الدماغية التي تشاهد في الانسان الطبيعي إلى الأنواع الآتية :-

١- موجات الفا ALPHA Waves : وتتراوح ساعة ترددها بين ٨-١٣ موجة في الثانية ويبلغ معدل شدتها حولي ٥٠ مايكرويف . وتظهر في معظم الناس الطبيعيين، عندما يكونون يقظين ولا تشغل بالهم الأفكار وفي راحة تامة . ويسهل تسجيلها من المنطقة القفوية للمخ وقد تظهر في المنطقة الجدارية .

٢- موجات بيتا : Beta Waves وهي أسرع من الأولى حيث تزيد سرعة ترددها عن ١٤ موجة في الثانية ويبلغ ارتفاعها أقل من ٥٠ مايكرويف . وتظهر في المنطقة الجدارية وربما في منطقة الجبهة وتظهر هذه الموجات عند تنبيه المخ وانشغاله بفعالية حسية أو حركية أو في حالات الارهاق .

٣- موجات ثيتا Theta Waves : لها سرعة تردد تتراوح بين ٤ - ٧ موجات في الثانية وارتفاعها أعلى من ٥٠ مايكرويف . وتظهر في المنطقة الجدارية للأطفال أو عند الكبار في أول النعاس . كما تظهر في حالة الملل والفشل والخيبة .

٤- موجات دلتا، Delta Waves : ولها سرعة أقل من ٣,٥ موجة في الثانية وترتفع شدتها إلى ٢٠٠ مايكرويف أو أكثر . وتظهر في حديثي الولادة . وقد تظهر في الكبار عند النوم . وقد تظهر أحياناً مع بعض آفات المخ كالأورام .

تحت السريري The Hypothalmus

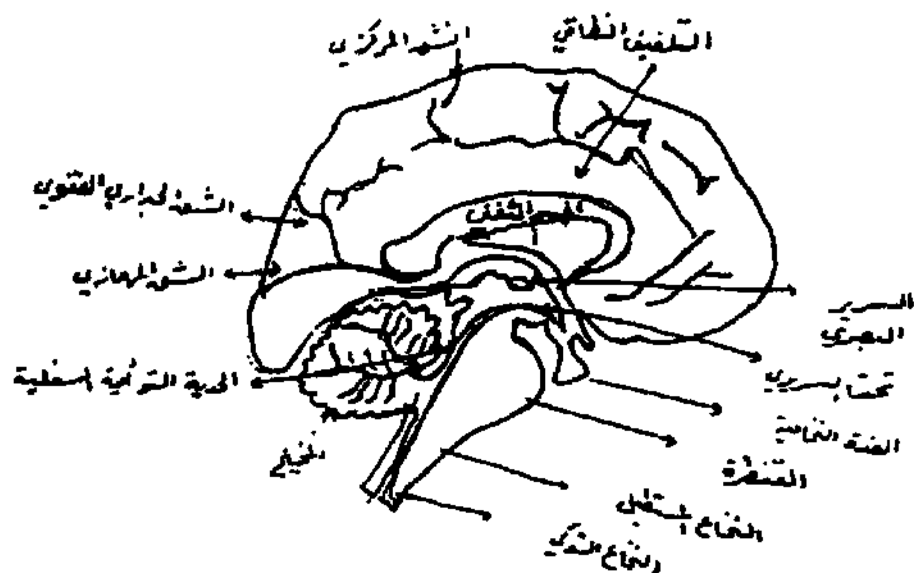
الهايبو ثالموس، أو تحت السريري هو الجزء القاعدي للدماغ المتوسط -Dien cephalon ويكون قاع البطين الثالث وجزءاً من جداره الجانبي. ويشمل جزؤه البطني المنطقة قبل البصرية والتصالب البصري Optic Chiasma والحدبة الرمادية Tuber Cinerum والبروز الوسطي Median eminence والنخامية Pituitry والجسم الحلمي Mammillary. ويحوي الهايبوثالموس أو تحت المهاد (كما يسمى أيضاً) أو تحت السريري(في تسمية أخرى) عدة مجموعات من النوى العصبية منها: (١) النواة قبل البصرية(٢) النواة فوق البصرية (٣) النواة الحدبية (٤) نواة حول البطين (٥) نوى تحت السرير الخلفية (٦) النوى الأمامية (٧) نواة الجسم الحلمي. ويتصل الهايبوثالموس بمناطق واسعة من الجهاز العصبي المركزي مباشرة أو غير مباشرة. ويعتبر في بعض الأبحاث نواة عصبية تربط بين الجهاز الحافي Limbic System والتكوين الشبكي لساق الدماغ. وترده ألياف عديدة من: (١) الجهاز الحافي للدماغ ومن مختلف أقسامه (٢) قشرة المخ وخصوصاً من المنطقة الأمامية (٣) السرير البصري والجسم المخطط (٤) الجهاز الشبكي. (٥) الطرق الحسية التي تصل إلى الدماغ الأوسط (٦) الدماغ الشمي.

كما أنه يرسل أليافاً عصبية إلى: (١) الجهاز الحافي (٢) التكوين الشبكي (٣) السرير البصري (٤) النخاع الشوكي (٥) الساق النخامية والفص الخلفي للنخامية . ويعتبر الهايبو ثالموس مركزاً لبعض الاحساسات كالمتقبلات الحرارية والمتقبلات الحساسة لبعض الهرمونات. كما أنه يعتبر مركزاً للكثير من المنعكسات كالمتقبلات المحيطة والمنعكسات التي تبدأ من متقبلات تحت السريري نفسه والمنعكسات العصبية الهرمونية. وهكذا فهو يسيطر على وظائف الجهاز الذاتي ويسيطر على تنظيم حرارة الجسم وينظم دافع الجوع والشبع وينظم استلام والغاء تكوين المنعكسات الشرطية ودافع العطش. ويسيطر كذلك على الفص

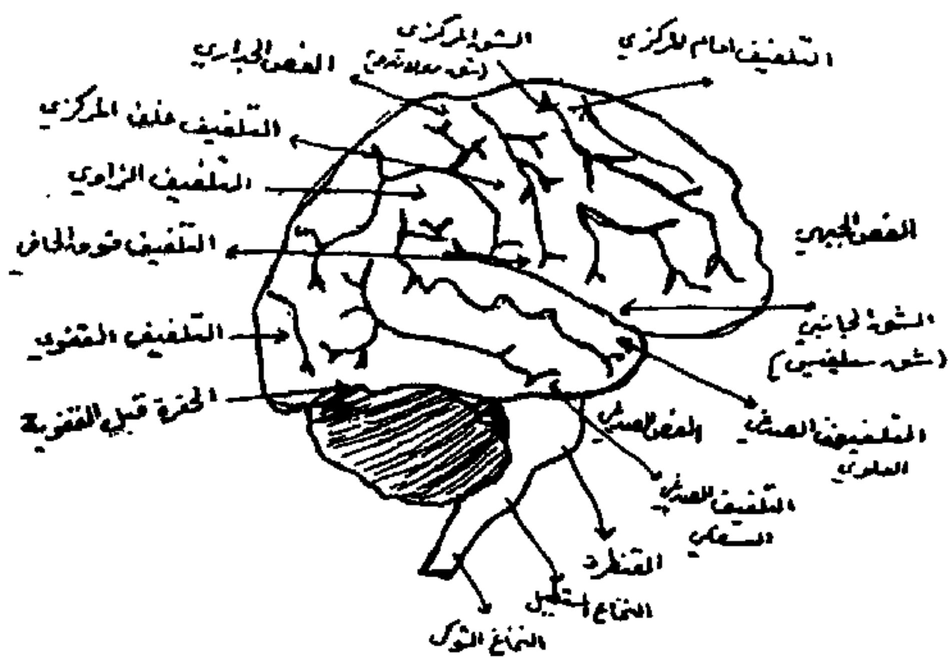
الخلفي للغدة النخامية والفص الأمامي منها. إن الشعور الذاتي كالقلق والحزن والكآبة والفرنح والسرور والابتهاج احساسات ترتبط بفعالية قشرة المخ الجديدة Neocotex. أما التعابير الجسمية فتتم عن طريق تحت السرير أو الهايبوثللوس والجهاز العصبي الذاتي بتأثير فعاليات بعض مناطق القشرة المخية والجهاز الحافي والسرير البصري وساق الدماغ. وللهايبوثالموس تأثير على ظاهرتي الوعي والنوم. وأن مراكز العقاب والثواب خاصة توجد في الناحية الجانبية (الوحشية) للهايبوثالموس بالقرب من مركز التغذية وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع مراكز الثواب Reward System في الجهاز الحافي.

الجهاز الحافي The Limbic System

ليس من السهل تحديد مناطق الجهاز الحافي، إذ يعتبر بعض العلماء العديد من نوى المخ وحتى الهايبوثالموس من ضمنها. أما البعض الآخر فيحدد عددها ومناطقها. ويظهر أن الجهاز الحافي يتكون من قسمين: الأول يتجمع حول الهايبو ثالموس كعقدة وحولها توجد المنطقة قبل البصرية والحاجز والمنطقة محاذية الشمية ونوى السرير البصري الأمامية وجزء من النوى القاعدية وقرن آمون Hippocampus والنواة اللوزية. أما القسم الثاني فيتكون من الفص الحافي ويحوي القشرة الحافية Limbic Cortex. وتبدأ القشرة الحافية من المنطقة الحجازية على الجهة البطنية للفص الجبهي للمخ وتمتد إلى الأعلى وأمام الجسم الثفني ومن ثم تدور خلف الجسم الثفني وتنزل إلى الوجه البطني(الأنسي) للفص الصدغي إلى تلفيف حصان البحر Hippocampal gyrus والمنطقة الكمثرية Piriform area ومنطقة الخطاف Uncus وللجهاز الحافي وظائف عديدة منها الوظائف الذاتية حيث يقوم بالسيطرة على الكثير منها، فيسيطر على تغيرات ضغط الدم وسرعة التنفس وحركات الجهاز الهضمي وتغيير سعة حدقة العين. كما أن له وظائف انباتية أو خضرية كوظائف التغذية والجوع والشبع والعطش.



الانسي (الداخلي) للدماغ يبين اهم اقسامه



رسم تخطيطي للوجه الخارجي الوحشي للدماغ يبين اهم اقسامه

ويقوم الجهاز الحافي بدور كبير في السلوك الانفعالي للشخص كالخوف والغضب والفرح والحزن، فيصاحب الخوف استجابة تنبيه الأعصاب الذاتية الودية وبعض الغدد الصم كالغدة الكظرية مع زيادة في التوتر العضلي. وتنتج مثل هذه الاستجابات عند تنبيه بعض مراكز الجهاز الحافي أو الهايبوثالموس أو اللوزة.

ويقوم الجهاز الحافي بدور في الفعاليات الجنسية فإن تنبيه نواه الأمامية الأنسية والمناطق المجاورة لها يؤدي إلى انتصاب القضيب والانفعالات الجنسية المصاحبة.

اللوزة Amygdala والنواة اللوزية Amygdaloid

وتعتبر في الكثير من الابحاث جزءاً من الجهاز الحافي . و تستلم النواة اللوزية. ألياقاً واردة من قشرة المخ في منطقة الجبهة الحجاجية ومن التلفيف النطاقي Cingulate gyrus وتلفيف حصان البحر Hippocampal gryus؛ كما أنها ترسل ألياقاً إلى هذه المناطق المخية وإلى قرن آمون Hip-pocambus وإلى الهايبوثالموس؛ وتنبيه اللوزة يؤدي إلى : -

أ- استجابات شبيهة باستجابات الهايبوثالموس الجهاز الذاتي وافراز مختلف هرمونات الغدة الخامية

ب- حركات لا إرادية لأجزاء الجسم المختلفة تشابه تلك الحركات التي ترافق الشم وتناول الطعام والمضغ والبلع.

جـ- إنتاج الغضب والتوتر مع كل الاستجابات المرافقة للعقاب.

د - تهييج الفعاليات الجنسية كالانتصاب والحركات الجماعية والدفق واطلاق البويضة.

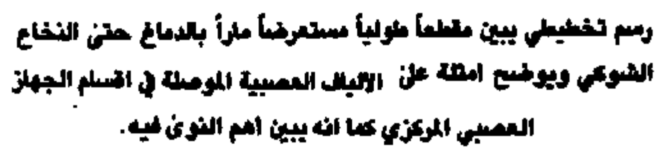
رسم تخطيطي يبين اهم اقسام الجهاز الحافي و ارتباطاته

قرن امون Hippo Campus

إن الوظيفة الرئيسية له هي جمع الإشارات الحسية الواردة إلي الجهاز الحافي ونقلها إلي مختلف مناطق الهايبوثالموس. كما أنه يربط بين مختلف الاحساسات الواردة إلي هذا الجهاز من المصادر الحسية العديدة فيوحدها وينقلها إلى مراكز الثواب.

اللحاء الدماغي

قشرة المخ هي الغلاف السنجابي الذي يغطي المخ وتقارب مساحتها ٢٣٠٠سم٢ ويتراوح سمكها بين ١,٥ - ٤ سم وتغطي القشرة سطح المخ الخارجي. وتغوص لتغطي سطح أخاديده وفجواته وشقوقه. وتحتوي على ٨٠ - ٩٠٪ من مجموع عصبات الجهاز العصبي المركزي التي يقارب عدها الـ ٣٠٠٠٠ مليون حجيرة.وتوجد بصورة عامة على سطح قشرة المخ ثلاثة أنواع من المناطق الوظيفية : (١) المناطق الحسية (٢) المناطق الحركية (٣) المناطق الرابطة. ويقوم لحاء المخ باستلام وتفسير الاحساسات كافة. وتتمثل مختلف مناطق الجسم تمثيلاً يتناسب مع أهمية القسم الحسية ومدى تخصصه في استلام التنبيهات والمعلومات من المحيط ففي الانسان مثلاً تتمثل اليد في منطقة نثرية أوسع كثيراً من المنطقة التي يتمثل الجذع فيها. أن المناطق الحسيةالأولية للقشرة تقوم بكل أنواع التمييز والإدراك الحسي وقد تتعاون في القيام ببعض هذه الوظائف مع بعض المناطق الرابطة في قشرة المخ. وتقوم القشرة بربط الاحساسات الواردة للمخ مع مثيلاتها من الاحساسات السابقة والمحفوظة فيه وتتعرف على التشابه والاختلاف بينها كما أن القشرة تدرك العلاقات بين وضع مختلف أقسام الجسم وحركاتها وأي تغيير يطرأ على أي منها. كما تقوم بتعيين موضع النقاط المنبهة من الجسم والحس بها والتفريق بين تنبيه نقطة أو نقطتين في آن واحد.، وتدرك القشرة الدماغية شكل الأجسام التي يُحسّها الشخص. وتيسر القشرة إدراك.



رسم تخطيطي يبين مقطعاً طولياً مستعرضاً ماراً بالدماغ حتى النخاع الشوكي ويوضح امثلة على الالياف العصبية الموصلة في اقسام الجهاز العصبي المركزي كما انه يبين اهم النوى فيه.

الاحساسات الممتعة وقمع الاحساسات الكريهة. وتقوم باستلام وتمييز الاحساس البصري والسمعي والشمعي والذوقي. وتقوم القشرة أو اللحاء بابطال أو كف كل الاحساسات أو الاثارات الحاصلة في المراكز التي تحتها كالهايبو ثالموس واللوزة وأجزاء الجهاز الحافي.

وأهم المناطق القشرية التي تقوم بوظيفة ربط وظائف المخ المتعددة هي :-

أ- المنطقة الرابطة الجدارية وتوجد في المنطقة الجدارية ويعطى لها رقم تشريحي (٧ , ٥). إن وظيفة هذه المنطقة هي ربط كل المعلومات الحسية الهايبوثالموس التي تنقلها من مناطق الجسم الحسية المختلفة. (ب) المنطقة الرابطة الجدارية القفوية : وتستلم هذه المنطقة أليافاً من المناطق الحسية المختلفة ومن المناطق الرابطة (رقم ٥ و ٧) ومن المنطقة السمعية. جـ - المنطقة الرابطة الصدغية : ويؤدي تلف هذه المنطقة إلى فقدان المصاب قابلية فهم الكلمة المنطوقة أو المكتوبة (د) المنطقة الرابطة قبل الجبهية : وتتصل هذه المنطقة عن طريق ألياف واردة وصادرة مع معظم المناطق المخية سواء في قشرته أو تحتها وسواء على الجهة نفسها أو على الجهة المعاكسة من المخ. وقد تتلف هذه المنطقة من المخ، نتيجة آفات أو أورام تصيبها فتؤدي إلى مجموعة أعراض تسمى تناذر الفص الجبهي Frontal Lobe Syndrome وأهم أعراضه : -١- قلة التعقل والكبح (٢) الضجر والشرود (٣) فرط الحركة وزيادتها (٤) عدم استقرار الرأي وتركيزه

(٥) فقدان المبادرة (٦) ضعف الذاكرة (٧) ضعف الشعور الأخلاقي والاجتماعي.

الجهاز العصبي الذاتي

وهو منظومة عصبية تتألف من نوبات مبعثرة صغيرة تنتشر في مناطق متعددة من الدماغ في أقسامه المختلفة وتنشأ منها أعصاب عددها (١٢) زوجاً عصبياً تتوزع الانتشار على مناطق الرأس والرقبة وبقية الجسم وتتألف من قسم حركي

وقسم حسي . وتتوقف طبيعة عمل كل منها على طبيعة الموصلات العصبية فيها فمنها ما هو كولنرجي التأثير(Cholenergic)منها ما هو أدرنيرجي التأثير (Adrenergic) . ومن هذا الجهاز نذكر العصب العاشر التائه (vagusn) وقد سمي بالتائه لهيولة انتشاره في الجسم ويغذي هذا العصب الأقسام الحشوية في الجسم كالرئتين والقلب والحجاب الحاجز والجهاز الهضمي والجهاز البولي والجهاز التناسلي . إن الجهاز العصبي الذاتي ينقسم عموماً إلى الجهاز العصبي الودي Sympathetic N. System والجهاز العصبي الجار بلوري الو نظير الوديparasympathetic N.system وفي الغالب من الحالات يتعاكس عمل هذين الجهازين بشكل فسلجي منتظم يعود على الجسم عموماً بأداء وظيفي منسق سليم . وذكرنا لهذا الجهاز في هذا الفصل إشارة لما لهذا الجهاز من دور كبير في نقل المشاعر المتعلقة بالحالة العدوانية في الفرد . . لأنه يلعب دوراً كبيراً في العملية العدوانية البشرية .

الفصل الثاني

أنواع العدوان وأسسه الفسلجية

أنواع العدوان

يذكر الأستاذ كينيث ايفان موير من جامعة كارنيجي ميلون تقسيماته للعدوان كمايأتي :-

١- العدوان القتلي أو الجرمي : وهو ما يمكن إحداثه بوجود مثير خارجي أو هدف أو فريسة وفيه تؤدي حركة أو فعالية الفريسة أو العنصر المستهدف إلى إثارة غريزة القتل أو التجريح في العنصر القائم بالإجرام أو عملية القتل .

٢- العدوان الذكوري : وفيه يؤدي وجود الكائن الذكر إلى القيام بالعدوان عليه من قبل ذكر آخر حين لا يستطيع الأخير التعود أو التطبع على وجوده. وهنا لا يعني هدوء أو مسالمة الفريسة المستهدفة أو حركته أي شيء في منع استثارة العدوان في الحيوان المعتدي. فمجرد وجود الفرد الذكر من فصيلته يؤدي إلى حدوث الاستثارة العدوانية لذكر آخر من الفصيلة نفسها .

٣- عدوان الخوف : ويتميز هذا النوع بوجود عنصر الخوف في نفس المهاجم فكل عملية هجوم يقوم بها ، تسبقها بالضرورة حالة خوف ومحاولة هروب ، والأساس المميز لهذا النوع من العدوان هو وجود محاولة هروب سرعان ما يتغلب عليها الكائن ويقوم بالعدوان .

٤- العدوان الهياجي غير المنظم : وفيه تحدث استثارة عامة في الكائن نتيجة وجود أكثر من مثير مما يؤدي إلى قيامه بالهجوم بشكل عشوائي غير منتظم وعلى كل الجهات وبمختلف الوسائل التي يستطيع الكائن استخدامها .

٥- عدوان الدفاع عن الاقليم : وفيه يلعب حب الحصول على الموطن أو المكان أو الاقليم دافعاً فطرياً في الكائن للقيام بالعدوان على منافسيه في ذلك الاقليم .

٦- العدوان الأمومي : وفيه يكون المثير وجود خطر أو مصدر خطر يهدد أبناء

الجنس الأنثوي في الفصيلة. وهو نوع خاص بعدوانية أنثوية تدفعها إلى القيام بحالة هجوم (دفاعي) عن أبنائها.

٧- العدوان البيئي: وهو الذي يكون سبب الاثارة فيه خطأ غير معين وغير معروف بالضبط من قبل الكائن. فيعيش الكائن مستثاراً، مهتاجاً ويقوم بالعدوان ولا يعرف بالضبط سبب عدوانه. ويمكن أن يشترك أي نوع من الأنواع أعلاه في أحداث مثل هذا النوع غير المشخص السبب.

مراكز العدوان في الدماغ

لقد أجرى إيكر وفلاين عام ١٩٦٣م تجارب احداث العدوان في قطة وفأر، ووجدا أنه باستثارة الجانب الخارجي من الهايبوثالموس في دماغ القط فإن القط يستثار ويقوم بمهاجمة الفأر ويهمل مهاجمة صاحب التجربة(الذي يقوم بها) ولكن عندما احدثا الاستثارة في الجانب الداخلي في الكايبوثالموس فإن القط العمل الفأر وهاجم الذي الذي يقوم بالتجربة. و قد أيدها هاتشسون ذلك بتجربة أخرى فوجد علاقة بين الهدف والعدوان(تعيين جهة الاعتداء) ومكان الاستثارة وأن العدوان يحمل صفة موجهة ولا يتم بشكل عشوائي. وتلعب اللوزة الدماغية Amyg dala في العدوان القتلي أو الجرمي دوراً كبيراً عندما تستثار. وقد وجد أن قطع الأعصاب الموصلة بينها وبين الهايبوثالموس إلى زوال النزعة العدوانية كما أكد ذلك كارلي وفيركنيز في عام , ١٩٦٤ وتؤكد الأبحاث إن الإصابات كالأورام والالتهابات التي تصيب الجانب الخارجي من الدماغ الأوسط Diencphalon تؤدي إلى اختفاء النزوع العدواني. وأكد جامبرز وستيلار عام ١٩٦١ م أن خلل الأعصاب الناقلة للحس وتعطل وظائفها يؤدي إلى كف حالة العدوان في الكائن. كما أكد كارلي مجدداً أن شل وظيفة الفص الجبهوي Frontal Lobeبسبب من الأسباب، يؤدي إلى ظهور حالة عدوانية حتى في أكثر الأصناف الحيوانية هدوءاً.

ولم تفض الأبحاث التي أجريت على الجانب الهرموني إلى وجود علاقة بين التغير الهرموني والعدوان القتلي. بينما يؤكد بيمان عام ١٩٤٧ أثر التستوستيرون في ظهور العدوان الذكوري. فعملية الاخصاء ورفع غدة الأدرينال لن تخفض نزعة القتل في القط تجاه الفأر. وعملية زرق التستوستيرون مجدداً لم تزد حالة الميل إلى القتل كما في تجربة كارلي عام ١٩٥٨م.

دافع الجوع والعدوان القتلي

وقد وجد لاحقاً أن هناك علاقة بين الحالة الفسلجية التي تؤدي إلى سلوك الأكل أو الميل إلى الأكل والالتهام وبين الحالة التي تؤدي إلى رغبة القتل؛ ولكن لا نزال بحاجة إلى دراسة وتوضيح. كما وجد أن رغبة الأكل ورغبة القتل كليهما يمكن إحداثهما باثارة المنطقة نفسها في الجانب الخارجي من الهايبوثالموس كما أكدها هاتشسون عام ١٩٦٦م. ومع هذا فقد وجد هذا الباحث إن الاثارة المطلوبة لإحداث رغبة القتل أكبر من الإثارة المطلوبة لاحداث رغبة الأكل. يعني هذا أن الأعصاب الناقلة لاحساس دافع الجوع ليست نفسها المسؤولة عن نقل الاحساس بالقتل. ومع هذا فإن وجود المنطقة المسؤولة عن رغبة الأكل ورغبة القتل قريبة من بعضها تشريحياً في الهايبو ثالموس ويؤدي امكان استثارة أحدهما امكان استثارة الأخرى. ولكن يبدو أن رغبة القتل غير مبنية على أساس فسلجة الجوع. والجوع على ما يبدو ليس أساساً لحدوث سلوك العدوان القتلي حتى بعد انتفاء الحاجة إلى الأكل. ولكن استثارة الجوع قد تؤدي إلى رغبة القتل مما يجعل الاعتقاد بأن مراكز اثارة الجوع مهيمنة على مراكز اثارة القتل تشريحياً، وارداً جداً. وقد وجد كارلي أيضاً أن الجوع أو الشحة الغذائية في القاتل تقصر مدة الإثارة للقتل أو تخفض عتبة العدوان القتلي Threshold of Predatory aggression إلى درجة تتناسب طردياً مع شدة الجوع أو درجة اثارة مراكز الجوع.

وقد برهن مكدونيل وفلاين عام ١٩٦٦م وجود علاقة بين المنطقة الحسية حول الفم ومنطقة استلام الاحساس في الهايبوثالموس وقد أدت إثارة هذه المنطقة في الهايبوثالموس إلى فتح الفم وهي حركة من حركات عملية الأكل .

حاستا الشم والبصر وعلاقتهما بالنزوع العدواني

كما أدت إثارة المنطقة الشمية في منطقة مجاورة إلى اثارة فتح الفم . وعند ايقاف استثارة الهايبوثالموس وتحفيز منطقة الابصار في الفص القذالي (الخلفي) أو منطقة اللمس فإن الكائن يقوم بعملية اعتداء ، ربما بحكم اكتساب الخبرة بالتعلم . وعند كفّ الابصار أوالقدرة على اللمس واستثارة الهايبوثالموس ، فإن الكائن يقوم بالعدوان مستعيناً بحاسة الشم والصوت الصادر كنواة للإثارة ، ويلعب الاحساس الشمي دوراً في إثارة العدوان الذكوري كما أوضحت ذلك تجربة روبارتز عام ١٩٦٨ حيث لم يحصل هذا النوع من العدوان عند شل عمل منطقة الاحساس الشمي في حيوان تجربته .

وقد وجد سكوت وفريدريكسون عام ١٩٥١م أن الذكور الذين يسمح لهم بالتعايش سوية فترة من الزمن نادراً ما يقومون بالعدوان على بعضهم ، ربما ذلك بسبب التطبع على رائحة الكائن الآخر ؛ أو بنشوء الارتقاء في نوع النظرة الجماعية للعيش ضمن مجموع . وقد لاحظ سيوارد عام ١٩٤٥م وبارنيت عام ١٩٦٣م أن هناك سلوكاً يبديه الفأر تجاه القط في التجربة التي أجراها الأول وأعادها الثاني ، هذا السلوك يتخذ فيه الفأر - وضعاً للوقوف يوحي بالمسكنة والذلة ، ويخفف هذا الوضع كثيراً من شدة عدوان القط عليه . وهنا يلعب الحافز النظري لدى القط أثراً مانعاً لشدة استثارة الهايبوثالموس . يقرر كل من سيوارد وفريدريكسون أن سلوك العدوان الذكوري لا يظهر إلا بعد البلوغ الجنسي في الحيوانات التي اضعفاها للتجربة ، يبدو أن ذلك ذو مردود هرموني أندروجيني . ويتصاعد هذا العدوان أوالاحساس به عند الاستثارة الشمية .

العزل والعدوان

في نتائج الأعمال التي قام بها ين، وداي وسيكك في عام ١٩٦٢م ، تبين أن عزل الحيوان لمدة طويلة عن أبناء جنسه يثير عدوانيته كثيراً. وهذا النوع ربما يظهر بشكل أوضح في عزل الحيوان الذكر، وقد وجد هؤلاء الباحثون أيضاً أنه يمكن إيقاف هذا العدوان في الحيوان عند أخصائه أو رفع الغدة النخامية قبل عزله لمدة طويلة. كما وجدوا أن زرق هرمونات الغدة الدرقية يزيد الميل إلى العدوان أو يعجل في ظهور العدوان في الحيوان المعزول. كما وجد آخرون أن العدوان الذكوري يمكن إحداثه بزرق مضادات الكاتاكولامين ولهذا فالإثارة للأعصاب والمراكز ذات الطبيعة الكولنرجية (Cholinergic)تُقلّل العدوان وخصوصاً في الحيوان المعزول لمدة طويلة.

نزعة الهروب والعدوان

في البحوث التي أجريت على حالة العدوان الهروبي أو عدوان الخوف، وجد كل من لربرام وشريز وكلنك أن المسؤول عن هذه المناظرة في حالة الهروب السابقة لكل حالة هجوم هو اللوزة الدماغية Amygdala ، وأنه في حالة استئصالها، فإن هذا النوع من العدوان سرعان ما يختفي كما وجد آيدي وميرليس وسوندرلاند عام ١٩٥٦ أن الجهة الصدغية يمكن أن تكون مسؤولة عن إثارة هذا النوع وأنه عند استثارتها، تحدث حالة عدوا ن هروبي بمعزل عن اثارة اللوزة. كما وجد وادد عام ١٩٤٨وكينارد في عام ١٩٥٥م أن النطاق الفائفي Cingulate gyrus يؤدي دوراً مهماً في عدوان الخوف، وأن انتزاعه من دماغ القرد الذي أخضعاه للتجربة يقلل من نزعة هذا النوع من العدوان. واستثارة النطاق اللفائقي هذا تجعله قلقاً مضطرباً كما أكد ذلك آناند وديو في عام ١٩٥٦ في سلسلة أبحاثهما على القرد. وقد وجد أن اثارة جزء من السحايا الوسطية(الفاصلة بين فصي الدماغ) تؤدي إلى الاثارة العاطفية وازدياد النشاط

الحركي مع ظهور حالة الخوف والاهتياج وظهور الميل إلى الهروب والتطير. كما وجد هوت وكلنك أن الجزء الداخلي والباطني من الهايبوثالموس عند اثارته وتحفيزه، يمكن أن يثير نزعة العدوان الهروبي. ولقد ظلت الصعوبة في معرفة ما إذا كانت استجابة الهروب نتيجة للميل إلى العدوان أو أن العدوان - فسلجياً - هو الاستجابة للخوف. ظلت هذه الصعوبة بدون ايضاح مختبري في كثير من الدراسات. واستجابات الخوف في الكائن عديدة ومختلفة الوجوه، فقد يتخذ الكائن فيها وضع الاستكانة والذل أو الوضع المتجمد المتخشب أو وضع الاغماء وفقدان الوعي أو الميل إلى إظهار الرعشة العامة الشبيهة بالرعشة الصرعية. وكما قلنا لم تظهر الدراسات علاقة بين الهرمون وتغيراته وبين ظهور عدوان الخوف الهروبي.

العدوان الاضطرابي (غير المنتظم)

فيما يتعلق بالعدوان الاضطرابي (الهياجي، غير المنتظم) وجدان الاحباط يشكل سبباً رئيساً كما ورد في أوراق دولارد وموررير وسيرز في عام ١٩٣٩، وقد وجد أن الكائن يؤذي من حوله باتجاهات مختلفة إثر احباط لمسعاه نحو الأكل أو الأمن أو الجنس أو شيء آخر مجهول. العامل الآخر هو عامل الاجهاد والتعب كما يقول تدويل وسيتون عام ١٩٥٤م. كما يقرر لاتيز إن الحرمان من النوم لمدة طويلة يساعد على ظهور هذا النوع من العدوان.

كما دللت أبحاث بوشكا دوايزمان وتور المشتركة عام ١٩٦٦م على أن هذا النوع من العدوان يمكن أن يكون إحدى الأعراض الانسحابية لمدمني المورفين، وفي البحث الذي نشره اورلخ عام ١٩٦٦م ظهر أن الألم أو اثارة الاحساس بالألم يمكن أن تكون من العوامل المفضية إلى العدوان الهياجي غير المنتظم. لم يعين كثير من الباحثين أساساً عصبياً واحداً للعدوان في الدماغ يمكن أن يُثار لاحداث مثل هذا النوع. وعلى الرغم من ذلك فإن ديلكادو وسكالتيتي يؤكدان

أن التكوين الشبكي Reticular Formation والدماغ الأوسط Dien-cephalon مسؤولان عن العدوان الهياجي. وقد حاول البعض من الأطباء اجراء استئصال اللفائفي (Cingulectomy)، لازلة الميل إلى العنف هذا. وقد أدت هذه العمليات بعض النتائج الطيبة. وقد جرب بعضهم اجراء تحفيز الجانب الخارجي من النواة القاعدية للوزة الدماغية لقطة أخضعت للتجربة فأدى هذا التحفيز إلى ظهور عدوان الخوف الهروبي واختفاء عدوان القتل والعدوان غير المنتظم. وقد استطاع شراينر وسومرز وكيبلر أن يثبتوا أن عملية استئصال اللوزة Amygdale Ctomy يمكن أن تزيل ثلاثة أنواع من العدوان: الهياجي غير المنتظم، وعدوان القتل، وعدوان الخوف الهروبي. ولكن الباحث شراينر عاد إلى التقرير بأن العدوان الهياجي يمكن أن يستمر في الحيوان حتي بعد استئصال اللوزة الدماغية مما أحدث ارباكاً في فهم آلية العلاقة بين هذا الجزء من الدماغ وهذا النوع من العدوان. وقدم البحث المشترك الذي قدمه فونبيرغ وودز ايضاحاً بأن أجزاء معينة من اللوزة مسؤولة عن أنواع معينة من العدوان وأن قسمها الأوسط يحمل عملاً موقفاً أو كافاً للرد العدواني أو القيام به وأن الخلايا في أطرافها أومناطق اتصالها بالهايبوثالموس تعمل كمثير لتحفيز الكائن نحو العدوان.

البيئة والمرض وفسلجة العدوان

يذكر الباحثان هيث ومونري عام ١٩٥٥م أنهما أحدثا عند استثارة اللوزة في أحد المرضى الفصامين، حالة هياج شديد وميل إلى العدوان. وبعد إعادة التجربة مرة أخرى على المريض نفسه أظهر ميلاً إلى الهروب ونوعاً من عدوان الخوف الهروبي. بينما يذكر فوندريه عام ١٩٤٤م أن حالة هياج شديدة أبدتها سيدة مريضة، وقد أظهر تشريح دماغها بعد وفاتها وجود ورم كبير في المنطقة الداخلية من الفص الصدغي الأيسر ممتداً وشاملاً منطقة اللوزة الدماغية، ويبدو أن

الباحث ماكلين عام ١٩٧٥م قد وجد أنه بالامكان إحداث ميل عدواني في حوان تجربته(قطة) بزرق الاستيايلكولين في منطقة الـ هايبوكامبس Hippcampus وقد وجدت التجارب علاقة وثيقة بين الهرمون والحالة العدوانية وسنعود إلى مناقشة ذلك حقاً. وقد حاول كبسون وكليكهورن ايجاد علاقة بين الحالة الاجتماعية وصعوبة البيئة، وظهور حالة العدوان. كما حاولا ربط هذه العلاقة بالتغير الحاصل في نشاط وفاعلية الغدة الأدرينالية والغدة الدرقية ولكن نتائج البحث ما زالت في الحاجة إلى المزيد من التقصي. وقد وجد ساندز عام ١٩٥٤م وأن حقن مقادير من الـ ستيلبسترول في كف حالة العدوان في بعض المرض المعتلي الشخصية، وذوي الاكتئاب الشديد.

الدورة الشهرية وفسلجة العدوان

وجد مورتون وسوليفان وهونت عام ١٩٥٣م إن مختلف حالات العنف التي أظهرتها السجينات في إحدى المواقف بنسبة ٦٢٪ منهن، كانت خلال الأسبوع السابق لموعد الدورة الشهرية. وأننا نلاحظ كثيراً من الاضطرابات والميل إلى العدوان والانفجار يحدث عند المرأة في الأسبوع السابق للدورة الشهرية فيها. إن هذه ملاحظة سريرية ويمكن أن يستفاد منها على أساس فسلجي مختبري.

العدوان الاقليمي والأمومي

لم تظهر الاختبارات خصوصية فسلجية للعدوان الاقليمي أو عدوان الدفاع عن الموطن. وقد أخفقت الدراسات في ايجاد علاقة بين النشاط الجنسي وهذا النوع من العدوان. أما فيما يتعلق بالعدوان الأمومي، فقد وجد أن هذا النوع من العدوان تبديه الأنثى في مرحلة الارضاع خاصةً. ولقد وجد أن تعايش أنثى مع أنثى حاضنة لصغارها في غير فترة الارضاع، لا يؤدي إلى ظهور هذا النوع من العدوان بينهما. وقد وجد أن حقن الكورتيزون يزيد هذه الميول العدوانية، كما وجد كذلك أنَّ إثارة اللوزة والسحايا ما بين الفصينّ الدماغيين تزيد من هذا الميل أيضاً.

ملاحظة

لاحظنا أن هذه الأبحاث في هذا الفصل تُركِّز على تجربة النزوع العدواني في الفصائل الحيوانية العديدة، وقليل منها ما كان يناقش العدوانية الانسانية، إن صعوبة الحصول على عينات بشرية مختبرية تبدو كبيرة. إن تشابه الاثارات ونتائجها بين أمخاخ المجموعة الحيوانية ومناطق الاثارة في الدماغ البشري تجعل الاستفادة من هذه التجارب في حقل اختبار فسلجة العدوان البشري كبيرة جداً ولكننا ما نزال في حاجة إلى عينات مختبرية من البشر لتكون الدراسة قريبة من الفسلجة الانسانية ومفضية إلى كثير من الدقة والعلمية.

الفصل الثالث
هل يمكن احداث حالة عدوان؟

مقدمة

توصلنا في الفصل السابق إلى أن هناك كثيراً من الأبحاث التي دللت على وجود علاقة بين نشاط بعض أجزاء الدماغ وبين ميل الكائن إلى العدوان كظاهرة من ظواهر سلوكه. فالاختبار الهرموني في أبحاث سكوت وفريدركسون واورلخ ودافز وكريستين، يدلل على وجود علاقة بين نسبة التستوستيرون ونشاط الغدة الدرقية والنخامية وبين كون ذلك الكائن عنصراً معتدياً بتكوينه النهائي.
كما دللت بعض الأبحاث على العلاقة التشريحية بين حجم ونشاط ما تحت المهاد(الهايبوثالموس) واللوزة (Amygdala) وحذاء الفرس(الهايبوكامبس Hippocampus) وبين ميل الكائن العدواني. بعد هذا نسأل: هل يمكن إحداث حالة عدوان في الكائن وبأية طريقة؟ إن الإجابة على مثل هذا السؤال - على صعوبتها - تشكل نقطة مهمة في هذا الاتجاه - وربما يمهد ذلك للنجاح في اتجاه معاكس حيث يصبح بالامكان طرح سؤال آخر على الوجه الآتي: هل يمكن إحداث حالة لا عدوان في الكائن؟ وستقود الإجابة على السؤال الأخير هذا - إن تحققت - مسيرة جديدة في عالم الانسان. في محاولة لإحداث حالة عدوان ينبغي أن نناقش الأمور الآتية.

احتلال القشرة الدماغية وأثره

يفيد بعض الأبحاث التي أجراها هيربك عام ١٩٣٣ ويربرام وكريكر عام ١٩٥٤م أن الجهاز الشمي في الدماغ لبعض الحيوانات يخدم في ثلاثة اتجاهات: (أ) استثارة الحيوان للعدوان (ب) البحث عن الغذاء (جـ) اللنشاط الجنسي. وقد

وجد في هذه الأبحاث أن النويات اللوزية Amygdaloid nuclei تلعب دور الوسيط الموصل بين جذور حاسة الشم والهايبو ثالوموس. وهذا الأخير هو القادر على التوفيق بين الوظائف الخضرية والعاطفية والاستجابة الحركية. ويرى ديلكادو في عام ١٩٦١ أن بعض الخلايا في اللوزة تلعب دور المُحبط أو الموقف للاستجابات العاطفية والنشاط الحركي ويجب أن نعرف أن هذا التشابك العصبي بين اللوزة والهايبوثالموس والجهاز الشمي فى أوسط الدماغ ومنطقة القشرة يتم بأساس تشريحي - فسلجي غاية في الدقة. ولقد وجد أن أحداث خلل في وظيفة الخلايا الموقفة للنشاط الحركي بصورة اصطناعية أو اصابة تلك الخلايا اصابة عضوية كالورم أو الالتهاب أو الاستئصال، يؤدي إلى تحويل الكائن إلى كتلة من الهياج والتوتر والنزوع العدواني. وقد وجد أن هناك علاقة بين شلل الخلايا اللوزية وبين نوع العدوان. فشلل تلك الخلايا يزيد العدوان بين أجناس مختلفة من الكائنات الحيوانية ومثل هذا يمكن أن ينتج عند استئصال أو قلع الفص الجبهوي الأمامي أو ايقاف أو استئصال النواة الشمية أو الأعصاب الشمية الممتدة من النواة إلى مراكز القشرة الدماغية.

الاستثارة بالألم

وجد في المزيد من التجارب أن الاستجابة التي يبديها الكائن لمؤثر مثير للألم، تكون مصحوبة بنوع من الانفعال الذي يرافق الاحساس بهذا الألم. وبزيادة شدة المثير(أي بزيادة الاحساس بالأولم من قبل الكائن) تزداد شدة الانفعال إلى الدرجة التي تتجاوز عتبة الاستجابة العدوانية مما يجعل الكائن في وضع يتقبل فيه الميل العدواني بل ويقوم به وقد أجرى كيلر وستيكل عام ١٩٣٩م تجربة الاستثارة بالألم بوساطة القدم الكهربائي على إحدى فئران المختبر. فبعد أن تجاوزت الاثارة حدود الهروب التي كان يصل إليها الحيوان ويبدي عندها نزوع الهروب تجاه المؤثر المؤلم، أصبح الفأر مهاجماً وهجومه صار يتناسب طردياً مع الزيادة

الحاصلة في شدة التيار في القدم الكهربائي . ويتجه الكائن المثار بعدوانيته - بطريقة الاستثارة بالألم - نحو أبناء جنسه أو نحو أبناء جنس آخر على السواء . وقد أكد الدكتور أيزنيك وراشمان عام ١٩٦٥ إن إحداث العدوان بطريقة الاستثارة بالألم لا تشمل الحيوانات بل والإنسان أيضاً .

الاستثارة بالعقاقير

دللت أبحاث من أجيسون عام ١٩٦١ وبلاشكو وكروشل عام ١٩٦٠ وبراون عام ١٩٦٢ أن سلوكاً عدوانياً سرعان ما يبديه بعد حقنه بعقاقير ذات أثر نفسي . وقسم من هذه العقاقير يستخدم في علاج بعض الأمراض . ومن أمثلة هذه العقاقير .

أدرينوكروم، دوبا، 5 HTP ، فينبرازين، أمفيتامين، LSD. ويبدو أن هذا العدوان الذي يبديه الكائن هو النوع من النوع الهياجي غير المنتظم (الاضطرابي) . كما وجد فلاور وتيديشي عام ١٩٦٥ أن الكلورو داي مثيل بايرميدين له أثر كبير في احداث العدوان . عند زرق الفأر الخاضع للتجربة به، ولقد أبدى هذا الفأر تشنجاً عضلياً ورعاشاً عاماً وميلاً إلى عض الأشياء المحيطة به .

الاستثارة بالعزل

وجد كلٌ من سكوت وسيوارد ظهور نوع من العدوان على بعض الأحياء المختبرية عند تعريض هذه الكائنات إلى العزل، مما حدا بهما إلى عزل أحد الجرذان في قفص لمدة أربعة أسابيع بغية متابعة ما يطرأ عليه . وقد وجدا أن مراحل من الفعالية والاضطراب الحركي والميل إلى عض ومحاولة قضم الأسلاك المحيطة قد ظهرت على هذا الجرذ بتقدم الوقت نفسه، ومما زاد في الميل العدواني الذي ابداه الجرذ هو إبقاء جرذ آخر في القفص نفسه حيث أظهر الجرذ السابق

حالة من التوتر والميل إلى مهاجمة الجرذ الجديد. وقد أفادت هذه التجربة في قياس قدرة بعض العقاقير على إحداث خفض العدوان في الحيوان المثار. حيث حقنت تلك الأحياء بالعقاقير وجربت حالة الاستجابة زمناً وشدة وقد ظهر من التجربة أن إناث الجرذان تبدي عدوانية أقل عند تعرضها للعزل.

وفي تجربة ميلير الشهيرة عام ١٩٦٦م التي أثبت بها أن تعريض الانسان إلى الحرمان الحسي لمدة لا تقل عن ثلاثة أسابيع يعرضه إلى ظهور حالة شبيهة بحالة الفصام ويبدو الخاضع للتجربة وقد ملأ المحيط حوله بالهذاءات واختلال الأفكار وإظهار الميل الشديد إلى مهاجمة ما حوله. وقد أكد أحدهم في بحث آخر أن العدوان المستحدث بالعزل ذو تأثير طويل الأمد في سلوك الإنسان قد يمتد بين ٤ – ٦ شهور وقد يستقر كسلوك غير طبيعي وقد يترك أثراً عدوانياً ذهانياً مستديماً في حياة الإنسان كما يحدث لبعض الأشخاص بعد خروجهم من سجن طويل الأمد.

وقد أكد كروشل عام ١٩٦٠ أن تزويد الكائن بالدوبا(Dopa) وهي المصدر الأولي للنور ابنفرين والسيرتونين يزيد نسبة الأمينات في الدماغ ويزيد من النشاط العدواني للكائن. بينما تعمل العقاقير التي تساعد على انتشار الكاتيكولامين Catecholamine من مراكزه أو تغلق مراكز استلامه وعمله إلى خفض حدة التوتر في الكائن وخفض الاستجابة العدوانية الحاصلة نتيجة العزل لمدة طويلة كما أكد ذلك بارينز في عام ١٩٦٠م وجانسين وكيلير عام ١٩٦٠ أيضاً. ولكن الموضوع الجدير بالاهتمام والتتبّع هو أنه في حالة عزل الحيوان لمدة طويلة، لا يؤدي ذلك إلى زيادة نسبة الدوبا أو النورابنفرين في الدم، بينما يؤدي زرق هذه العقاقير إلى زيادة الهياج وحالة العدوان، ولتفسير هذه الحالة يعزو بعض الباحثين السبب إلى أن الكائن في حالة الهياج يعاني من حالة تباطؤ في عملية ايض وتحليل الأمينات، فتؤدي الكمية المتعالية في المراكز الخازنة إلى حالة الهياج، وفي الوقت نفسه لا تحدث عملية تحطم للتركيب الأميني، مما لايؤدي

إلى زيادتها. في نفس الوقت لو زرقنا كمية من الامينات فإن الجرعات الأولى تحدث حالة هياج، تقوم بدورها بنقل الكائن إلى حالة يتمنع فيه عن التمثيل (الأيض) لهذه الأمينات مما يجعل نسبة وجودها في الدم عالية. ولكن هذا التعليل افتراضي وما يزال في حاجة إلى المناقشة. ويحاول فالزيلي عام ١٩٦٦ تأييد هذا التعليل الذي ذكرناه ويقول أننا لو زرقنا جرعتين متساويتين من السيروتونين أو الترنيل سيبرومين في حيوان مهتاج وحيوان هادىء فإن نسبة السيروتونين في دم الحيوان المهتاج تبقى أعلى ولمدة أطول من نسبتها وزمن بقائها في الحيوان الهادىء: وذلك بسبب تباطؤ تمثيل الأمينات في حالة الحيوان المتعرض لحالة الهياج حسب ما يعللها هو. ولقد وجد سكوت وفريدريكسون مرة أخرى أن احساس الكائن تجاه الاستثارة الدوائية تختلف باختلاف الظروف المحيطة، ومن بين تلك الظروف عامل العزل فالكائن تستثيره كميات قليلة من العقار المثير، ولنقل الأمفيتامين، بجرعة أقل وبزمن أقصر في حالة كونه معزولاً ولمدة طويلة، بينما قد لا تثير تلك الجرعة عدوانيته في حالة كونه طليقاً. ويبدو أن الأمر متعلق بقدرة الكائن علي تمثيل الجرعة المعطاة ووصول جوهرها الفاعل إلى مراكز الدماغ واختلاف هذه القدرة في حالتي الهياج والهدوء.

هل يتماثل العدوان الاصطناعي والعدوان الفسلجي (الطبيعي)؟

قلنا في موضوع احداث العدوان باستثارة الألم أنه يمكن صنع عدوان في الكائن بتعريضه إلى شدة كهربائية كافية. ولكن مسألة تحفيز الدماغ - كواحد من المواضيع التي يقترحها الباحثون لاحداث التحفير - تجابهها صعوبات تجعل التناظر أو المشابهة بين العدوان المستحدث بالتحفيز والعدوان الذي يبديه الكائن تلقائياً تجاه المثير، أمراً صعب القياس. ومن أهم هذه الصعوبات: -

(١) التحفيز الكهربائي لا يماثل تمام التماثل حالة الاستثارة الفسلجية التي تحدث

تلقائياً في الكائن وبالتالي فهي (الشدة الكهربائية) لا تمثل حالة مثير طبيعي ولا تعطي دلالة للدراسة المختبرية بصورة واضحة .

(٢) في الاستثارة الكهربائية ، قد يتم تحفيز مراكز العدوان ومراكز الكف في نفس الوقت ؛ مما يجعل صورة العدوان المستحدثة بالتحفيز مشوهة بعضاً .

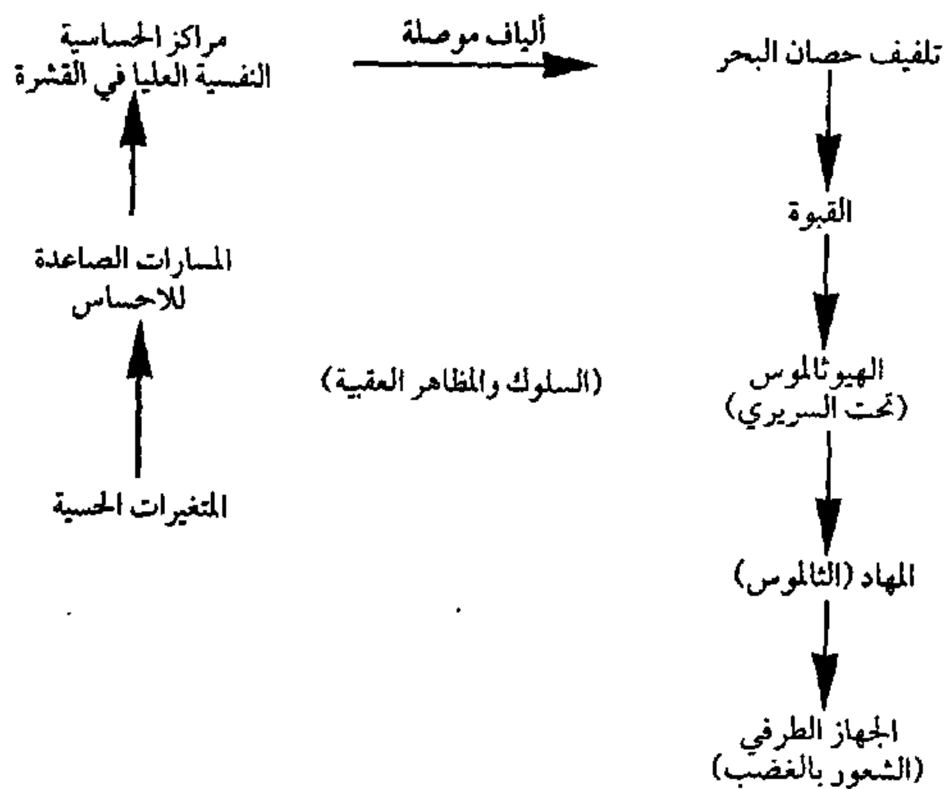
(٣) قد يضاف إلى عمل التحفيز الكهربائي عمل عوامل أخرى مصاحبة مما يجعل قياس قدرة التحفيز الكهربائي لوحده مسألة صعبة للغاية .

(٤) قد يؤدي التحفيز الكهربائي لجزء في الدماغ إلى اثارة عمل مناطق مجاورة غير مطلوبة في التجربة مما يشوه القصد من التحفيز أو يشوش تحري عمل ذلك الجزء المطلوب .

(٥) قد يحدث التحفيز الكهربائي إثارة لا يمكن إطفاؤها كما تنطفىء حالة الاثارة الطبيعية مما يخل بحساب زمن انطفاء الحالة العدوانية وصعوبة قياسها .

عمل الهايبوكامبس في الفسلجة العدوانية

ربما يكون من المفيد أن نذكر أن إثارة جزء الهايبوكامبس(حذاء الفرس) تؤدي إلى حالة نسيان للأحداث التي يمر بها الكائن تماماً إلا أنها لا تمنع استمراره في الحالة الهياجية التي يمر بها . هذا وقد يقدم شرحاً لبعض الحالات التي يمارس فيها الكائن حالة كف لكل موقفات العدوان وعناصر الاقلال من عدوانيته . فيقوم الكائن بالعمل العدواني على الرغم من مغريات منع الحالة العدوانية مع استمرار حالة الصرع يؤدي إلى زيادة احباط الكائن وشعوره بالمزيد من العدوانية فتأتي النوبات الصرعية اللاحقة مشحونة بالمزيد من الاثارة العدوانية . ولهذا فعندما تعطى جرعات كافية من اللاركيتك لمرضى الصرع فإن ذلك كفيل بايقاف النزعة العدوانية وكفيل - ربما بزيادة النوبة الصرعية بإحداث تغذية راجعة لنشاط اللوزة واستثارة أكثر لاحداث حالة عدوان أشد من الحالة السابقة التي لم يتحقق لها أن تظهر .



مسارات الانفعال والهياج الفسيولوجية

الفصل الرابع
العدوان والهرمون

أثر الهرمون في الحالة العدوانية

يقرر دافيز وبرونسون عام ١٩٦٤م أن الميل العدواني في كثير من مملكة الحيوان - ويضمنها الانسان -يعتبر خاصة من خصائص النضج الذكري ويتحدد في الغالب بمواسم الاثارة الجنسية، وقد أجري العديد من التجارب لاحقاً وحاول باحثوها أن يوجدوا أصولاً هرمونية لحالة العدوان في الكائن ثم دراسة أثر الهرمون في زيادة أو نقص الاثارة العدوانية، وقد قام جاربنتر عام ,١٩٦٦م بعزل بعض الاناث من الفئران لمدة طويلة ولكنه بعد فحص نسب الهرمون الأنثوي لم يجد تغييراً في نسبة الهرمون هذا. وقد لوحظ أن هرمون الأندروجين وخصوصاً التستوستيرون الموجود بحالته الطبيعية في الذكور يعمل على المسار العصبي والمراكز العصبية التي تؤدي استثارتها إلى اظهار العدوان كسلوك ظاهر. .فهذا الهرمون يعمل على زيادة حجم الخلايا في تلك المراكز ويساعد علي زيادة النشاط في وظائفها. وقد وجد كذلك أن هذا الهرمون في الذكور قبل الولادة ضروري لنمو حجم هذه المراكز، واختفاؤه في تلك المرحلة يؤدي إلى اظهار المزايا الأنثوية ولا يميل الذكر بذلك إلى اظهار الاستجابة العدوانية بشكل عنيف في المراحل اللاحقة في حياته.

وعملية حقن هذا الهرمون في مراحل ما بعد الولادة في الذكر يزيد نشاط تلك المراكز. ولكن اختفاء هذا الهرمون والافتقار إليه في أنسجة الذكر قبل الولادة يجعل من المتعذر ابراز الجانب الذكري ومواصفات النزوع العدواني حتى وإن تم حقنه بعد الولادة بسنين. من هذا يبدو أن وجوده ولو بنسبة ضئيلة في مرحلة ما قبل الولادة ضروري لتنشيط عمله وعمل الخلايا بسببه فيما لو تم حقنه لاحقاً. وقد وجد بعض الباحثين أن عملية الاخصاء تؤدي إلى انقاص القدرة على ممارسة

العدوان كما جاء في بحث بيمان عام ١٩٤٧م وتولمان عام ١٩٥٦م.

وفي التجربة التي أجراها سيكك عام ١٩٦٩م باستئصال الغدة النخامية لجرذ ذكر تبين عدم قدرة هذا الحيوان على إظهار نزعة عدوانية عند مهاجمته أو ميله إلى الهروب في أقل الحدود الممكنة، ويؤيد فريدريكسون ولاكرسبتز عام ١٩٦٩م تزامن النشاط العدواني مع مرحلة البلوغ الذكري ويعزوان ذلك إلى تأثير الهرمون الذكري في هذه الناحية من السلوك. وقد قرر تولمان أن زرق التستوستيرون في جسم الإناث في حيوان تجاربه لا يحولها إلى كائنات معتدية. ولكن عند إعادة التجربة على إناث سبق أن زودت بهرمون التستوستيرون عن طريق دم الأم أثناء الحمل يمكن أن يمهد المجال لظهور نزعة العدوان فيها عند إعادة حقنها بعد الولادة. وعند اجراء عملية الاخصاء لذكر التجربة وزرقه بالتستوستيرون، استطاع الحيوان استعادة القدرة الدماغية حجماً وفعلاً. وقد وجد نادلر عام ١٩٦٨م أن الأنسجة الدماغية التي تتأثر بزيادة التستوستيرون هي الهايبوثالموس واللوزة وأن استثارتهما تؤدي إلى ظهور النزعة العدوانية.

إن ماقاله كلايتون عام ١٩٧٠م يستحق الوقفة والاهتمام. لقد أشار هذا الباحث إلى أن زرق التستوستيرون يؤثر على الأنسجة الدماغية بطريقة خلق أجناس جديدة من الـ RNA وأن عملية تمثيل جديدة في هذا المركب الحيوي تعني تكوين مركب حيوان جديد وتحويله من اطاره الهاديء إلى اطار عدواني. وقد اتبع هذه الملاحظة الباحثان كوباياشي وكورسكي عام ١٩٧٠ بايقاف. الجرعات الأولى للاندروجين بزرق مقدار من الـ أكتينومايسين - د (المانع لصنع الـ RNA) وبيومايسين (المانع لصنع البروتين)، فأتاحا بذلك الفرصة لزرقات لاحقة من الأندروجين. وخصوصاً التستوستيرون، أن تؤدي إلي تضخيم حجم خلايا دماغ الإناث الخاضعة للتجربة وخاصة الهايبوثالموس واللوزة. ودللا بذلك على أن عمل التستوستيرون في زيادة حجم هذين الجزئين من الدماغ لا يعتمد على فاعلية الخلايا وإنما على فاعلية الهرمون وحده.

في عام ١٩٦٨م أشار ريسكو إلى أن الاندروجينات ليست وحدها التي تؤثر على حالة الكائن العدوانية، فهناك مركبات الـ ستيرويدات الهرمونية، فدلل بذلك في تجاربه على علاقة نشاط الغدد الأدرينالينية التي تفرز هذه المركبات والنشاط العدواني في الكائن. كما أضاف سيكك عام ١٩٦٩م علاقة هرمون الغدة الدرقية بالنزوع العدواني. وقد لخص هذا الباحث تجارب غيره واعتبر أن عمل هذه الهرمونات الثلاثة - الاندروجين والـ ستيرويد والثايروكسين - متشابه من حيث الطبيعة في التأثير في أنسجة الهايبوثالموس واللوزة حجماً وفاعلية.

أما ساشاوسكي عام ١٩٦٩ فقد حاول دراسة علاقة هرمون الاستروجين والبروجستيرون(وهما من الهرمونات الأنثوية) بالحالة العدوانية فلم يجد تقدماً في بحثه في هذا الجانب، بينما يقرر برونسون في السنة نفسها أن لهذين الهرمونين أثراً مخفضاً لحالة الاستثارة الدماغية بطريق مباشر أو بوساطة خفض نشاط محور النخامية - الدرقية - المبيض.

أثر العدوان في الحالة الهرمونية

وجد خلال العديد من الأبحاث أن ظهور التوتر والشد والميل العدواني في الكائن يؤدي إلى تغير واضح في الحالة الهرمونية فيه، مما يؤثر في حجم الغدد الصماء وزيادة نشاطها فقد أثبت برونسون عام ١٩٦٤ أن حجم الغدة الادرينالينية في فرز هرمون الكورتيزون يزداد في الفأر الذي أحدث فيه حالة إثارة بالتحفيز بالقدم الكهربائي.

كما قام برونسون أيضاً بفحص نسبة الـ ستيرويد قبل ساعة من اثارة فأر في قفص التجربة وخلال الاثارة ثم بعد ساعة من الاثارة بالتحفيز الكهربائي ؛ فوجد زيادة في إفراز الهرمون. وقد دلل برونسون أن هذا الهرمون يعمل أولاً على الهايبوثالموس وبعد حصول الاستثارة تمتد هذه الاستثارة عبر محور الهايبوثالموس - النخامية الادرينالينية، مما يؤدي إلى زيادة إفراز هذا الهرمون المذكور من قشرة

الغدة الأخيرة في المحور والتي تعتبر مصدراً لهذا الهرمون . وقد امتد الفضول التجريبي بهذا الباحث إلى تقصي حالة الدفاع لفأر اكتسب خبرة هذا الدماغ ضد فأر آخر يهاجمه باستمرار فوجد أن مجرد رؤية الفأر المهاجم من قبل الفأر المدافع تؤدي إلى زيادة هرمون الـ ستيرويد في الدم وحتى بدون حصول حالة قتال وتلاحم . كما أكد بارنيت وايفان عام ١٩٦٦ن إن حالة الشد المستمر في الكائن تؤثر أيضاً في حجم الغدة الدرقية . وقد وجد هذان الباحثان أن الفأر المهتاج في التجربة أظهر هبوطاً في نسبة اليود المشع(1131) في إفراز الغدة الدرقية أثناء العمل العدواني على فأر آخر في قفص التجربة ، نتيجة لاحتقان الغدة وامتناع طرح هذا الهرمون أثناء الحالة الهياجية إلى مجرى الدم . ويرى باحث آخر أن الاحجام عن فرز الـ131 ليس بسبب احتقان نسيج هذه الغدة وإنما بسبب انخفاض أو توقف افراز الهرمون المنشط لعمل هذه الغدة(TSH) . ووجد باحث آخر أن الحيوان الخاضع لحالة مزمنة من العدوان أو الحيوان الخاضع لحالة مستمرة من الدماغ(العدوان الهروبي) يعاني من حالة أقل من حالات انخفاض افراز هذا الهرمون ، ربما ذلك لأن هرمون الـ(TSH) سرعان ما يكتسب التطبع أو قل سرعان ما تكتسب هذه النخامية هذا التطبع على الاستجابة وافراز القليل منه في حالة الهياج . وأعتقد أن أفضل ميله العدواني على حالته الهرمونية ، وفاعلية غدده الصماء ، يمكن الحصول عليها بنتائج جيدة عندما تتم بتقصي الحالة النفسية الفسلجية للسجناء المجرمين لأسباب عديدة منها : -

(١) يمثل السجن حالة عزل يحتاجها الباحث كثيراً ، لأن العزل بحد ذاته مثير لحالة العدوان في الكائن ، البشري خاصةً ، ويمكن خلال هذه الفترة تتبع على الاسقاطات التي يبديها السجين على الافراد والمحيط من حوله .

(٢) السجناء المجرمون يمثلون في الغالب اعتلالات في الشخصية قد تحمل معها بعض أو كل مظاهر العيوب الفسلجية التي قد تظهرها فحوصات الدم وتقصي حالة الافراز الهرموني . وقد أظهرت بعض الدراسات التي أجريت على السجناء

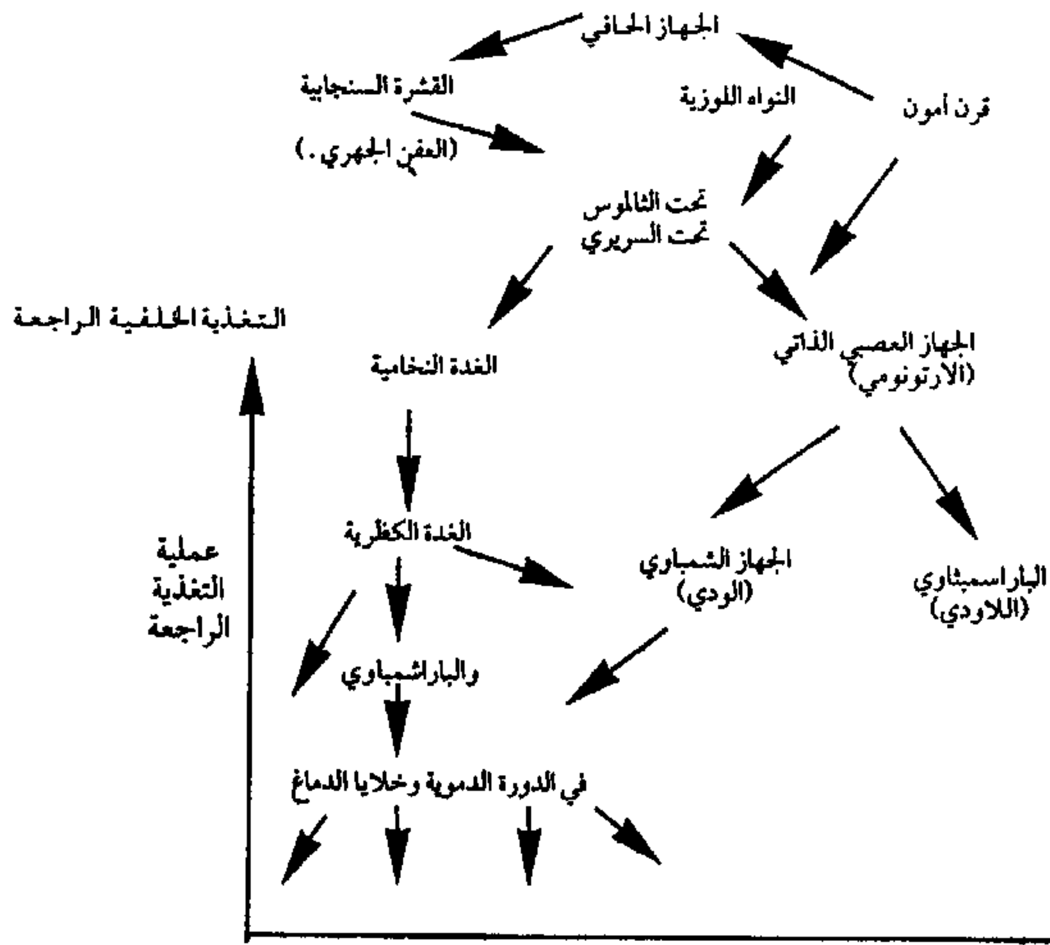
يبدون حالة عدوانية مستمرة أثناء مكوثهم في السجن ، أنّ هؤلاء السجناء هم من الناس الذين لا يملكون القدرة على إقامة علاقات اجتماعية جيدة في حياتهم وأنهم من الذين حصلوا - بحكم افتقارهم للقدرة - على نصيب بسيط من الثقافة والتعليم وأنهم من الذين يتمتعون بقدر معين من التخلف العقلي والانحطاط الاجتماعي . ولقد أظهر فحصهم المختبري في بعض الدراسات أن أغلبهم يعاني من زيادة نسبة هرمون التستوستيرون في الدم، كما وجد أن أغلب الميول العدوانية ذات رمز جنسي ذكوري متناسب مع هذه الزيادة الهرمونية .

* * *

لقد اندفع بعض الباحثين إلى القول بأن سوء العلاقات الاجتماعية وانعزال الفرد في طفولته ويفوعته يؤدي إلى زيادة الحالة العدوانية التي تؤثر على زيادة النشاط الهرموني (أي أثر البيئة العدوانية على الهرمون)بينما يقول آخرون أن النشاط الهرموني يجعل الفرد ميالاً إلى الانعزال والانكفاء الاجتماعي مما يخلق ميلاً عدوانياً كنتيجة للعزلة . ولمعرفة مثل هذا التشابك الصعب في مثل هذه الدراسة فإن تحليلاً وافياً لظروف مثل هؤلاء الأفراد وتقصي بواكير حياتهم قمينة بشرح الجذور الأولى لظهور هذه الحالة الفسلجية السلوكية المخطوءة .

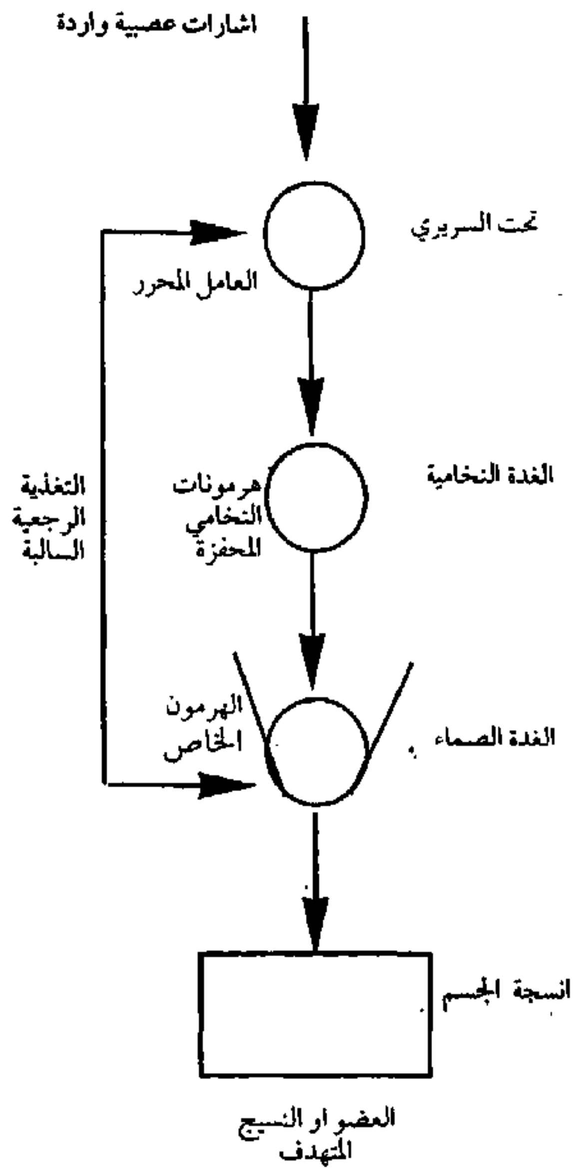
وفي المخطط التالي ، نحاول أن نرسم مخططاً للعلاقة الفسلجية القائمة أثناء حدوث الاستثارة في الكائن ، وكما يبدو من المخطط أن الجهاز الحافي -Lim bicsyts يقوم بإحداث اخلال لحالة الكف التي تمارسها القشرة السنجابية(اللحاء) والتأثير في الوقت عينه على (تحت السريري) أو تحت الثالموس أو ما يسمى بالهايبوثالموس . إن هذا الجزء المهم سرعان ما يؤثر في جهازين مهمين - كما في المخطط - الجهاز العصبي الذاتي بفرعيه (السمبثاوي أو العاطفي والباراسمبثاوي أو جار السمبثاوي) وفي جهاز الغدد الصماء بدءاً بالغدة

النخامية . ولا ننسى ما بين هذه الغدد من ترابط وظيفي ، فاستثارة أو نشاط عمل الغدة النخامية يثير ضمن ما يثير الغدة التي تفرز الادرينالين والكورتيزون . إن هناك مبدأ التغذية الراجعة التي تتحكم بجهاز الغدد الصماء فنشاط اللاحق قد يقلل من نشاط السابق عليه وهكذا . ويبين المخطط بالأسهم المؤشرة صورة التنسيق الفسلجي بين عمل الجهاز الحافي والهايبوثالموس ثم افرازات الغدد الصماء كالادرينالين والنورادرينالين والكورتيزون ثم زيادة الموصلات العصبية كالدوبامين والسيروتونين والاستيل كولين التي تجعل الكائن مستثاراً هائجاً متوتراً وفي المخطط الثاني يظهر لنا الأثر العكسي لعمل الهرمون بعد حصول الاستثارة . فتحفيز الهايبوثالموس يزيد من نشاط الغدة النخامية لفرز هرموناتها المحفزة التي تؤثر على العضو أو النسيج المطلوبة اثارته . بعد ذلك وبعد حصول هذا الفرز لهذا الهرمون تعمل كميته العائمة في دم الكائن المثار وأنسجته على أبطال الاستثارة بواسطة ميكانيكية تسمى « التغذية الرجعية السالبة » كما هو واضح في المخطط الثاني .



(تفرز المواد التالية : أدرينالين، نور أدرينالين، هايدروكورتيزون، دوبامين، سيروتوني، استيل كوين)

مخطط يبين حالة الأفراز الهرموني في حالة الغضب والهياج رسم تخطيطي للوجه



رسم يبين دور الهايبوثالموس (تحت السريري) في السيطرة على تحفيز افراز الهرمونات الغدد الصم

الفصل الخامس
العدوان والاختبارات المعاصرة

مقدمة

حاولت المدارس التجريبية والبحوث المختبرية وما تزال تحاول إيجاد أسس فسلجية لنزعة العدوان في النفس البشرية. ويبدو - وعلى الرغم من النجاح الذي أصابه الكثير من تلك المحاولات - أن الأمر يتطلب المزيد من البحث والمزيد من الزمن. إن وجود أو اكتشاف وجود أسس بايولوجية في الجهاز العصبي البشري للعدوان، له نتائجه الخطيرة لما يترتب على ذلك من ظهور محاولات أخرى للحد من هذه الظاهرة المستعصية وبالتالي وضع أسس علاجية ووقائية تقود إلى نشوء مجتمع انساني لا يملك من الفرد فيه مثل هذا الميل المدمر لأبناء جنسه من البشر. وعلى الرغم من الشروح والايضاحات التي قدمتها المدارس الفكرية ومذاهب الفلسفة والتي ذكرنا القسم المهم منها في القسم الأول من هذه الدراسة إلا أننا - ولأغراض ايجاد حل لهذا النزوع الخطر - ميالون إلى اقامة علاقة مختبرية له وربط المسألة بجذور فسلجية وعضوية وابعاد الموضوع عن التنظير والافتراضات النظرية مع أهميتها. وأرجو أن لا يكون هذا الميل المختبري مقللاً لدور الفكر الانساني الفلسفي في توضيح صورة العدوان في النفس، فجميع هذه النظريات التحليلية والجدلية تطمح إلى مقارنة الظواهرالعدوانية السريرية بجذور عضوية في الجهاز العصبي. إن إيجاد أسس فسلجية يعجل كثيراً من وضع أسس لاحقة للعلاج والوقاية.

العدوان في ضوء فسلجة بافلوف

ترتبط نظرية العدوان أو الميل العدواني في ضوء ما يراه بافلوف، عالم الفسلجة الروسي، بناحيتين تعملان جنباً إلى جنب في النفس وتؤديان إلى ظهور

السلوك البشري، هاتان هما:

(١) الأفعال أو الأعمال السلوكية الأولية غير الشرطية: وهي الناتج السلوكي لدوافع فطرية في النفس تُولَدُ مع الانسان ولا يحتاج - لكي يلبيها - إلى تعلم ولا إلى قيام آصرة شرطية بين المثير الخارجي والمثار (الكائن). فحاجات الغذاء والجنس والعطش لا ترتبط بمثير خارجي ويعبر عنها الكائن بحكم حاجة الدافع الداخلي.

(٢) الأعمال المنعكسة الشرطية: وهي ذلك النوع من السلوك الذي يشمل ضمن ما يشمله العادات أو نشوء العادة. ولا تتم هذه الملكة السلوكية إلا بتوفر المثير والاستجابة لدى المثار وظهور عنصر التدعيم أو التعزيز (اللذة، الألم.. الخ) الذي يعمل على تكرر المعاودة وعدم اطفاء البذرة الأولى لتطبيع الكائن بغية نشوء العادة السلوكية.

وقد حصل بافلوف إن من أهم ما يقف حائلاً دون نشوء هذه الأعمال المنعكسة الشرطية، هو وجود لحاء مخي ضعيف، غير قادر علي كبت الدوافع الفطرية التي تختزنها مراكز ما تحت اللحاء الدماغي التي تتعارض - أي الدوافع - مع نشوء تلك العادة الشرطية المنعكسة فلزرع عادة جديدة، ينبغي أن يتوفر لحاء قوي يكف كل الدوافع والنزعات الجبلية ويعطي الفرصة لنشوء المنعكس الشرطي الجديد. ربما يكون من المؤسف أن نجد شريحة كبيرة من البشر لهم مثل هذا اللحاء الضعيف الذي لا يقاوم النزوع العدواني، وإذا كان هذا صحيحاً، في الاختبارات التي أجريت لاحقاً - فإنه يجعلنا متشائمين بعضاً من التشاؤم أمام امكانية زرع العادات الحسنة الرادعة للميل العدواني. وإذا كان هذا صحيحاً أيضاً، فإننا مطالبون بابتكار طرق جديدة للتعلم الشرطي وتحسين وسائل التدعيم بغية تنشيط هذا اللحاء الضعيف وجعله قادراً على تكوين مراكز كافة وكابتة للميل الفطري لمراكز ما تحت اللحاء. ربما يكون مفيداً أن نذكر الروس أحد الباحثين المعاصرين إشارة إلى أن مراكز الثواب ومتقبلات الاطراء والمجاملة

الاجتماعية المنعشة تنتشر في منطقة الهايبوثالموس وأجزاء من الجهاز الحافي Limbic System ، بينما تنتشر مراكز التقبل النقدي والتهيؤ الفردي غير الحساس للتوجيه واللوم في لحاء الدماغ وخاصة في المنطقة الأمامية منه، كما يقول هذا الباحث إن مراكز تقبل المدح أكثر عدداً من مراكز تقبل النقد والذم. ولهذا - وحسب تعليل هذا الباحث - يميل الفرد إلى تقبل المدح بكم وكيف أكبر من تقبل النقد والاجتراح. يساعد على ذلك وجود لحاء ضعيف التكوين لا يستطيع التقليل من نشاط مراكز ما تحت اللحاء. وإذا كنا بحاجة إلى ايضاح سريري لمثل هذه الاشارة التي أبداها الباحث، فلدينا حالة العصاب. فالشخص العصابي والهستيري بالذات ميال إلى ارضاء مكامنه الدماغية الفطرية المحرومة بالكلام اللطيف والنفاق الاجتماعي المعوض لحالة مفتقده لديه من حالات المديح والانتشاء. فلحاء دماغ العصابي لحاء ضعيف تهيمن عليه الدوافع الفطرية والاستجابات الانفعالية النشيطة لمراكز ما تحت اللحاء القوية البهيمية النزعة. وهكذا يبدو لنا أن النزوع العدواني في ضوء نظرية بافلوف هو استجابة سلوكية لدافع فطري غير مشروط في مراكز الجهاز الحافي يتزامن مع وجود لحاء ضعيف لا يستطيع أداء عملية الكف.

الحالة العدوانية والفحص السريري

أن الفرد الذي يتعرض لموقف يتوجب عليه فيه ابداء عدوان معين، يتعرض لكثير من التغير في عمليات جسمه العصبية والفسلجية. فعند التعرض لمثل هذا الموقف فإن اثارات الاحساس الخاصة(Sensory Signal)s بإثارة مثل هذا السلوك سرعان ما تصل إلى أحد المراكز تحت لحاء المخ وبالأخص(الهايبوثالموس). وفي عملية معقدة تجري لتحليل وتقييم نوع تلك الاستجابة وشدتها في مراكز خاصة في الهايبوثالموس، تنبعث الاستجابات على

شكل سيالات (Transimeter) هرمونية وكيماوية وكهربائية إلى مراكز تنفي تلك الاستجابات كالعضلات وأعضاء الجسم الأخرى الحشوية والعضلية الخارجية. وإن لمن الأساس في الموضوع أن نذكر أن الجهاز العصبي الذاتي Autonomic Nervous System هو الذي يتحكم بالتغيرات الفسلجية أثناء النوبة العدوانية. وفي نوبة من نوبات السلوك العدواني، يزداد افراز الادرينالين في الدم، وعندما يصل هذا الأخير إلى الكبد، يجعل السكر ينساب إلى المجرى الدموي العام وترتفع نسبة السكر العائمة. ومن الملاحظات السريرية التي شوهدت في عديد من الأفراد أثناء ممارستهم لسلوك عدواني أو مرورهم بحالة من حالات الميل إلى ابداء العدوان، نذكر ما هو مهم منها :-

(١) تغيرات تجعل الدم ينجمد بسرعة: ولقد لوحظ أن عوامل الدم المسؤولة عن ظاهرة التخثر (الأقراص الدموية) وبعض المعاملات تزداد عدداً وتزداد قابلية جدرانها على الالتصاق فيصبح السائل الدموي أكثر لزوجة وأكثر ازدحاماً بهذه الأقراص مما يجعله عرضة للتخثر واعاقة المجرى الدموي في الشرايين المتوسطة والصغيرة خصوصاً، وكثيرة هي الحالات التي سجلت لاحتشاء العضلة القلبية أو الجلطة الدماغية في الأفراد الذين يتعرضون لميل عدوان شديد أو اثارات هياجية مستمرة شديدة.

(٢) زيادة ضغط الدم: إن من الأمور التي أصبحت ملموسةً علمياً وعملياً أن هناك علاقة واضحة بين قياسات الضغط الدموي والحالة العدوانية للفرد. وتشرح نظريات كثيرة سبب هذه العلاقة، فيقول بعضها بوجود علاقة هرمون الادرينالين بالاثارة والذي يساعد بدوره على رفع ضغط الدم. ويقول البعض الآخر بعلاقة الـ ستيرويد. كما يعزو قسم منها وجود علاقة بين اختناقات الكلية أثناء الحالة الانفصالية، نتيجة تقلص الشريان الكلوي وتشعباته بتأثير الجهاز الذاتي وبين افراز مادة الرنين (Renin) وتحولها، أيضاً، إلى مادة الانجيوتنسين التي ترفع درجة الضغط الدموي.

(٣) زيادة سرعة النبض: وذلك نتيجة واضحة لازدياد الفخّ القلبي للدم الذي أصبح يجد أمامه صعوبة في التدفق نظراً لتقلص الأوعية الدموية.
(٤) اتساع أو تضيق الممرات الهوائية للرئتين: ويتوقف اتساع تلك الممرات أو تضيقها إلى كيفية وكمية افراز مادة الهستامين عبر المجرى الدموي ولا يخفى ما لهذه المادة من أثر في عمل هذه الممرات التنفسية.
(٥) اتساع حدقة العين: وعندما ينشط الجهاز الذاتي، يؤدي نشاطه إلى توسيع حدقة عين الفرد المتهيج كثراً. وهذه الاستجابة تشاهد كثيراً في الحيوان والانسان على السواء عند تهيؤ الكائن للقيام بالعدوان أو خلاله، وتحتاج حدقة العين إلى مدة قد تمتد إلى ساعات لرجوعها إلى حالتها الطبيعية.
(٦) افراز العرق: وهذا مثال آخر لنشاط الجهاز الذاتي الذي يزيد من إفراز الغدد العرقية ويساعد على فتح فنيواتها مما يؤدي إلى ظهور افرازها العرقي.
ولقد أدى الاهتمام الذي أبداه فريق كبير من الباحثين في العدوان البشري إلى محاولة هؤلاء ايجاد وسائل مختبرية حاولوا بوساطتها اختبار التغيرات الفسلجية التي تطرأ على الانسان عند مروره بحالة اعتداء أو تهيؤه لابداء موقف عنيف. والأجهزة التي تم ابتكارها والتي استخدمت - بعد التوسع في تطويرها -في أغراض أخرى، هذه الأجهزة كثيرة ونأتي على ذكر بعضها وذكر طريقة الاستفادة منها في دراسة الحالة العدوانية في الفرد.
(١) جهاز تخطيط الدماغ الكهربائي=(E.E.G) - ELECTOR Encephalography أدى إلى اكتشاف امكانية قياس الموجات الكهربائية التي يصدرها الدماغ وتدوينها على ألواح وأشرطة التجارب، دوراً كبيراً في تقدم أبحاث فسلجة الجهاز العصبي. فقد أصبح معروفاً أن هناك موجات Waves تحدث في لحاء المخ بنشاط كهربائي معين. وقد اكتشف بيرجر عام ١٩٢٥م هذه الموجات. وقد تم تسجيل النشاط الدماغي في أوضاع متعددة وحالات نفسية كثيرة وأمراض نفسية متعددة شائعة. عندما يتعرض الفرد لمثير خارجي أو داخلي

بدرجة يستطيع فيها أن يبدي عدواناً، تتغير صورة المخطط الكهربائي لدماغه، وأول شيء نلاحظه هو اختفاء أو قلة موجات ألفا Waves الشائعة في حالة الهدوء، وتبدأ موجات بطيئة كموجات ديلتا وثيتا بالظهور بكثرة في المخطط.

(٢) جهاز الاستجابة الجلفانية: عند ابداء الفرد لميل عدواني، بسبب اثارة ما، تطرأ تغيرات غدية كثيرة. ومن بين تلك التغيرات نشاط الغدد العرقية وزيادة نسبة العرق في الجلد. ويؤدي ذلك إلى تغيير في خواص الجلد الكهربائية. ونتيجة لذلك فإن التيار الكهربائي الذي يمكن تمريره على جلد الفرد الخاضع للتجربة بواسطة هذا الجهاز، يبدي تغيراً كلفانياً ملحوظاً عن الحالة الاعتيادية له.

(٣) جهاز تخطيط القلب: عند مرور الفرد بحالة هياج، سرعان ما تتسارع نبضاته، ونستطيع قياس هذا المعدل الانفعالي بوساطة جهاز تخطيط القلب.

(٤) جهاز كشاف الكذب: ربما كان مجال استخدام هذا الجهاز الذي صمم لأجله، غير حالة العدوان، ولكن وجد أنه يمكن الاستفادة منه في هذا المجال. وهذا الجهاز يقيس في نفس الوقت الاستجابة الجلدية الجلفانية وضغط الدم والتنفس. ويستطيع هذا الجهاز أن يقدم معونة كبيرة بجانب الأجهزة الأخرى في قياس الحالة العدوانية وتقدير الوضع السريري لها في الفرد.

الفصل السادس
العدوان والنوم

مقدمة

النوم جزء مهم في السلوك البشري، وبوساطته يكتسب الكائن قدرة ونشاطاً ملموساً وبه يستطيع معاودة حيويته ويجدد مداومة فعاليته التي افتقدها قبل لجوئه إلى هذه العملية السلوكية. لقد أولت الدراسات والبحوث المختبرية هذه الناحية السلوكية، أكبيراً من اهتمامها. وأنتجت قياسات أمواج الدماغ ومقارنتها في حالتي النوم واليقظة نماذج مختلفة لتخطيط الدماغ، وبوساطة هذه القياسات أمكن تمييز حالة النوم كما أمكن دراسة المراحل المتعددة التي يمر بها الكائن أثناء النوم واختلافات كل مرحلة عن الأخرى في الموجات الكهربائية والتغيرات الفسلجية في الجهاز العصبي وما يرافق ذلك من اختلافات الحالة السريرية كتغيرات التنفس وضغط الدم وحرارة الجسم وحركته. وفي عام ١٩٥٠ دللت أبحاث آسيرنسكي وديمنيت وكريتمان أن عملية النوم تتألف من سلسلة من المراحل تختلف نوعياً وتحدث بدورية منتظمة خلال الليل. واحدة من هذه المراحل تتميز بحركة العين السريعة التي يمكن ملاحظتها تحت جفن النائم عند رفعه، كما تتميز بارتفاع في درجة الحرارة وازدياد عملية الأيض ونموذج كهربائية الدماغ الفولتي. وتسمى هذه المرحلة بمرحلة النوم ذي حركة العينين السريعة. أما في المراحل اللاحقة والتي يزداد النائم فيها في نومها عمقاً فتقل حركة العين وتختفي درجة الحرارة ويقل نشاط الدماغ الكهربائي ويمرّ النائم في هذه المراحل بأجزاء عميقة ومتدرجة في عمقها ولذلك فقد قسمت لأغراض البحث والدراسة على أربعة أقسام: الأول والثاني والثالث والرابع، وعند بدء عملية النوم، يمر الفرد بمرحلة النوم العميقة المتدرجة في أقسامها: الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع. وبعد ٧٠ - ١٠٠ دقيقة يدخل النائم مرحلة النوم ذي حركة العين

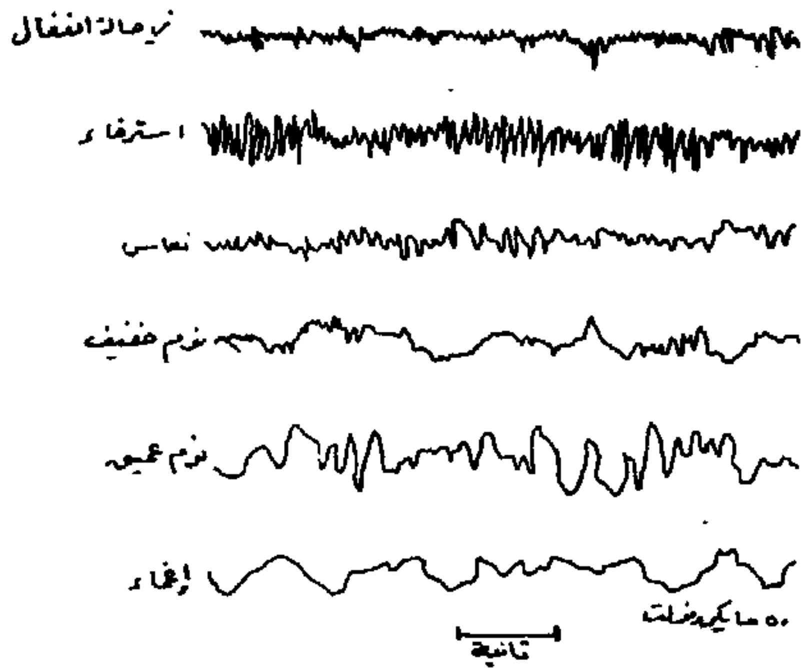
السريعة. بعدها يدخل القسم الأول ثم الثاني ثم الثالث وربما الرابع من مرحلة النوم العميق ليعود بعدها إلى مرحلة النم ذي حركة العين السريعة . . وهكذا . يتأرجح بين المرحلتين التي أشرنا إليهما دورياً. تشكل مرحلة النوم ذي حركة العين السريعة نسبة ٢٠ - ٢٥٪ من مجموع فترة النوم الكلية . إنّ مرحلة النوم ذي حركة العين السريعة تمتاز كما قلنا بمزيد من الفاعلية والنشاط الأيضي للفرد . وتنشط كهربائية الدماغ خلالها نشاطاً ملموساً وتنتشر موجات سريعة كموجات بيتا بينما تقل موجات ديلتا وثيتا. والأحلام التي يراها الفرد خلال هذه المرحلة تمثل حالة واعية يتذكرها النائم ويستطيع استرجاعها وروايتها عند اليقظة .

أثر الحالة العدوانية على عملية النوم

ربما يكون من المفيد أن نقرر أن الفرد الذي يكون مهتاجاً وعلى درجة كبيرة من الغضب والتوتر، كثيراً ما يجد صعوبة في الخلود إلى النوم وكثيراً ما يواجه اضطراباً في استمرار عملية نومه فيأتي متقطعاً مضطرباً ويقل زمن نومه المعتاد . وقد اهتمت دراسات كثيرة بايجاد أسباب فسلجية لهذه الظاهرة وحاولت ربط حالة النزوع العدواني بعملية النوم. تقول أبحاث المدرسة السوفيتية أن الأفراد الذين يعانون ضعفاً في تكوين اللحاء المخي وخصوصاً في المنطقة الجبهوية منه، تنشط مراكز ما تحت اللحاء عند حدوث شيء من التوتر والاضطراب كما ينشط القسم القذالي تحت اللحاء أيضاً. وفي هذه الحالة لا يقوى اللحاء الضعيف على مقاومة استثارة المراكز تحته مما يؤدي إلى خلق حالة هياج تجعل النوم متعذراً. وربما تحققت الساعات الأولى بفعل عملية الكف التي يقدمها اللحاء فتحدث حالة نوم قصيرة وفيها وأمام هذا الضعف الواضح في اللحاء وضعف قدرته على كف حالة الاثارة، يقوم الشخص بكثير من النشاطات في نومه بفعل المراكز النشيطة، وتحاول هذه الأبحاث أن تشرح وفق هذه النظرية حالة التجوال الليلي

somnambulism التي لا تعدو كونها حالة شبه واعية يضعف فيها اللحاء وتؤدي المراكز الباقية دورها، فيتحرك النائم من مكانه. تخفف من النزوع العدواني وتعمل بمثابة افراغ للنزعة العدوانية التي قد يمارسها الفرد في حالة اليقظة. وقد أوردت تلك الأبحاث حالات لبعض الأفراد القائمين بالتجوال أثناء النوم حيث مارسوا فيها ارتداء ملابسهم وأسلحتهم الشخصية ومثلوا أدواراً قد تفصح عن ميلهم لارتكاب جريمة ما أو عمل عنف من نوع معين. وربما أدى هذا النشاط (النائم) إلى تخفيف الميل الجرمي للفرد أثناء ساعات يقظته اللاحقة. كما يؤدي ضعف اللحاء إلى استعداد النائم للكلام واصدار العبارات التي تفصح عن رغباته بشكل هذائي - واضح أحياناً - وقد تم تسجيل الكثير منها وقورن محتواها مع محتوى تاريخ الفرد فوجد أن هناك علاقة بين الأحداث التي يتناولها النائم بشكلها الهذائي وبين مجريات حياته وتاريخ علاقته بالأشخاص والأحداث التي يمر بها ويعتقد هذا الفريق الباحث أن هذا النشاط اللفظي يعبر عن آلية اسقاطية للفرد يفرج بها عن نزوعه العدواني ويخفض من التوتر الذي ربما يقود لاحقاً إلى عمل عدواني واضح. ويؤشر باحثون آخرون مخططاً كهربائياً للدماغ في مختلف حالات الوعي واليقظة والنوم، يبين ظهور موجات بيتا السريعة الواطئة في حالات الانفعال والتهيج وظهور موجات ألفا في حالات الاسترخاء وتباطؤ الموجات في حالات النوم العميق أما في حالات النوم ذي حركة العين السريعة فتعود الموجات السريعة فتعود الموجات السريعة إلى الظهور وتتشابه في سرعتها وارتفاعها موجات بيتا التي ترافق حالات الانفعال.

ونلاحظ هنا أن الموجة تخضع في قياسها للشدة والذبذبة، وتؤشر الشدة النشاط الكهربائي وشيوع المجال. ويعتبر المعدل «٥٠ مايكروفولت/ ثانية» معدلاً ثابتاً للقياس. إن الذي يهمنا في هذا ملاحظة نوع الموجات الكهربائية



مخطط كهربائي للدماغ في مختلف حالات الوعي واليقظة والنوم. ويبين ظهور موجات بيتا السريعة الواطئة في حالات الانفعال والتهيج وظهور موجات الفافي حالات الاسترخاء وتبطؤ الموجات في حالات النوم فتظهر موجات دلتا البطيئة والعالية في حالات النوم العميق اما حالات النوم ذي حركة العين السريعة فتعود الموجات السريعة إلى الظهور وتشابه في سرعتها وارتفاعها موجات بيتا التي ترافق حالات الانفعال في دماغ الكائن المنفعل المثار بالمقارنة مع ما هو عليه في حالة الهدوء أو النوم أو الاغماء وكلما أسرعت الموجة في ذبذبتها وكلما انخفضت في منحنياتها (Spikes).

استمرار عملية التبول بشكل سلس بولي Nocturnaleneursis في مراحل الطفولة المتأخرة وأوائل المراهقة، ربما يمكن اعتباره رمزاً لحالة رفض لا يقوى. اللحاء الضعيف على منع آلية حصوله فتعمل المراكز الناشطة والمستفزة في مثل هذا الفرد العصابي التكوين على احداث مثل هذا العمل الخاطيء سلوكياً.

العدوان والأحلام

الحلم عملية عقلية واعية يمارس فيها الفرد مختلف الألوان من السلوك ضمن عملية واحدة تنبعث من كوامن اللاشعور مروراً بمرحلة متوسطة هي مرحلة ما قبل الشعور. ويمارس الفرد النائم هذه العملية السلوكية في كل مراحل نومه العميقة والسطحية. ولا يتذكر في الغالب إلا ما يمر به في مراحل النوم ذي حركة العين السريعة. وتشرح مدارس كثيرة عملية الحلم وعلى الرغم من أن الأساس الفسلجي الحقيقي للحلم غير معروف على وجه الوضوح، إلا أن الدراسات التحليلية تتبنى فكرة أن الحلم هو عملية واعية لمخزون غير واع. وعلى ضوء هذه المناظرة، يصبح الشكل الخارجي للحلم عملاً واعياً قابلاً للتذكر ومحتواه ذو رموز وتعبيرات لتجارب طفلية غير مشبعة. وترى المدارس التجريبية أن الحلم عمل فكري ينشأ مثل بقية الأفكار التي تدخل بنائها الذاكرة والمشاعر والعمل العقلي في مراكز ما تحت اللحاء. وعند النوم، يبطل العمل الكاف للحاء وتتبلد نواقل الحس وتسري عملية الكف إلى اللحاء، فيتيّسر المجال أمام المراكز النشيطة لما تحت اللحاء لتسريب المخزون الفكري بعملية حلم واعية. وقد أجريت بعض التجارب لمنع حدوث مرحلة النوم ذي حركة العين السريعة في بعض النائمين بايقاظهم باستمرار في الزمن المتوقع لحدوث المرحلة دورياً وذلك لمنع حصول الحلم فوجد أن هؤلاء الأفراد يتحولون عند اليقظة إلى حالة من الهياج والتوتر والاضطراب والميل الحركي والقيام بأعمال عدوانية باسقاطها على ما حولهم من أفراد وأشياء. إن الحلم كما قلناه تعبير عن رغبات لم تتحقق، يحققها النائم في حلمه. ويمكن أن تمر تلك الحالة العقلية بكثير من التحولات والتحويرات التي تتخذ صفة الآلية الدماغية كدفاعات التحوير والتبديل والتسامي والتكثيف وكلها دلالات رمزية لحدث معين. وعند إجراء التحليل النفسي لحالة حلم عند شخص ما تجد حالة ترابط وثيق بين محتويات حلمه ومواقفه العدوانية واحباطاته في حياته الواعية. ويلعب الحلم - كعملية عقلية - دوراً كبيراً في افراغ النزوع

العدواني عند الفرد فيسقط الكثير من عمله الذي لا يستطيع تنفيذه لسبب أو لآخر في عـملية حلـم. وتختلف محتويات الأحلام باختلاف حالات وطباع الأشخاص الحالمين. فالشخصية العدوانية أو التي تتعرض لمواقف احباط نجد أحلامها مليئةً بالصور الصاخبة ومواقف القتل والاعتداء وصور الحيوانات المفترسة وتعبيرات الدماء والجروح. كما نجد في أحلام المحبطين والمفتقرين إلى الحنان والدفء. . صور التسكع على أبواب الحنان مرموزاً إلى ذلك في صورة عبد وسيد، مالك ومملوك، أو قاتل ومقتول. ويعتقد الكثير من الباحثين بعلاقة الحالة العدوانية بالحلم، إن الافراغ للشحنة العدوانية الذي يتم أثناء الحلم يقلل من حدة التوتر ويخفضها ويقلل بذلك من الميل العدواني للفرد. وتلعب الأحلام الجنسية بما في ذلك أحلام الاستحلام وخصوصاً عند المراهقين دوراً كبيراً في خفض العدوان المرتبط بالجنس واثاراته في الحياة العملية. ولقد وجد أن الكوابيس الليلية لا تعدو كونها أحلاماً ضاغطة تحمل صفة الانفجار والصخب في حالة النائم؛ وتمثل في غالبها رمزاً اقساطياً لموقف احباط شديد تعرض له الفرد واتخذ منه موقفاً عدوانياً. كما أن حالة الرعب الليلي التي يتعرض لها الأطفال والمراهقون المبكرون، حالة شديدة من حالات الاسقاط العدواني التي يوفرها الحلم كعملية واعية. إن الترابط بين مرحلة النوم ذي حركة العين السريعة والانتصاب القضيبي يشرح التلازم بين الاساس النفسي والاساس الفسلجي لعملية الحلم. والانتصاب القضيبي يحدث بدقائق قبل حلول مرحلة النوم ذي حركة العين السريعة وربما دلَّ ذلك على وجود علاقة ميكانيكية أو فسلجية بين الانتصاب وعملية الحلم. خلال مرحلة النوم ذي حركة العين السريعة يحدث ارتخاء في الشد العضلي مع توترات مفاجئة في العضلات بين مدة وأخرى لا ينظمها زمن معين خصوصاً في بداية مرحلة النوم هذه وهذا يشرح ما ذهب إليه فرويد عند اشارته إلى حالة الترهل الحركي الذي يسمح بانسياب الأفكار المكبوتة والرغبات المحجمة في عملية عدوانية يعبر عنها الحلم.

الفصل السابع
العدوان والألم

مقدمة

يقرر علم النفس المعاصر، والفسلجي خاصة، إن الألم، بأبسط تعريفاته، هواستجابة الكائن الحيوية الطبيعية لمثير داخلي أو خارجي يحاول احداث خلل في حالة التوازن التي يوجد عليها الكائن والتي بدونها يتعرض إلى تغير في حالة الأيونية والعضوية والكهربائية مما يؤدي إلى اختلال في وظيفتها ووضعها خارج الدائرة الفسلجية المقررة لعملها. وبذلك تعمل هذه الاستجابة - الألم - بمثابة ساعة دقاقة منبهة إلى مكامن وزمن المثير المحدث لمثل هذا الخلل فيتولى الكائن الخلاص منه أو من أثره. وكما قررت الأبحاث هذه الاستجابة، فقد التفتت إلى ما يصاحبها أو ما ينتج عنها من انفعال خطير في الكائن قد يتحول إلى نزوع عدواني يبديه هذا الكائن ويخضع في هذا التحول لطبيعة وشدة الألم ومدته.

أثر الألم على الحالة العدوانية

في الكثير من المواقف الحياتية التي نتعرض فيها للألم الجسمي نتيجة الاصابة بمرض أو التعرض لحادث خارجي أو عند احساسنا بالألم النفس الناشيء من اكتئاب أو قلق؛ نتحول إلى عناصر مهتاجة، مستفزة، يتملكنا ميل عدواني نقوم باسقاطه على الوسط الذي حولنا. ويفسر علم النفس المعاصر نشوء النزوع العدواني نتيجة للألم الجسمي أو النفسي وفق الافتراضات التالية.

(١) ميل الكائن اللاشعوري إلى استخدام اليات دفاعه، جميعها أو بعضها بشدة لتوفير قدرة كبيرة للخلاص من موقف الألم فيستخدم آلية الكبت أو آلية الاسقاط أو آلية التسامي، وكل هذه الاستخدامات يمارسها بميل عدواني واضح على المحيط وعلى المثير للتخفيف من الوقع المباشر للمثير وبالتالي للتخفيف من الألم

كاستجابة.

(٢) نشاط لحاء الكائن عند الألم بتوفير عملية كف شديدة للعناصر المثارة في مراكز ما تحت اللحاء مما قد ينتج حالة اثارة شديدة في نشاط الغدد الصماء وفق قاعدة التغذية الحيوية الراجعة مما يخلق نشاطاً ظاهرياً في الحالة الهرمونية وبضمنها الهرمونات الجنسية ويتزامن مع ذلك ميل عدواني في الكائن. إن من الظواهر التي أثارت انتباه بعض الباحثين ظاهرة تصاحب الألم مع اللذة وقد وجد أن كثيراً من المواقف المثيرة للألم تثير جانباً من اللذة قد تفوق الألم ذاته حتى أصبح معروفاً أن للألم لذة مثلما للذة ألم. ويشير بعضهم إلى أن الكائن البشري عنصر باحث عن الألم. إن لم يجده بخلقه.. أو يخلق ما يحققه.. ربما بادراك لاشعوري أن الألم هو أحد مثيرات العدوان وبوجوده يتم استحداث حالة الفرد العدوانية وهذا ما يحقق التوازن الذي فطر عليه هذا الكائن(اثارة الجانب الجبلي الغريزي من العدوان في النفس). وتشرح نظرية الجدل المادي أن التوازن الفسلجي حالة باحثة عن النقيض وسرعان ما تجد الألم كنقيض لها، تدخل معه في صراع ينتج عنه العدوان كسلوك مجمل. وكانت أولى الأساسات في فكر فرويد هي افتراضه وجود غريزة الهدم والتحطيم Thanatos وغريزة اللذة والبناء EROS، وكلتا الغريزتين في نشاط وعمل دائمين.

يقرر ميركسي عام ١٩٦٨م أن الألم الذي يعانيه مريض الفصام ناتج عن المحتوى المؤلف للهلوسة المسموعة أو المرئية من قبله. وأن نزوع العدوان الذي يمارسه الفصامي على المحيط هو اسقاط لما كان يمارس عليه من قبل مضطهديه(أشخاص، أحداث.. الخ) في عملية الهلوسة التي تنتابه، فتكون الاستجابة العدوانية في الفصامي بذلك نتيجة لمثير الألم المستلم من عناصر الاثارة في الهلوسة. ويذهب كريكك(عام ١٩٧٨م) إلى اقامة مقارنة بين تعامل الفصامي تجاه الألم وتعامل الرحامي(الهستيري) تجاهه. فبينما يشعر الفصامي بميل إلى العدوان على المحيط المسبب للألم في حياته ومسيرته، قد يجد الرحامي

كرمزٍ عصابي لذةً في الاستجابة للألم النفسي الذي أدى إلى خلل في وظائف أعضائه كشلل الأطراف أو العمى أو الصمم وذلك لأن في الاستجابة لمثل هذا الألم استثارة لمشاعر العطف والاكتساب الثانوي لعواطف المحيط الذي يعمل بمثابة مدعم لاستمرار مثل هذا السلوك، وبذلك يعمل الألم الهستيري كمبطل العدوانية الرحامي، على عكس الألم في حالة الفصامي الذي يعتبر مثيراً لحالة عدوان شديدة.

أثر الحالة العدوانية على الاحساس بالألم

من الحقائق الفلسجية التي أثبتتها الدراسات التي أجريت منذ مطلع هذا القرن أن الجسم البشري يملك القدرة على الاحساس بالألم الذي يحدثه وجود مؤثر خارجي أو داخلي وينتقل أثره عبر الأعصاب الناقلة للحس من أجزاء الجسم المختلفة إلى مراكز الاجابة في الجهاز العصبي المركزي بقسميه: المخ والحبل الشوكي. ومن الحقائق الأخرى التي تم اثباتها أن ليس كل اثارة خارجية أو داخلية قادرة على إحداث الألم. فإذا لم تصل الاثرة إلى المقدار الذي يساوي أو يفوق ما يسمى بعتبة الألم (Pain Threshold) لا يمكن أن نسمي الظاهرة إحساساً بالألم. ولدينا كثير من الحالات التي هي تحت الدرجة السريرية (لأنها تحت عتبة الألم). وعند الحديث عن هذه العتبة يجدر بنا أن نذكر أنَّ لكل عضو من أعضاء الجسم عتبة ألم خاصة به، فعتبة الألم في أمراض أو اضطرابات المعدة غير عتبة الألم في الجلد وعتبة الألم في قرنية العين غيرها في اصبع القدم. كما أن عتبة الألم لعضو معين تختلف من شخص إلى آخر، فتكون واطئة (أي أن مقدار تحسّس الفرد بالألم عالٍ) في شخص وقد تكون عالية (أي أن مقدار تحسس الفرد بالألم واطيء) في شخص آخر. ولقد ثبت أن الاضطراب العاطفي والانفعال الشديد الذي قد يمتد إلى حالات الغضب والهياج أو نقل الكائن إلى موقف استعدادي للقيام بعمل عدواني، وجد أن مثل هذه الحالة ترفع كثيراً من عتبة

الألم ويحتاج الكائن إلى مثير أشد أو إثارة أكبر لاحداث ما يمكن احداثه في حالة هدوء هذا الكائن وإذا كنا في حاجة إلى الاسترشاد ببعض الأمثلة، فيمكن الاستنارة بحالة الجندي المثار في ساحةّ المعركة (وهو في حالة كبيرة من الغضب) فمقدار احساسه بالألم أقل بكثير من مقدار احساسه بالألم الحاصل له في حالات الهدوء بعيداً عن جو المعركة. وذلك لأن عتبة الألم في جسم المقاتل المثار أعلى ولذلك فالحاجة إلى مثير أشد تصبح واجبة لاحداث احساس به من قبل الجسم. وفي مجال الألم النفسي، نجد أن الشخص المكتئب المحدود الحركة، المنعزل، المنحسر إلى داخله تنخفض فيه عتبة الألم انخفاضاً شديداً وتؤلمه مثيرات البيئة إلى الحد الذي يصل فيه إلى التذمر والمعاناة من الضجيج والأصوات العالية. بينما ترتفع عتبة الألم في الشخص الهوسي كثيراً ويتعرض إلى كثير من الجروح والكدمات ولا يأبه لذلك ولا تثير فيه التفاتاً إليها أو احساساً بها. وفي حالات الغيبوبة تحت الشعورية والاغماءات التي يمر بها الشخص الرحامي (الهستيري)، يحتاج إلى (جرعة) من الاثارة أكبر من الحالات الاعتيادية لكي يحس بالمثير ويحدث ما يمكن أن نسميه بالألم.

الألم والتغيرات الفسلجية

أثبتت الدراسات التي أجريت علي بعض الأفراد الذين تمت اثارتهم بدرجة كبيرة أن هناك تغيرات فسلجية تحدث في الجسم كازدياد كريات الدم البيضاء وزيادة لزوجة الأقراص الدموية وتوسع الأوعية الدموية وازدحام الدم في الجلد وازدياد افراز المعدة، ويقود تكرر هذه الاثارة إلى تعرض الانسان إلى الكثير من الأمراض في المعدة والقولون والربو القصبي والمفاصل. وهذا يؤكد حالة الارتباط بين وضع الفرد العدواني وظهور الأمراض الجسمية ذات الأساس النفسي التي سرعان ما تصبح وصفاً جديداً للمريض وتكون مبعث ألم مستمر يجعل الفرد باحثاً عن خلاص منه بالعلاج والتداوي.

الفصل الثامن
العدوان والوراثة

مقدمة

ربما تكون الكتابة عن علاقة العدوان البشري بالموروث البايولوجي للانسان من أخطر المحاولات العلمية وأجرأها إنْ لم تكون الأخطر والأجرأ. فالغوص في مثل هذا الموضوع ومحاولة الحصول على نتائج فيه يلعبان دوراً كبيراً في تقرير حقيقة الانسان والارتفاع به إلى مقام يبعده عن الحضيرة الحيوانية ويجرده من كل مواصفات الفطرة والجبلة البهيمية الاعتدائية، أو الانخفاض به إلى قرار متدن من الاندفاعية والغريزية، في مثل هذه المرحلة تسقط كل معالم الأخلاق وفضائل القيم الداعية إلى الوصول بهذا الكائن إلى مصاف الرقي والسلام والعيش بتواتر حضاري سامٍ بلا حرب أو عدوان..

وفي مثل هذه المرحلة أيضاً يصبح الانسان عرضة لاندفاع حاجاته الداخلية إلى الاشباع دون إعارة أقل اهتمام لوصايا المباديء أو تساميات الخير والترفع. فلنحاول إذنْ أن نكون دقيقين في دراسة العدوان في ضوء ما يتيسر لنا من معرفة بأصول الوراثة وأثر الخلفية البايولوجية الموروثة على السلوك العدواني البشري.

مدارس تؤيد العلاقة بين العدوان والوراثة

ظهرت دراسات كثيرة ومنذ مطلع هذا القرن، يؤيد أصحابها الطبيعة الموروثة للعدوان في الانسان، ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن النزعة العدوانية ناتجة عن عوامل جبلية موروثة لا يمكن الخلاص منها. وينسب هؤلاء السلوك العدواني إلى تلك العوامل، ويستند هؤلاء إلى عدة نظريات لدعم اتخاذهم هذا الميل إلى مثل هذا الموقف مثل:-

(١) نظرية الغرائز: يعتبر هذا الفريق في هذه النظرية أن الانسان يولد وتولد معه غرائزه ومن بينها غرائز الجنس والغضب مثلما هناك غرائز الأكل والشرب والسكن. وفي هذا يلتقي أصحاب هذه المدرسة مع مدرسة التحليل النفسي في أثر الغريزة في السلوك العدواني.

(٢) نظرية الأمراض النفسية: تقول هذه النظرية أن الأمراض النفسية والعقلية كالفصام والهوس والكآبة وبعض حالات العصاب والوسواس القهري، قد يرثها الفرد من آبائه وأجداده ويؤثر بها على أبنائه وأحفاده. ولما كانت هذه الأمراض تحمل في خَصائصها طابع الميل العدواني، فيحتمل أن يكون نقل الصفات الوراثية للمرض شاملاً لاجزائه من تلك الأعراض ومنها عرض العدوان.

(٣) نظرية الاختلاف الوراثي للتعامل مع الدواء: تقول هذه النظرية أن هناك اختلافاً في الأشخاص في نسبة تقبلهم لتأثير الأدوية كالليثيوم في داء الهوس مثلاً، فقد يستجيب له مصاب بزمن يختلف عن زمن استجابة مريض آخر، وتعتقد هذه النظرية أن هذا خاضع لقرار وراثي ويمكن أن ينتقل هذا الاستعداد لأجيال مقبلة. وكذلك الحال بالنسبة إلى ظهور الأعراض الجانبية لعقار معين. من هذه النظرية يستنتج أتباعها أن نسبة الشفاء من أعراض المرض النفسي بالأدوية التي توصف، تقررها الوراثة وليس الدواء ومن هذه الأعراض الميل أو السلوك العدواني الذي يعد عرضاً مهماً في كثير منها كالفصام والذهانات الاضطهادية والهوس.

(٤) نظرية الترابط بين الكروموسومات والسلوك: - تقول هذه النظرية إن الاضطراب الذي يصاحب انشطار الكروموسومات في الخلية الذكرية والأنثوية، يؤدي إلى ظهور كثير من الأمراض. فالمعروف أن في كل خلية ٤٦ كروموسوم. وزوج من هذا المحتوى هو كروموسومات جنسية. وهي في الأنثى XX وفي

الذكر XY . وتصطف الكروموسات في كل خلية في (٢٣) زوجاً ويرتبط كل زوج بشقية بالسنترومير . ويحدث أن ينفصل في (٢٣) فرداً من خلية الذكر ليرتبط بـ(٢٣) فرداً من خلية الأنثى لرتبط بـ(٢٣) فرداً من خلية الأنثى لتكوين الخلية الجديدة(المخصبة) . وعند الاخفاق في حصول الانفصال في أحد الأزواج الذكرية أو الأنثوية ، يهاجر أكثر من(٢٣) كروموسوماً إلى الخلية الأخرى ويصبح العدد (٤٧) بدلاً من (٤٦) من الخلية الجديدة . وهذا ما يؤدي إلى ظهور إنسان بمواصفات سلوكية تختلف عن السلوك السويّ(المعتاد) . ففي (تناذر كلاين فلتر) يولد الفرد المصاب بطاقة جنسية ضعيف وتخلف عقلي واضطراب شخصي قد يتشابه مع الشخصية الفصامية . ويمتاز هذا الكائن بانخفاض الدافع الجنسي وخمول الميل العدواني . وفي تناذر (تيرنر) يولد الفرد قصيراً وغير مكتمل جنسياً وذا مواصفات وذا طباع هادئة وغير ميال إلى الاعتداء أو العناد . بينما الخلية التي يكون من نصيبها (٤٧) كروموسوم بمواصفات XYY فيبدو أنهاتنتج فرداً عدوانياً، انفجارياً، ميالاً إلي الإجرام والقتل والاعتداء، ويكون طويلاً أو ذا طول وقليل الذكاء . وكثيراً ما أظهرت دراسة في مثل هؤلاء أنهم يميلون إلى العنف في مُدد كثيرة من حياتهم .

(٥) نظرية الخَرف الوراثي والنزوع العدواني في بعض الأفراد : وتوضح هذه النظرية حالة ظهور ذهان ما قبل الشيخوخة . ومرض بيك (Pick's disease) مثال لذلك، وقد لوحظ فقدان الكروموسومات في الخلايا البيضاء لبعض الاناث اللائي يعانين من تناذر الدماغ العضوي بشكل وراثي ، وظهور السلوك الاعتدائي بعمر متقارب في الأمهات أو البنات أو الحفيدات .

مدارس تعارض علاقة العدوان بالوراثة

ومثلما وجدنا كثيراً من الدراسات يؤكد أثر الموروث البايولوجي في ظهور السلوك العدواني في الانسان، نجد باحثين آخرين لا يميلون إلى اقرار مثل هذا الأثر، بل لا يعترفون بوجود مثل هذا الأثر أصلاً. وينضم إلى هؤلاء السلوكيون وعلماء الاجتماع. ويستند هؤلاء المعارضون إلى بعض النظريات التي تناقض هذا الاقرار كما يتوضح ذلك على الوجه الآتي :-

(١) يعتقد هؤلاء الباحثون أن العدوان سلوك نتائجي في طبيعته ولا يعدو كونه انفعالاً حاصلاً لعوامل داخلية أو خارجية. وبانطفاء أو اشباع مثل هذه الدوافع ، ينطفىء العدوان كظاهرة من الظواهر الفردية المحسوسة. فيقرون أن هناك دافع الجنس ودافع الجوع ودافع العطش. هذه الدوافع يؤدي عدم اشباعها إلى نوع من الاستعداء على الوسط. أو بعبارة أخرى يمثل العدوان السلوك الذي يبديه الكائن للحصول على سد حاجة هذه الدوافع بصيغة من صيغ العنف التي يستوجب ظهورها تحقيق مثل هذه الحاجة. وأن الانسان عند تحقق اكتفاءاته يتحول إلى عنصر مسالم. وأن هذه الدوافع مكونات فردية، تطلب فتجاب إلى طلبها ولا دخل للمورث. إنها مسألة تحاكم في الفرد ذاته بشيء من القطع التاريخي عن السلفية والتوريث. إن دوافع الابن أو اللجاجة فيها قد تختلف عن دوافع مورثه ولجاجته.

(٢) يجد هؤلاء أن الأمراض النفسية والعقلية هي اكتسابات بيئة، تحققها ظروف صعبة بعد ولادة الكائن، وأن هذه الأمراض ما هي إلا أعراض خاطئة في سلوك الانسان الذي لم يحقق له وسطه إشباعاً لحاجاته، وتزول تلك الأعراض(بل الأمراض) عند اختفاء الحاجة إلى الاشباع.

(٣) شفاء الأمراض واستجابة الفرد لها - في نظر هؤلاء - دليل على صحة مسؤولية البيئة عن احداثها. والفارق بين فردين في الاستجابة كامن في خطأ المعالجة. فلو أخذنا عقار الليثوم في علاج الهوس مثالاً، نجد أننا بتقديمنا

جرعة(٩٠٠) ملغم مقابل ٩٠٠ ملغم يومياً إلى فردين هوسيين، قد يُصحح الأول مساره المرضي بهذه الجرعة ولا يصححه الثاني. الخطأ هنا يكمن في الجرعة، فلو منح الثاني جرعة أعلى كـ ١٠٠٠ - ١٣٠٠ ملغم للأول لتحقق المطلوب في الحالتين في آن واحد. ويعزو هؤلاء هذه الاختلافات إلى تفاوت الوطأة البيئية المرضية على الاثنين وليس إلى استعداد مسبق لهما في تقبل المرض كحالة والدواء كعلاج.

(٤) يقول أصحاب هذه المدرسة إن اختلاف قدرات الآخرين عرقي يتبع قاعدة الأجناس ويتساءلون: من هو الطبيعي؟ وهل يصح اتخاذ أمثالنا قياساً لسلوك الآخرين وقدراتهم؟ فيعتقدون أن كل انسان وجد لبيئة تناسبه وأن الخطأ يكمن في وضع الفرد في مكان غير مناسب. فالمختلف عقلياً (إن صح التعبير كما يقولون) صالح لبيئة بمقدرات ومتطلبات أوطأ من بيئة يصلح لها غيره بمقدرات ومتطلبات أعلى. وأن السلوك العدواني الذي يبديه أمثال هؤلاء - حملة الكرموسوم الخاطئ - هو بمثابة احتجاج على عدم موافقة على البيئة غير المناسبة.

(٥) يؤمن هؤلاء بوجود نظرية العدم، ويعتنق كثير منهم مذهب الاعتقاد بوجود ساعة التوقيت البايولوجي Autogenic Rhythimicity لكل عضو من أعضاء الجسم. وأن ظهور الخرف في بعض الأمخاخ بوقت أبكر من غيرهم لا يحمل توقيتاً وراثياً مع أسلافهم بل توقيتاً بايولوجياً مع الفرد نفسه.

(٦) ويذهب هؤلاء إلى أن التصحيح للسلوك لا يشمل الانسان بل يشمل البيئة، ويضربون لذلك مثلاً الحيوان في صورتيه. الصورة غير الأليفة عند وجوده في ظروف لا توفر له الأمان والرخاء ومتطلبات الغذاء والصورة الأليفة عند احتوائه وتدجينه وتحويله إلى عنصر مشبع الحاجات. ويعتقد هؤلاء أن الانسان لا يخرج عن طبيعته الحيوانية فيمكن أن يكون هناك إنسان غير أليف كإنسان الغابات والأحراش والقطب وأليفٌ كانسان الحركة الفكرية الانسانية المعاصرة.

وجهة نظر

وجدنا أن لكل مدرسة أتباعاً ومريدين وعشاقاً. وما دمنا ونلتزم جانب المراقبة العلمية الأمينة، فلنتريث في الانحياز إلى احدى هاتين المدرستين، فإن لنا جولة أخرى مع العدوان البشري في القسم الثالث من هذه الدراسة وستتوضح أمور أخرى قد تكون في صالح فريق ولا تكون في صالح آخر.

الفصل التاسع
العدوان وأمراض الجهاز العصبي

مقدمة

لاحظنا في كل الفصول التي سبقت أن مناقشة حالة العدوان في الكائن البشري، في كل التجارب التي أجريت عليه أو على فصائل عديدة من حيوانات المختبر التي يمكن أن تعطي دراستها صورة قريبة من صور السلوك العدواني البشري، لاحظنا أن الموضوع يرتبط ارتباطاً مباشراً بطبيعة الجهاز العصبي والجملة العصبية؛ وأن هناك مراكز دماغية تكاد تكون مسؤولة - عند اثارتها - عن أحداث النزوع العدواني في الكائن وأن استقرارها الفسلجي هو السبب الرئيس في اختفاء أو اضمحلال مثل هذا النزوع. لهذا فمن المهم لدينا أن ندرس بعض الأمراض - والمهمة منها أو الشائعة - والتي يؤدي وجودها إلى احداث خلل في التنظيم الفسلجي الوظيفي للجهاز العصبي وبالتالي إلى اثارة مثل هذه المراكز لاحداث مثل هذا الميل العدواني في السلوك. وقد تقود هذه المحاولة إلى تشخيص سبب من أسباب السلوك العدواني وعندما يمكن معالجة مثل هذا المرض أو هذه الأمراض قد ينفتح بابٌ من الأمل للحدّ من ظاهرة العدوان في الكائن.

العدوان والصرع

حاولت مدراس كثيرة وضع تعريف محدد للصرع الذي عانى وما زال يعاني منه نفر غير قليل من الناس، وعلى الرغم من تشعب الدراسات حول هذه الحالة، فإن أياً منها لم يستطع أن يضع صيغة كافية موفية بغرض التعريف. فالقول بأن الصرع مرض لا يتفق مع الحقيقة الكاملة. والقول بأنه عرض، يقود إلى تصور وجود مرض آخر يكون الصرع أحد أعراضه. لكن قيام حالة الصرع لوحدها في الفرد يتعارض مع الاقرار بكونه عرضاً فقط وقد وضعت نظريات

عديدة تشرح أو تحاول أن تشرح ظهور هذه الحالة المرضية فهناك نظرية الاختلال الأيوني لأيونات الصوديوم والكلور والبوتاسيوم داخل الخلية العصبية وخارجها وهناك نظرية نشوء جزء ميت في النسيج الدماغي، لسبب أو لآخر، يعيق سريان الكهربائية الدماغية بما يكتمل به حدوث دائرة متكاملة. وهناك نظرية وجود مجموعة خلايا ناشطة كهربائياً تبث موجات ناشطة بين مدة وأخرى. . وهناك نظرية اللحاء الضعيف الذي يخفق في احداث عملية كف لنشاط المراكز الفعالة تحته. وهناك نظرية الاختلال الهرموني في الهايبوثالموس والغدة النخامية. وكل ما تقدم لا يعدو كونه افتراضات تقترب من الحقيقة ولا تؤكدها وتقترب من الصحة ولا تجزم بها جزماً صارماً. وبالاجمال يمكننا القول أن الصرع هو حالة من السلوك الشاذ عن المألوف في حياة الفرد، يحوله إلى حالة سقوط تشنجي ظاهر سريرياً أو يفقده الوعي لشيء من الوقت دون تشنج أو يعزل بصيرته عن الواقع ويفصله إلى عالم خاص به يقوم خلاله بعمل أو أعمال لا يعي ما هيتها ولا يتذكر أنه قام بها ولا زمن قيامه بها حين تذكر له، ومن الملاحظات السريرية التي دونت في موضوع الصرع، تلك التي تشير إلى أن هناك الصرع الكبير الذي يفقد فيه المريض حالة اتزانه ووعيه ويسقط أرضاً تعقبه حالة تشنج شديد في أطرافه وفكيّه وجسمه، يعض فيها على لسانه ويكدمه، ويزَبدُ فمه رغاءً ويتعرض جسمه للكدمات والرضوض والكسور دون وعي ويتبولّ دون علم، يخلد بعدها إلى النوم العميق وإلى معاناة ساعات طويلة من الصداع والآلام وغثاءات المعدة والتنفس. كما تشير تلك الملاحظات بالعديد من التغيرات كظهور النقط السوداء الطائرة أمام عينيه أو إحساسات التقيؤ أو رجفة جفن العين أو حركة عضلات البطن. . الخ وفي هذا النوع يفقد المريض وعيه لثوان. كما أن هناك الصرع الصدغي الذي يعزى وجوده إلى حدوث خطل أو خطّأ فسلجي في المنطقة الصدغية للمخ، وفيه لا يفقد المريض وعيه ولكنه يعيش حالة سلوك غريب وينتج أعمالاً - قد تكون أعمالاً مبدعة ورائعة - كما قد يقوم بأعمال شاذج وجرائم.

كما أن الفرد في حالة الصرع النفسي الحركي قد يعاني من المزيد من الاضطراب في السلوك والعمل الشاذ والميل إلى الهياج والاعتداء .

أثر الصراع على الحالة العدوانية

وجد أن الفرد الذي يعاني من الصرع، يبدي في أغلب الحالات ، ميلاً عدوانياً على المحيط وعلى نفسه، وقد يحدث ذلك قبل، خلال أو بعد النوبة . وقد حاولت الدراسات الفسلجية والنفسية والسلوكية وضع بعض الشروح لعلاقة الصرع بهذا النزوع العدواني، ومن أهم هذه الشروح :-

(١) لما كان الاختلال الأيوني لحالة الخلية العصبية ، بزيادة تركيز أيوني الصوديوم والكلور خارج غشاء الخلية وزيادة تركيز البوتاسيوم داخل محيطها(عكس الوضع الطبيعي للخلية)، يؤدي إلى ظهورهذه الحالة الصرعية(إحدى النظريات التي ذكرنا)، فقد يكون هذا الاختلال نفسه مسؤولاً عن تغير الحالة الفسلجية الوظيفية لخلايا اللوزة الدماغية والجهاز الحافي والهايبوثالموس وهنا يكون التغير الأيوني سبباً شاملاً لظهور الصرع والميل العدواني في وقت واحد .

(٢) قد يؤدي نشاط بعض المراكز الدماغية كهربائياً إلى حدوث عملية كفّ لمراكز اللحاء ويؤدي ذلك إلى شلّ نشاط اللحاء وبالتالي إلى اعطاء الفرصةإلى المراكز تحته لمعاودة النشاط العام وبضمنه النشاط العدواني .

(٣) تؤدي النوبة الصرعية - بسبب من أسبابها الفسلجية - حالة انعدام للاستلام الحسي من قبل المراكز الدماغية وتوقفاً مؤقتاً لنشاط التكوين الشبكي، مما يخلق حالة من الحرمان الحسي، وهذا الحرمان - طال أم قصر - يعد سبباً من أسباب النزوع العدواني .

(٤) تترك النوبة الصرعية اختلافات كثيرة في نسبة التركيز الهرموني ونسبة السكر في الدم والدماغ واضطراباً واضحاً في موجات الدماغ وهذا ما يؤدي إلى اختلال حالة الاستقرار في الخلايا . كما أن صمت الدماغ يعيق استلامه لقسطه الكافي

من الأوكسجين مما يحدث حالة اختناق مؤقت لمراكز ما تحت اللحاء ويثير تلك الخلايا بشكل يولد نشاطاً حركياً لدى الفرد ونزوعاً من التوتر والضيق المفضي إلى الاضطراب والهياج.

(٥) يؤدي فقدان الوعي الذي يصاحب النوبة إلى اختلال عملية التفكير وبروز حالات من التفكير الخاطيء تقود إلى كثير من ممارسات العنف.

(٦) يصاحب الصرع الصدغي حالة من انشطار الذهن وهو ما نسميه بحالة الهجاج وفيه ينفصل الفرد عن عالمه وقد يرتكب كثيراً من الجرائم - دون ادراكه - ويكون غير مسؤول عنها في وعيه.

أثر الحالة العدوانية على الصرع

أثبتت الدراسات السريرية إن كل فرد منا يملك ميلاً صرعياً بنوع من الأنواع وبدرجة من الدرجات. كما أثبتت مخططات الدماغ أنها مفيدة جداً لدراسة حالة الصرع في الكائن البشري. ولكنها - مع فائدتها تلك - لم تكن الفاصلة في القرار حول وجود الصرع أو عدمه. فنسبة من أدمغة أظهر تخطيطها سلامة من موجات الشاذة وبنسبة من ادمغة السليمين سريرياً أظهر تخطيطها وجود مثل هذا الشذوذ الذي يفسر لجانب الاصابة الصرعية. ولما كان اختفاء الحالة الصرعية فينا سريرياً يعي بالضرورة سلامتنا من الاصابة فإن ترشيح أي منا للميل الصرعي وارد ومحتمل. إن لدينا في الاحصاء الطبي ما يقرر ظهور حالة صرع لاحقة في حياة الفرد التي كانت إلي عهد قريب سليمة معافاة. ولقد وجد أن ظهور السلوك العدواني بشكل مزمن وتحول الفرد إلى حالة من الهياج والتوتر لأسباب مرضية أخرى أو لأسباب بيئية ضاغطة، قد يؤدي إلى ظهور الصرع. ونظنُّ أنه يمكن تفسير ذلك بتحول الحالة الصرعية من شكلها تحت السريري الكامن إلى شكلها السريري الظاهر. ولهذا فيمكن القول أن النزوع العدواني في الفرد يمكن أن يلعب دوراً في ظهور الصرع كحالة سريرية تتطلب العلاج والمتابعة: -

(١) قد توفر حالة الهياج والتوتر اختلالاً أيونياً وكهربائياً في مراكز ما تحت اللحاء ويؤدي هذا الاختلال إلى خلل فسلجي كاف لظهور الحالة الصرعية .
(٢) يتزامن الافراز الهرموني من الغدد الصمّاء مع حالة الهياج وهذا قد يؤدي إلى تنشيط الهايبوثالموس واللوزة الدماغية ويلعب دوراً في ظهور الصرع .
(٣) يضعف التركيز الذهني وتختل عملية التفكير في حالات الغضب الشديدة وهذا ما يوفر مجالاً خصباً للانشطار الذهني الذي يساعد على ظهور حالات صرعية .
(٤) تتطابق صفات الشخصية العدوانية عموماً مع كثير من صفات الشخصية(الصرعية) بما في ذلك : (أ) البعد والشذوذ عن المألوف Eccentricity (ب) فقر الانفعالات (جـ) شدة الحساسية (د) عدم القدرة على تغيير الاتجاهات Rigidity .

العدوان والضعف العقلي

يشير اصطلاح الضعف العقلي إلى نقص في الحد الأدنى من الذكاء العام اللازم لحياة الفرد الراشد حياة مستقلة . ومن القدرات التي تشملها اختبارات الذكاء : اختبارات الطلاقة اللفظية والمفردات والكفاءة الحسابية والتفكير المنطقي واختبارات الفهم البصري للأشكال الهندسية . ولا شك أن للعوامل الجسمية دوراً كبيراً في نشأة الضعف العقلي ، ففي معظم الحالات ، يكون المخ مصاباً ببعض الجروح . وفي حالات أخرى تلعب العوامل الوراثية والكيماوية والنفسية والاجتماعية دوراً في اظهار الضعف العقلي . ولقد وجد أن الضعف العقلي هذا بمختلف درجاته يحدث خللاً كبيراً في شخصية المصاب ويؤدي إلى تدهورها بشكل واضح . وفي حالات كثيرة من حالة الضعف العقلي ، يتحول الفرد المصاب إلى عنصر عدواني تعتوره حالات من الهياج بين مدة وأخرى ويبدي مزيداً من الأذى ومظاهر العنف تجاه الوسط الذي يعيشه ، وربما تستطيع بعض

الافتراضات الفسلجية أن تقيم علاقة بين عدوان الفرد واصابته بالضعف العقلي :-

(١) يؤدي الضمور الدماغي إلى اختلالات في الافراز الهرموني للهايبوثالموس والغدة النخامية وبالتالي لبقية الغدد مما يترك جانب الاستثارة والاستجابة للمثير غير منتظمين، وعرضة للشذوذ والابتعاد عن الاطار المألوف .

(٢) يعاني أغلب ضعاف العقول من اختلال في وظيفة الجهاز التناسلي ولا يخفى ما لترابط الجنس والعدوان من أهمية ودور فاعل في ظهور العدوانية الفردية .

(٣) يعوض ضعيف القلب عن اخفاقه في مجال القدرة العقلية بالهجوم على المحيط ويحاول أن يسد بعدوانيته جزءاً من الخلل الذي يعانيه .

(٤) يؤدي الضعف العقلي إلى ميل الفرد إلى العزلة والقطيعة الاجتماعية وذوبان الذات، في داخله، ولا يخفى ما للعزلة من أثر بالغ في ظهور النزوع العدواني كما أسلفنا .

(٥) تمتلىء مخيلة الضعيف عقلياً بالأفكار الساذجة والهذاءات التي سرعان ما يمكن تحولها إلى نوع من الشكوك والأوهام واستشعار العدوان من قبل الوسط، فيقوم باسقاط العدوان على المحيط باعتباره المسؤول عن هذا العدوان بتفكير ذهاني واضح .

العدوان والأمراض العصبية الأخرى

تصيب الجملة العصبية مجموعة من الأمراض المتعددة العوامل، وتؤدي تلك الاصابة إلى خلل مؤقت أو دائم في وظيفة هذا الجهاز كما تؤدي إلى ظهور الكثير من الممارسات السلوكية الشاذة عن الوسط؛ مما يجعل الفرد غير مألوف في وسطه، فينظر إليه بعين الريبة والحذر . ومن هذه الأمراض التي تصيب الجهاز العصبي : خراجات الدماغ الحيوية (البكتريوية)، والتهابات السحايا بأنواعها وأورام الدماغ والزهري والجلطة الدماغية واحتشاءات النسيج الدماغي والتصلب

الدماغي الموضعي أو المنتشر وحالات باركنسون المتعددة الأشكال السريرية . . . الخ . وتعتمد تغيرات السلوك والسلوك العدواني بالذات على مكان الاصابة . ولما كان كل الدماغ والحبل الشوكي عرضةً للاصابة ، فقد يحدث أن يكون ذلك من نصيب الأجزاء الدماغية التي أكدت الأبحاث أنها تكاد تكون المسؤولة عن الميل العدواني في الفرد . . وفي هذه الحالة يتحول الفرد إلى حالة من التوتر والضيق بالوسط من حوله وتظهر عليه علامات الاستثارة لأي سبب ساذج كما يظهر عليه الميل الى العدوان وابداء العنف . ولطالما عانى كثير من المرضى بعد تعرضهم للجلطة الدماغية في سبب من أسبابها – خصوصاً بعد شفائهم – من كثير من اضطراب المزاج والاكتئاب والشعور بالميل العدواني وأصبح بحثهم عن الخلاص من هذا التوتر مدعاةً لزياراتهم العلاجية ومكوثهم في المصحات والمستشفيات ولدينا من حالات التصلب الذي يؤدي إلى خطل الاطراف وشل عملها الكثير الذي يشكو فيه اصحابه خلاصاً ونجده لامن المرض الذي حل بهم بل من حالة التوتر والهياج الذي ينتابهم في حياتهم . كما لا يخفى ما لاصابة الجهاز العصبي بمرض السعار (داء الكلب) من تغير في سلوك المصاب وتحوله إلى حيوان هائج لا يلبث أن يقوم بالاعتداء على من حوله بشكل ملفت للنظر .

القسم الثالث

العدوان
في الدراسات النفسية الاجتماعية

الفصل الأول
العدوان والعادة

مقدمة

يمثل السلوك البشري في مجمله عملية اشباع لدوافع داخلية تقضي حاجاتها أو اختلال توازنها نتيجة عدم الاشباع إلى اثارة حالة دينامية من الحركة المنظمة الهادفة إلى اعادة اخلال التوازن وسد حاجة الدافع. كما تلعب حالة إدراك المثير الخارجي - بإحدى وسائل الحس - والذي يعني وجوده اطمئناناً للدافع الداخلي - كالأكل بالنسبة لدافع الجوع - أو نفوراً يتعارض واستقرار الدافع - كالخوف بالنسبة إلى دافع الأمن - تلعب حالة الإدراك هذه دور المعزز والمديم لهذه الحالة الدينامية من الحركة ولقد وجدت مدارس علم النفس صعوبة في الفصل بين ما هو ميل غريزي موروث في السلوك وبين ما هو مكتسب وإن كان قد تم الفصل والتفريق بين العديد منهما في هذا المجال. ولم يجد باحث نفسي أخصب من النفس البشرية مجالاً لتكوين العادة قياساً بالمملكة الحيوانية الأخرى. وذلك لأن هذه العادة تخضع في مجال تكوين فعلها المنعكس الشرطي لمؤثرات عقلية وعاطفية وحالات ذاكرة. وإذا حاكمنا ظاهرة العدوان في الانسان في ضوء نشوء العادات الاجتماعية، نجد ترابطاً كبيراً بين العدوان كسلوك وبين نشوء العادة التي يلعب وجودها دور الملبي لحاجات الافراغ العدواني في الانسان.

العدوان والكحول

عاقر الانسان الخمرة منذ زمن بعيد موغل في التاريخ. ولقد حوكم هذا السلوك تجاه الخمرة محاكمات شتى. فتوجهت الدراسات العديدة على وفق اتجاهات مختلفة لسبر غور العلاقة بين النفس والخمر. وركزت الدراسات النفسية على بيان حالة التوافق بين النفس وسلوكها قبل تعاطي الخمر وأثناءه.

وتذهب مدرسة التحليل النفسي إلى أن الميل إلى تعاطي الكحول يمثل تثبيتاً معيناً في الشخصية يرجع بصاحبها إلى المرحلة الفمية التي تحتفظ لصاحبها أو يحتفظ صاحبها فيها بذكريات لذة يجد في الكحول ارتجاعاً لها قد لا يجده في متناولات فمية أخرى. ويذهب بعض أصحاب هذه المدرسة إلى الاعتقاد بأن غريزة الفناء التي أقرت هذه المدرسة وجودها في الكائن البشري، ما فتئت تبحث عن كل عناصر الاستنزاف والفناء واستهلاك الوجود راكضةً به نحو نهايته. فيعمل الفرد بتعاطيه للكحول بدافع لاشعوري إلى فنائه ولا ينفع في ذلك علمه بخطورة أو أذى مثل هذا العقار.. مادام الدافع اللاشعوري عاملاً بشكل أعنف وأقوى من كل اغراءات النصح واللوم والتعليم. ويضيف بعض الباحثين في هذه المدرسة توضيحاً لذلك السلوك؛ إن الفرد قد يتمتع بأنا قوية يعززها أنا مثالي مدعم بتعاليم مجتمع صارم وأمام ومثل هذه الأنا القوية المتينة، لا يستطيع الفرد - باحباطاته ودفاعاته غير المستجابة وغرائزه الممنوعة - أن يقيم حالة توازن بين الممنوع منه والمرغوب فيه ولا يجد مجالاً أفضل من مجال النيل من أناه القوية بالحذر. فيحاول أن يحطم هذه الممانعة في أناه بشيء من المداواة الكحولية ويترك بذلك فرصة للرغائب المكبوتة للظهور والانتشار. ولما كان النزوع العدواني هو أحد هذه الدوافع المكبوتة، فإنها تجد في الوهن الذي يعتور الأنا بسبب الكحول مجالاً للانطلاق والممارسة. وهذا ما يشرح تحول الكثير من الناس من حالة الطبع الهادىء، الليّن، إلى حالة الهياج والعدوانية على الغير بمختلف وسائلها بعد تعاطيهم الكحول شراباً. وقد سجلت حالات كثيرة لمرتكبي جرائم قتل وسرقة، وجد فيها أن مرتكبيها كانوا يعرفون بين أقرانهم بحسن السيرة والضبط وأن هذه الجرائم لم يتم ارتكابها من قبلهم إلا بعد مرورهم بمرحلة من مراحل تعاطي الكحول. وترى الأبحاث التي درست هذه العلاقة بين النفس والكحول على ضوء فسلجة بافلوف وواطسون وثورن دايك أن بعض الأفراد يملكون لحاء قوياً تنشط فيه مراكز الكف لنشاط ما تحته ويتحولون بذلك إلى عناصر منضبطة، مما

يؤدي هذا الكف فيهم إلى منع حالات سلوكية عديدة بما فيها الميل العدواني من الظهور والممارسة، وعند تعاطي الكحول عند هؤلاء تسد هذه المادة مسارب الاستلام الحسي في اللحاء وتتقطع المواصلة الحسية بين المحيط واللحاء.. وتترك اللحاء واهناً أمام عمل المراكز تحته فيزداد النشاط العدواني كمفردة من مفردات السلوك في هذه الحالة ولهذا فإن تعاطي الكحول بصيغة من صيغه كالتعود أو الادمان في مجلمه يمثل حالة من حالات نشوء العادة الاجتماعية التي ما تلبث أن تمثل فعلاً منعكساً شرطياً، يلجأ إليه الفرد في حالات الاحباط والحالات التي لا يجد فيها متنفساً لعدوانيته بشكل من الأشكال، والذي يراقب شخصاً أثناء عملية تناول الكحول يستطيع أن يراقب تدرج السلوك العدواني فيه.. فالحركة الاضطرابية لأجزاء جسمه وطريقة ارتشافه لسيكارته وطريقة اطفائها بعنف وطريقة ازدراد المقبلات وطريقة الردّ على أسئلة ندمائه ومناقشتهم ثم طريقة ضحكه وقهقهته وغنائه وعويله.. كل ذلك يمكن أن ينظم من قبل مراقبة في قائمة تسجل كل انحداراته الاسقاطية لسلوكه حتى يهوي من علياء الانضباط الانساني الرفيع تدريجياً إلى مهاوي السلوك الحيواني الاعتدائي الفج. وينطبق ما ذهبنا إليه في علاقة السلوك العدواني والكحول، على تعاطي المواد الأخرى كالهيروين والمورفين والبثدين والحشيش.

العدوان والتدخين

من الممارسات السلوكية التي زوالها الانسان من القدم عادة استنشاق دخان التبغ المحترق، تلك الممارسة التي أصبحت من الانتشار والسعة ما قيض لها أن تشمل مجتمعات عديدة في بقاع واسعة من العالم. وقدر ما دفع الناس للتبغ المزيد من صحتهم وسلامتهم البدنية، قدر ما استمرت مزاولتهم للتدخين، غير عابثين بوصايا مراكز الصحة ونتائج الدراسات التي أكدت خطورة هذا السلوك. وأمام هذا الاصرار غير المسؤول لمزاولي هذه العادة، ينبغي أن نعرف الأساس

النفسي الذي يدفع بهؤلاء إلى التبغ المحترق. وربما استطاع فهم الأساس في مثل هذا الميل أن يقدم شيئاً من الأمتناع لممارسي ارتشاف الدخان وخاصة لمن وصل منهم حدود التعود أو الادمان. لقد وجد الكثير من الدراسات علاقة واضحة بين النزوع العدواني البشري وهذه العادة الخطيرة. وترشح هذه الدراسات ظهور التدخين كمعبر عن موقف احباط. فممارسته تمثل اسقاطاً على الذات - كجزء من العقاب - نتيجة موقف محبط لا يتحقق فيه المطلوب من الغايات. كم نلاحظ في حياتنا اليومية ميل بعض الأفراد في ساعات غضبهم واستثارتهم في موقف معين إلى استخراج سيكارة واشعالها. كم يعني وماذا يعني هذا السلوك؟ أن مثل هؤلاء باحثون عن مخرج من موقف، وكجزء من التعبير الحركي القلق يلجأون إلى السيكارة. ولما كان من الصعب اسقاط العدوان فيهم على الوسط المسبب للاحباط فيسقطونه على الذات بوسيلة من الوسائل والسيكارة احداها. ونظراً لما لمادة التبغ المحترق من احتواء سمي باعث على الخدر بالنيكوتين ومشتقاته فإن مثل هذا الخدر في السيكارة الأولى يعمل معززاً أو مدعماً لاعادة الموقف كما تطلب الأمر ذلك.

العدوان والسمنة

يميل أغلبنا إلى الاخلال بمواقيت الأكل وكمية المأكول من وجباتنا في ساعات الغضب والهياج. وقد دللت التجارب المختبرية إن حيوانات المختبر تميل في لحظات توترها وعدوانيتها إلى التهام ما حولها في أقفاص التجربة بدون قيود. كما أدت استثارة الهايبوثالموس فيها إلى استثارة الهياج والغضب وزيادة البحث عن الأكل حولها. ويعبر الميل إلى الأكل عن عملية إزاحة - كآلية دفاعية - في موقف احباط لا يوفر للفرد فرصة اسقاط العدوان على الوسط، فيتم اسقاطه على الذات بإحدى وسائل التعبير عن العقوبة. فيكون التهام الأكل بمقادير كبيرة رمزاً لعقاب الذات تجاه موقف صعب مصحوب بالاحباط. ولهذا تكثر زياراتنا

للمطبخ المنزلي كتعبير رمزي لحالة اعتداء . عندما يتم انسحاب على حالة العدوان على الوسط إلى الداخل (داخل الذات) بالشكل الذي نراه في حالة الاكتئاب، تنتفي الحاجة إلى التعبير عن مثل هذه الممارسة السلوكية لأن عقاب الذات تم بشكله الاكتئابي المرير. وعندما يبدأ الكئيب بالتحسن من كآبته، تزول شكواه من فقدان الشهية للأكل وينسحب جزء من عدوانه على ذاته إلى عدوان على الوسط ويعود إلى ممارسة ما لديه من الوسائل القريبة للتعبير عن الاسقاط العدواني على ماحوله. . فتتحسن شهيته تدريجياً مع انكفاء الاسقاط العدواني من الذات إلى الخارج. بينما يعاني الكثير من المرضى الذهان كمرضى الهوس مثلاً من نوبات نهم أكلي وشره قد لا تحده الحدود المعقولة. ويتزامن هذا مع نوبات هياجهم وعدوانيتهم على المحيط حولهم.

الفصل الثاني
العدوان البشري ومظاهر العنف

مقدمة

العدوان في الانسان خطر من أخطاره، يهدد به نفسه ويهدد به بيئته . . . ولولا العدوان لما أصبح الانسان مخيفاً لنفسه ولوسطه الذي يعيش فيه. ولولا العدوان لما حدث التطور الذي مثل في جانب كبير منه نزوعاً إلى ابتكار وسائل الخلاص من خطره السلوكي الرهيب. ففي الزمن الغابر استخدم الانسان العصا والسكين وبعض المعدات البسيطة ثم السيف والرمح في درء فورات العنف التي يجابهه بها الانسان الآخر.

ومع تقدم التقنية التي شملت كل مناحي الحياة، تقدمت وسائل العنف حتى أصبحت القذائف ومعدات الدمار الملقاة من الطائرات والبوارج لغة التعبير عن رد مثل هذا العنف. وكلما توسعت دائرة الخوف من المثير (العدوان) في الخصم، توسعت معها دائرة البحث عن وسيلة للرد. ثم استطاع هذا التسارع في ابتكار وسائل العنف أن يخلق قواعد وترسانات للأسلحة المدمرة وتطورت الانجازات حتى وصل نزوع الدفاع إلى اكتشاف القنبلة الذرية والهايدروجينية ووسائل التدمير الكيماوي والجرثومي. فأصبح الخوف بعد ذلك ليس من العدوان بل من وسائل الرد على العدوان. واستطاع هذا التطور الذي حصل في مكائن الدفاع هو الكاف البيئي المنيع لأية عملية نزوع عدواني قد يفكر بها الطرف الآخر. علي أن هذا التقدم الحاصل في المكننة القتالية - الدفاعية بتعبير افتراضي - لم يوقف ولا ينبغي له أن يوقف الحالة العدوانية في الفرد. فالأساس الفطري للسلوك العدواني لا يزال ولا يزول بمجرد قيام مؤسسات اجتماعية رادعة. ونحاول في هذا الفصل أن نناقش بعض الظواهر المخيفة للعدوان البشري، وأمامنا حالات ثلاث قد تظهر في الفرد - بنطاق محدود - وقد تظهر في المجتمع

- بنطاق أوسع وأشمل- تلك الحالات هي حالة إيذاء النفس، وحالة الانتحار، وحالة الحرب.

إيذاء النفس

تنتهي حالات كثيرة من الهياج والاضطراب السلوكي لدى بعض الأفراد بالقيام بالحاق الأذى بأنفسهم باتباع أساليب متعددة كاحداث الجروح في أطرافهم أو اطلاق العيارات النارية على بعض الأجزاء البعيدة من أجسامهم. وتتخذ بعض الفئات في بعض المجتمعات ظاهرة ايذاء النفس حججاً ورموزاً للرفض الاجتماعي كما يقوم بذلك بعض المتظاهرين أمام مسؤوليهم في بعض المجتمعات ليعبروا بذلك عن موقف رافض أو محتج.

ومهما تكن الغاية وراء سلوك ايذاء النفس، فإن هذا السلوك يظل مظهراً من مظاهر العنف الفردي، ويشرح علم النفس المعاصر هذه الظاهرة وفق ما يأتي من الأسس: -

(١) يمثل ايذاء النفس تعبيراً حركياً عنيفاً يقوم بتوجيهه الفرد إلى نفسه بدلاً من توجيهه إلى المحيط الذي لا يستطيع مجابهته لسبب أو لآخر.

(٢) تمثل ظاهرة ايذاء النفس ميلاً رحامياً بشكل لاشعوري، ويقوم به المريض أثناء النوبة. وقد يؤدي القيام بهذا العمل إلى افراغ الشحنة الهستيرية وابطالها بل تحويل مسارها فبدلاً من أن يسقط المريض أرضاً، أو يتحول رحامه إلى شلل في أعضاء جسمه، يقدم على ايذاء نفسه كتعبير لهذا النزوع الرحامي.

(٣) يقوم بالحاق الأذى بأنفسهم أولئك المتمارضون ويؤدون هذا العمل بشكل شعوري واعٍ بغية استحصال عطف الآخرين وكسب ودهم. ونجد مثل هذه الظاهرة شائعة بين صفوف العمال وذوي الأشغال الخدمية ممن يحاولون الحصول على مكاسب كالاجازات والتلطيفات الوظيفية بمثل هذه الاعاقات الوظيفية. ويستطيع الفرد الفاحص بسهولة التفريق بين حوادث ايذاء النفس المتعمد أو المدبر وبين حوادث الأذى الأخرى التي لا دخل للفرد في حدوثها بمراعاة النقاط

الآتية :-

(١) يلحق الأفراد الأذى بأنفسهم في أجزاء لا تميت ويعرفون مسبقاً أنها لا تؤدي إلى الموت، كبتر اصبع أو اطلاق عيار ناري على القدم أو احداث خدوش عميقة في باطن الفخذ، وتلك اجراءات يمكن اسعافها ويؤدي الاسعاف إلى النجاة في ظرف زمني مناسب.

(٢) يظهر التدبير الفني والطريقة المدبرة واضحين في حالات ايذاء النفس لأنها تحدث في الغالب في أماكن من الجسم يمكن للفرد أن يصل إليها باستخدام طرفه الآخر وبوسيلة مناسبة، وترسم التحوطات الهندسية (كبتر سلامية واحدة فقط ومن اصبع لايستهل كثيراً أو في قدم أو اصبع قدم). وضوح النية المسبقة في الحاق الأذى بالنفس.

(٣) تفيد الجلسات التي يجريها الطبيب المعالج في كشف النية من اتخاذ مثل هذا العمل وكثيراً ما تفضي تلك الجلسات إلى وجود اضطراب في شخصية المؤذي لنفسه.

الانتحار

كل انسان يفكر بموته وساعة فنائه. ويستوي في ذلك كل الناس، وما إن تغب فكرة الموت عن أحدنا حتى تعيدها إلينا رؤية موت الآخرين في حادث من الحوادث وربما لا ندرك معنى الحياة إن لم ندرك معنى الموت. ولأن الموت غاية الحياة، فهو سابق لحدوثه في مخيلة كل منا. وعندما تصير ظاهرة من الظواهر حقيقة ملموسة ووقوعها حتمياً، يصير الهرب منها محاولة رجوع إلى الخلف، ومسألة الرجوع إلى الخلف ضرب من الخيال المستحيل؛ سرعان ما يستبدل في مخيلة البعض بالهروب إلى أمام. أي بالركض نحو الفناء لاكتشاف هذا القدر المحتوم. إنه حقيقة لا يختلف فيها ولكن يختلف فيما بعدها. والموت ظاهرة تختلف في تفسيرها والنظر إليها الوجهات والمذاهب، فهو « أذى» عند بعضهم و

« لذة» عند آخرين « ولا شيء مهم» عند فريق ثالث. ولقد برزت في حياة الانسان حالة « الانتحار» أو قتل الانسان لنفسه. وتبدو مسألة الانتحار اختياراً طوعياً من قبل الفرد ظاهرياً ولكنها في داخله ليست كذلك. تتصارع في داخل الفرد قبل انتحاره قوتان أو قل انفعالان لغريزتي البقاء والفناء؛ تشده الأولى نحو حياته والثانية نحو عدمه. وفي اللحظة التي تتعادل فيها القوتان تصبح مسألة الفناء حال عبور من وضع إلى وضع آخر واستحالة للكائن من صيرورة إلى صيرورة ثانية. والتساؤل الذي يبرز أمامنا الآن: هل يمثل الانتحار حالة عدوان على النفس؟ أو بشكل آخر: هل يسبق الانتحار سقوط الفرد في دائرة ميل عدواني شديد مفضٍ إلى الانتحار؟ وربما قاد هذا التساؤل إلى تساؤل آخر: هل بالضرورة أن يقود العدوان على الذات إلى قتلها؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي شدة الارتداد العدواني على الذات الكافية لحدوث الافناء أو الانتحار؟. يبدو أن هذه التساؤلات تقع في سؤال واحد: هل للعدوان في النفس كدافع علاقة بالانتحار كظاهرة؟ يقول بعض الباحثين أن لحظة الانتحار عند الفرد لحظة هادئة، استقر فيها الرأي لديه على ضرورة الفناء. ويقودهم ذلك إلى التصور بأن القيام بعملية قتل الفرد لنفسه عملية كبيرة ومريرة استجمع فيها الفرد كل طاقته العدوانية، بكلّ ما تيسر لها من اختلال فسلجي وكمية اثارة لمراكز الحركة العدوانية وأسقطها على عملية تلاشى فيها كل نزوع عدواني آخر على المحيط باستثناء جسده. فكان هذا الأخير اللوحة التي احتوت كل هجومه بحيث لم تترك لما حولها من حصة لعدوان آخر. ويستنتج هؤلاء الباحثون هذا التوصل في أبحاثهم من ظهور المنتحر بصيغة غير المكترث لما حوله من الناس والأشياء. وقد دونت الملاحظات الكثيرة حول مثل هذا السلوك ووجدت حالات الانتحار التي تعقب استثارة الفرد الحادة والشديدة من موقف معين أو شخص آخر يعلوه مركزاً أو يفوقه سلطةً. فنجد أن الفرد المنتحر – عقب شعوره بالاهانة والتجريح من الموقف أو الشخص – لا يقتل من وجه له مثل هذه الاهانة وإنما يقتل نفسه ربما لا

يفكر بايذاء خصمه اطلاقاً، ذلك لأن الانفعال الذي خلقه ذلك الموقف أفرغ بحادثة انتحاره وأظهره هادئاً تجاه الوسط المثير (البيئة، الاحباط، الاشخاص).

وتحدث مثل هذه الحالات عند منتسبي الشرطة والجنود والمستخدمين وصغار الموظفين في منازعاتهم مع رؤسائهم أو المسؤولين عنهم. كما تحدث في بعض الأسر عند بعض الزوجات على أثر مشاداتهم العنيفة أو حالات الهجر من قبل أزواجهن. وفي حالة قيام الفرد بالرد على الموقف الصعب بتدبير جريمة قتل الطرف الآخر فإنه لا ينتحر.. لا يقتل نفسه لأنه قتل غيره، ونستطيع أن نجمل علاقة السلوك العدواني عند الانسان بحالة انتحاره كما يأتي: -

(أ) يمثل الانتحار تنفيذاً نهائياً لحالة ايذاء فعلي للنفس والجسد، وفي هذه الحالة تصل الطاقة الحركية العدوانية إلى غايتها القصوى في التجسيد والظهور.

(ب) ينحسر حالة العدوان في الفرد لحظة حاسمة بشكل كامل إلى الذات ويمر الفرد بحالة اكتئاب حادة شديدة تؤدي إلى العقوبة القصوى (الموت).

(جـ) ينفذ الانتحار الاحتجاج الأكبر للفرد على الوسط الذي حقق الاحباط.

(د) يولد الاكتئاب الشديد حالة كف للمستلمات الحسية في الفرد ويفقد الفرد فيها كل وسائل التواصل مع الوسط ويتركز تفكيره بشدة على لوحة الاسقاط النهائي لعدائه - الجسد - فيقتله.

الحرب

ظهرت دراسات نفسية كثيرة حول الحرب في حياة الانسان. فمنذ زمن سحيق في القدم وبنو الانسان يصطرعون في حروب طاحنة تؤدي إلى الخراب والدمار في الأموال والنفوس. وحاولت هذه الدراسات أن تربط مسألة الحرب بالسلوك الانساني عبر: -

(أ) علاقة الحرب بالحاصل الذي يمثل الجمع الجبري للنزوع العدواني الفردي في مجتمع من المجتمعات.

(ب) علاقة الحرب بالحاجات الأولية للمجتمع في الغذاء والأرض.
(جـ) علاقة الحرب بظاهرة الخوف من الخصم أو الخوف من شبح الحرب ذاتها.
(د) علاقة الحرب بالنشاط الجنسي في مجتمع ما.

وعلى الرغم من كل المناقشات التي حاولت أن تربط بين العدوانية التي تميز سلوك الفرد في حياته اليومية التي تتشكل منها عدوانية اجتماعية وبين ظاهرة نشوب الحروب، فقد وجد أن هذا الربط هزيل ولا يقوى على الوقوف على أقدامه للمناقشة.

وأكبر عامل نفسي مؤثر يؤشر حقيقة الحرب في السلوك البشري هو عامل الخوف. فلو افترضنا وجود عالم بلا حرب؛ كأنه يجري ذلك باتفاق دولي حول نزع شامل لكل سلاح.. فهل سيعني هذا ضمور الميل العدواني في الفرد أو المجتمع؟ إنه مثل هذا العالم المنزوع السلاح، سرعان ما ينشأ عامل الخوف. ربما قد يطمئن الانسان إلى أن كل شيء فيه وفي انتاجه أصبح له مستقبل، وأنه غير مهدد بالزوال المدمر لوريثه الفكري والمدني والحضاري. ربما قد يدرك أن أبناءه في مأمن من هجوم أقوام أخرى... ولكن الخوف ينشأ تجاه شيء غير مقرر (غير محدد): وقد وجد في علم النفس المعاصر أن الخوف من مجهول أخطر بكثير من الخوف من معدوم، فحالة الرهاب Phobia التي يولدها المعلوم(الحرب) لهي أهون وقعاً وأقل خطورة في النفس من حالة القلق التي تنشأ من خوف لا يعرف مصدره أو مسببه. ويعتقد أن العالم يبعده عن الحرب خوفه من الحرب. أما الخوف الذي لا يعرف مصدره(وهو لا بد من وجوده كانفعال داخلي) فيولد حالة القلق الذي يمزق في الانسان والانسانية أكبر مما تمزقه الحرب ذاتها.

في الحرب ينشط سلوك حركي في الفرد يتميز عن سابق سلوكه كماً وكيفاً واتجاهاً. وأبرز ما يميز هذا السلوك هذا الغضب (الغضب الفردي والغضب الجماعي). وتختفي في الحرب ظاهرة الكراهية أو الحقد، فالمقاتل ككائن مثار غاضب، مهتاج، غير كاره، وغير حاقد.. أي أننا نلاحظ في الحرب قيماً تميزها

وتتميز بها لا تتصف بها حالات السلوك الأخرى، فالمقاتل يقتل خصمه لا لأنه يكرهه بل لأنه خصمه يريد أن يقتله. لذلك فهو يقتل كي لا يقتل، ويقتل قبل أن يقتل. وسرعان ما يتحول الخصم الذي نريد قتله بكل وسيلة إلى أمانة في أيدينا حال وقوعه في الأسر. فحتى قبل لحظات كان يمثل بغية وهدفاً أمامنا نقتله ونفنيه، لكنه سرعان ما يصير محط رعايتنا كأسير نطعمه جائعاً ونسقيه ظمآناً ونضمده جريحاً، والغضب بأعلى صوره أشدها يمثل نموذجاً رائعاً للحالة السريرية التي يمكن أن يوجد عليها الكائن البشري في ساعة ميله العدواني كسلوك. وقد جربت بعض الفحوصات المختبرية على أفراد تم اخلاؤهم في الحرب الفيتنامية أثر إصابتهم بجروح فوجد أن مستويات السكر والـ ستيرويد والاندروجين تفوق الحدود الطبيعية بكثير، كما أن ضغط الدم والحرارة والنبض وسرعة التنفس تختلف كثيراً عن الحالة الطبيعية. كما وجد أن الشرود وانخفاض القدرة على التركيز من مميزات هؤلاء. وهذه المواصفات تطابق كثيراً حالة الفرد ساعة الهياج والغضب إنّ الفرد المثار في ساحة المعركة لا يلتفت إلى ما تعنيه أسباب الحرب قدر ما يعنيه النصر فيها. وهو عندما ينتصر فإن ذلك يشكل قيمة رمزية لسلوكه الغاضب ويمثل اندحاره أمام الخصم موقفاً احباطياً سرعان ما يولد فيه انحسار الغضب وارتداده إلى ذاته وربما أفضى به ذلك إلى الانتحار كتعبير احتجاجي على موقف الخسارة أو إلى اصابته بالكآبة الحادة التي قد تصل به إلى الصد النفسي. والانتصار على الخصم - نفسياً - له رموز عديدة، يعبر عنها الاختلاف فيما تختلف فيه مخيلة المقاتلين من تصورات، فالازاحة الاقليمية الجغرافية أو القتل المطرد، في صفوف الخصم أو تحطم عدة القتال المعادي أو الجاء الخصم إلى الهزيمة مواقف عديدة مشهورة في الحروب ولكل منها أثره الرمزي في ذهن الفرد المقاتل، وتمثل صورة الجندي المقاتل صورة الانسان المثار ساعة غضبه. فنحن في موقف سلوكي مثير قد ننسى أسباب استثارتنا ونلغي مناسبة التحري عن المسبب ونبحث بدلاً من ذلك عن صيغة لايصال السلوك المثار إلى الهدف.

الفصل الثالث
العدوان البشري ومظاهر الحياة اليومية

مقدمة

حياة الفرد هي سلوكه المحسوس بكل أشكاله، ويتشعب هذا السلوك تشعباً كبيراً بحكم الدوافع الداخلية فيه وبحكم أنواع المثيرات في الوسط خارجه. وحياة الفرد اليومية هذه متشعبة النواحي والمظاهر؛ يتعامل فيها الفرد بصفائح مختلفة من الاستجابات. ويمكن أن تعلب مواقف عديدة دور المثير للسلوك الانساني العدواني في الفرد. فهو أثناء ساعات يومه يقوم بدور المتلقي والمستجيب تبعاً لطبيعة ما يتلقاه. ونحاول أن نناقش بعضاً من المظاهر الحياتية المؤثرة في السلوك هذا ودراسة العلاقة بين الميل العدواني الفردي وهذه المظاهر ثم تأثير الخاطيء فيها على الفرد في سلوكه.

الحالة العدوانية والاتصال الاجتماعي

أفرزت الحضارة الانسانية وسائل عديدة للاتصال بين البشر. وقد لعبت هذه الوسائل دوراً هائلاً في حياة الانسان سلباً وايجاباً. ومن هذه الوسائل :-

أ- الوسائل الاعلامية : بما فيها من اذاعة وتلفزة وصحافة وكتب. وتلعب طبيعة التوجه التي تطبع تلك الوسائل دورها في تنشئة الفرد في بيئة قد تجعل منه عنصراً ذا نزوع عدواني واضح أو قد تجعل منه عنصراً هادئاً في قدر كبير من مفردات حياته.

وتؤدي الأخبار التي تنقلها وسائط الاعلام في الجريمة واستخدامات الرعب والفوضى البشرية والاضطرابات السلوكية لمجتمع أو فصيل بشري إلى خلق نزعة القلق ومعها الرعب الذي لا يلبث أن يطبع الفرد المتلقي بطابع الاستثارة والتهيؤ

لمثل هذا السلوك، ويقوم الطابع المتزن في مجالات الثقافة والمعرفة الذي يمكن أن توجد عليه هذه الوسائط بدور المرسخ لنزعة الهدوء الفردي والاجتماعي. وقد التفتت إلى هذه الناحية مؤسسات تجارية واقتصادية في دول كثيرة مستفيدة من الاستعداد الاجتماعي في الفرد لتحقيق مبيعات أكثر لبضائعها ومنتجاتها. وأهم عامل وجدته تلك المؤسسات جديراً بالزعزعة والاثارة في الفرد هو «عامل الاطمئنان الفردي». فلتحقيق بيع سلعة أو حاجة ما، تعمد المؤسسة المنتجة إلى اثارة الخوف في الفرد أولاً من احتمال فقدان تلك السلعة في وقت قريب إن لم يسرع المواطنون إلى اقتنائها، فنجد نتيجة لذلك ظاهرة اصطفاف الأفراد في كراديس طويلة بغية الحصول على تلك السلعة. وفي الحقيقة، أنهم لا يزدحمون من أجل السلعة وإنما من أجل الخوف عليها. ويولد هذا السلوك ظاهرة استثارة الكائن البشري نتيجة احداث حالة الخوف من مجهول. عامل آخر تستخدمه بعض المؤسسات الاعلامية التجارية في ترويج اقتصادها. هذا العامل هو «عامل الخوف من النقيض». تنوي شركة أن تبيع منتجاتها من مكائن غسل الملابس المنزلية، تروج لذلك بالعديد من الطرق والتبويبات كأن تعلن عن علاقة مساحيق الغسيل بالتهابات الجلد وظهور الحساسية الجلدية في أيدي ربات البيوت، والطريقة الوحيدة للخلاص من هذه المضاعفات هي الامتناع عن عملية الغسيل والاستعانة بماكنة سهلة الاستعمال موفية بالغرض، وهكذا يخلق مثل هذا الاعلان حالة قلق في ربة المنزل فتهرع تحت خوف النقيض(المضاعفات المرضية في هذه الحالة) باللجوء إلى تلك العملية الشرائية. وتلعب نشريات الدعاية المضادة التي تنشر افتراضات موهومة وأنباء عن اقتراب هجوم معاد أو قيام اضطراب أو حدوث زلزال قريب أو سقوط نيزك، دوراً في اشاعة العُدوانية الاجتماعية والاضطراب.

(ب) أدوات الاتصال السلكية: وعلى الرغم مما قدمته حضارة الانسان من تسهيلات لأبناء جنسها، فإن هذه التسهيلات حملت معها الكثير من المشاكل

ذات الأثر النفسي المفضي إلى تحويل الفرد إلي حالة عدوانية هائلة ومن الأمثلة على تلك الوسائل الحديثة : جهاز الهاتف . فلقد وجد هذا الجهاز لأداء خدمة الاتصال السريع في المواقف التي تتطلبه . إن الاتصال الفردي عبر الهاتف يتم باستخدام حاسة السمع في ايصال المعلومات والاجابة عليها وتنعدم فيه حاسة البصر . ولا يخفي علماء الاتصال أهمية تواجد الحاستين (السمع والبصر) في التواصل الاجتماعي . وفي حالة انعدام فرصة البصر ، يتوجب علينا أن نفهم حالة المتحدث إلينا وملامح حركاته ودرجة انفعالاته بالسمع فقط . وكثيراً ما يخفق الصوت أو النبرة الصوتية في ايصال الصورة الحقيقية لهيئة المتحدث . فتثير جملة في حديثه أو نغمة من نغمات صوته كثيراً من الاستفزاز والتوتر لدينا ويخلق ميلاً للاستعداء عليه . وكثيراً ما نطلب من محدثنا عبر الهاتف - عندما يخلق الحديث نوعاً من التوتر - اللقاء به والحديث إليه وجهاً لوجه وكثيراً أيضاً ما أدت تلك اللقاءات إلى تحسين الموقف بين الاثنين وزوال حالة التوتر لأن اشتراك الحواس يلعب دوراً هائلاً في توضيح صورة الكائن وعلاقة موقفه بإثارة العدوان أو ابطاله .

(جـ) وسائط النقل السريعة : - ومثلما وفرت المدنية وسائل الاتصال الشفهي السريعة ، بابتكار جهاز الهاتف ، وفرت على الانسان كذلك مشقة السفر ومتاعب الطريق فقصرت المسافات وصغرت المنظور الجغرافي للعالم في مخيلة الانسان بابتكار وسائط النقل السريعة كالطائرة والقاطرة والسيارة . وكما لعبت هذه الانجازات دورها الموجب في راحة الانسان ، لعبت دورها السالب في شقائه واستفزازه . فالتوتر الذي ينتاب الفرد خلف مقود سيارته في طريق مزدحم وحوادث الاصطدام والموت المرعبة في السيارات والطائرات له قيمته ببث حالة الرهاب من شبح الآلة وبالتالي في الخوف من معلوم رهيب مخيف . وهو ما يكفل تحول الانسان إلى حالة من التوتر والبرم بالوسط وحضارة الوسط . وكم دخل العيادات النفسية متعالجون من رهاب الطائرة الذي حصل لهم من جراء

ركوبها مرة في حياتهم، فأصبح يخيفهم حتى رؤية الطائر في السماء.

الحالة العدوانية ووسائل التعليم

ما أن يبلغ أحدنا السادسة من العمر حتى تحتضنه المدرسة بعد أن احتضنه البث. فيدخل المعلم عنصراً ثالثاً في حياتنا إلى جانب الأبوين ومثلما تفعل التجربة التربوية الأولى في الأسرة دورها، كذلك يفعل دخول المعلم في حياة الطفل فعله المؤثر. والسلوك الذي يميز المعلم كفرد يترك أثره في نفوس تلاميذه الصغار. وهنا تبدأ دائرة وعي الطفل بالاتساع من الرؤية المحددة بالأبوين إلى الرؤيةالتي يضيف فيها إلى مخيلته معلمه كعنصر ثالث. وقد أظهرت الدراسات النفسية في هذا المجال التربوي أن شخصية المعلم العدوانية أو اتباعه أسلوب الاستظهار العدواني يطبع شخصية الطفل بطابع القلق الدائم المزمن ويؤشر سلوكه ويحوله إلى نزوع عدواني واضح. كما أظهرت الدراسات تلك فشل تجربة العقاب في تقويم سلوك الطفل فزرعت بدلاً من الانصياع والطاعة توتراً زاد في ميل الطفل العدواني والاخلال في تكوين عناصر شخصيته اخلالاً واضحاً.

ومن الأمور التي تتعلق بعدوانيته النهج التربوي: علاقة طبيعة المناهج بسلوك الطفل ومستقبله. صحيح أننا في حاجة إلى ذكر البطولة في تاريخنا والبطولة جزء من تاريخ الأمة وأحد مؤشرات عطائها، إلا أننا يجب أن نكون حذرين في التعامل بالكتابة في هذه المواضيع. إنَّ قصر البطولة على المعارك والدماء ولغة السيف والرمح يجر مخيلة الطفل والتلميذ إلى الاكتناز بذكريات القوة والعضلات. فاطلاق تسمية «الفاتح» على نابليون في فرنسا و «الفارس» على عنترة و«البطل» على خالد بن الوليد في تاريخ العرب، يحشر في ذهن اليافعة احتكار تاريخ البطولة لجانب الفتوحات فقط. بينما لو وسعنا هذه المصطلحات وأعطيناها مطاطية الاستعمال أكثر حتى تشمل شخصيات أخرى في مجالات العلوم والآداب والفنون، لتوسعت مداركه بشكل مقلل للنزوع العدواني السلوكي، بشكل يوزع تاريخ البطولة على المجالات كافة. فالفاتح يمكن أن يكون

محارباً وكيمياوياً ومعلماً وطبيباً وفلاحاً. البطولة موزعة على التاريخ التربوي توزع صورة السلوك الانساني في مخيلة الطفل. وربما يكون صحيحاً جداً أن تاريخاً وتوجيهاً تربوياً يحمل الفرد على ضرورة التوجه إلى علوم المعرفة – ليكون بطلاً – سيكون له أثر واضح في تعديل أثر البيئة (التعليم) في السلوك العدواني للفرد.

الفصل الرابع
العدوان والحاجة الذاتية

مقدمة

هل العدوان ضرورة حياتية في السلوك؟ هل يمكن أن يكون سلوك بدون عدوان؟ ما هو مستقبل الكائنات الحية والمملكة الحيوانية خصوصاً في عالم بلا ميل عدواني؟ ربما تأتي الاجابة على مثل هذه التساؤلات في مكان آخر بشكل أنسب، ولكن مناقشة ظاهرة العدوان كسلوك ملب لحاجات دفينة في الانسان والحيوان على السواء تجعل إثارة هذا التساؤل أمراً فيه شيء من الوجاهة. إننا أمام تبسيط الحاجات الذاتية التي يمكن أن يلبي العدوان ويمكن أن يؤدي الافتقار إليه إلى اختلال كبير من الحاحها المستمر على المنظومة الفسلجية والمسار النفسي العام.

الضرورات النفسية الحياتية

يرى آردري في كتابه «الاقليم» الذي أصدرته منشورات ستوك عام ١٩٦٦، إن الحاجات النفسية الأساسية للسلوك الحيواني والانساني هي :-

(١) الكفاح ضد المجهول (الحاجة إلى تحديد الذات)

(٢) الكفاح ضد معلوم خاص(الحاجة إلى التحريض)

(٣) الكفاح ضد معلوم عام(الخوف) [الحاجة إلي الأمن].

وتختلف قوة الحاجة في كل من هذه المعاليم الثلاثة تبعاً لاختلاف الكائنات الحية وكما تختلف هذه الضرورات النفسية في ترتيب قيمها. فالحاجة إلى كشف الهوية أو تعيينها (أي تحديد الذات) أشد من حاجة الحصول على التحريض عند بعض الحيوانات. والذي يهمنا هنا في أمر هذه الحاجات هوعلاقتها بالنزوع العدواني وكيفية توجيهه. والكائن - تبعاً لعنصر المفاضلة التي يدركها بين هذه

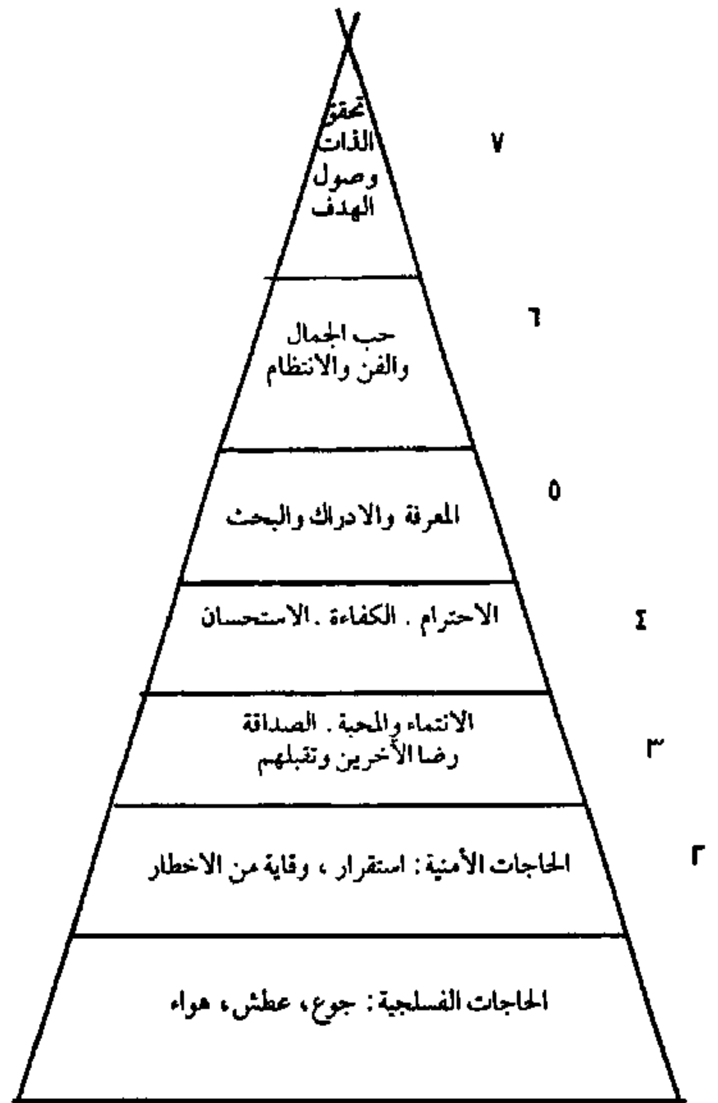
الضرورات الثلاث - هو الذي يعين كم واتجاه سلوكه العدواني. فالكائن بين أبناء جنسه يشده نزوع شديد إلى ابراز هويته الذاتية ويعاني من مسألة ارتقائه كثيراً ولكي يسلسل القائمة المرتبية التي يوجد أو أوجد عليها من جديد بشكل يضمن له رقماً جديداً لائقاً بطموحه، يوجه سلوكه العدواني وهذا ما يفسره الكفاح ضد مجهول. ولا يعني - لكي نرتقي محلاً جديداً في السلم الاجتماعي - أن نفهم ماذا نريد! قد لا ندرك هذا البتة ولكننا نبقى مشدودين إلى مسألة قراءة الهوية وابداء السلوك المعترض على الواقع الأول باتجاه واقع جديد. إن الانسان والحيوان يستويان - باختلاف الكيف - في تحديد المسار في البحث عن الذات فالحيوان يقاتل ضمن أبناء جنسه ليتصدر مكاناً يؤمن له السكن والغذاء، والانسان يقاتل ضمن المجموعة البشرية ليتبوأ حيزاً ملبياً لأمنه وحاجاته الأولية مع شيء اضافي آخر هو القيمة المعنوية للتفوق، تلك القيمة هي من عمليات العقل، الميزة التي انفرد بها الانسان عن الحيوان.

ويبدو من هذا الحديث مدى الترابط بين هذه الضرورات الثلاث، حيث يؤدي تحقيق أيٍّ منها إلى تحقيق الأخرى بقدر ما. وتظهر الدراسات السلوكية ميل الحيوان والانسان إلى الاحتفاظ بالاقليم، موطن النشأة الأولى، الذي يعتبر من الحاجات الأولى الموفرة لتحقيق الذات وحسابات الأمن وتعتبر مسألة استمراره دافعاً من دوافع الكفاح ضد زواله (أي الكفاح ضد استلابه من قبل مجهول: الخصم). وتملك بعض الفصائل الحيوانية آلية احيائية دفاعية غريبة مؤداها استمرار موارد الاقليم: غلات الأرض والخصوبة، فتحجم عن التناسل بغية توفير اختيار وانتخاب جنس أقل؛ فتتناسب في عددها مع قدرة الاقليم على الاعاشة برخاء. فحيوان اللاموس (وهو من فصيلة الفأريات)، يحد من كثافته السكانية الناتجة من كثرة تناسله إلى تشكيل أسراب من أُفراده والاتجاه إلى البحر لتغرق تلك الارتال نفسها فيه إلى غير رجعة وعلى الرغم من أن هذا السلوك لم يجد الشرح البايولوجي إلا أنه يسجل ظاهرة توازن اجتماعي ملموس في هذه

الفصيلة تخدم بها الحشد الجنسي وتحتفظ بوساطتها بمعطيات الاقليم. ويقوم بعض الفئران والجرذان، عند حبسها في أقفاص (تمثل اقليمها الجديد) باحداث بعض التغيرات الجسمانية فيها كضمور الأعضاء التناسلية وزيادة عدد الاجهاضات وقتل الصغار في سن مبكرة لتتوافق متطلبات الفصيل مع قدرات الاقليم على توفير تلك المتطلبات كالأمن والغذاء. وربما يأتي تطبيق بعض الدول لقوانين إباحة الاجهاض أو انتشار حبوب منع الحمل متوافقاً مع هذا النزوع الحيواني في مخيلة المنظمات المسؤولة عن مراعاة قدرة الاقليم على الاحتفاظ بالكيف السكاني على حساب كمه. وإلا فإن ظاهرة الهجرة وضياع الوطنية هي أول ما يهدد هوية الذات الاقليمية نظراً لتلكؤ قدرة الاقليم على العطاء. ولأجل توفير اجابة اجتماعية مرضية لحاجة تأكيد الذات، تبرز مسألة إزالة المعيق أمام الكائن. وإذا كان هذا المعيق كائناً آخر من نفس الفصيلة أو من جنس آخر فإن إزالته تصير واجبة وبالقتل إن تطلب الأمر (مسألة الرجل الأبيض ووجود الهنود الحمر). والسؤال الذي يبرز هنا: هل يعني افتراض زاول المعيق أمام الكائن الباحث عن تأكيد الذات الغاء للنزوع العدواني؟ الاجابة ترجح قول. لا. فاختفاء مثل هذا الكائن يبرز من جديد عامل الخوف: الخوف من مجهول ويؤدي هذا إلى ازدياد البحث عن الذات في عالم جديد تحول فيه الخوف من حالة الرهاب المعين المصدر إلى حالة خوف المجهول. ويعتقد أن لهذا أثراً موجباً في البحث عن استمرار الارتقاء ضمن جنس من الأجناس. وتعمل حاجة توكيد الذات إلى إثارة أو استخدام آلية التحريض. والتحريض هذا قد يكون ضد معلوم أو ضد مجهول أيضاً. والفرد المحرض نحو غاياته العدوانية. وتؤدي النزعة الارتقائية والحاجة التحريضية إلى توفير اكتفاء أمني وسد لحاجة البحث عن الأمن وهو المطلب أو الضرورة النفسية الثالثة في قائمة الحاجات وتبقى مسألة اندفاع الفرد العدواني أو سلوكه نحو اشباع هذه الحاجات الثلاث عملاً مجرداً من الكره أو الحقد أو العدواة. فالعدوانية باتجاه تحقيق مثل هذا الاشباع عمل فسلجي مجرد

من التصاقات الممارسة الخاطئة المفرزة من شحن عاطفي معين وقد عانت مجتمعات كثيرة من انحططات اجتماعية في مسألة مزج العمل العدواني الفردي الموجب(المحقق لهذه الحاجات) مع طقوس وأعراف لا تنطوي على ارضاء فسلجي يتفق وتشريح مراكز العدوان وطبيعة عملها في الدماغ فلقد كانت هناك القبائل التي أحلت أو استساغت أكل اللحم البشري، فهنا نلاحظ النقلة الخاسرة الحاصلة في السلوك من عدوانيته إلى عدواته(من العدوان إلى العدواة) ويقول ايريك فروم في كتابه (تشريح التخريبية الانسانية) الصادر في باريس عام ١٩٧٥م: إن الانسان يختلف عن الحيوان بحقيقة أنه قاتل. فالانسان هو الكائن الوحيد في فصيلة الثدييات الذي يقتل أبناء جلدته دون أى سبب بايولوجي أو اقتصادي ويشعر بالرضا حين يفعل ذلك. ولا تقدم التبريرات التي أوجدتها بعض الأعراف الاجتماعية في القبائل آكلة اللحم البشري شيئاً مفيداً مقنعاً لنا في اعتبار الأكل بعد القتل عملية نفسية ذات أساس واحد (أي عملية متصلة). وقد أضفت تلك الأعراف نوعاً من القداسة والطهر الديني على عملية أكل اللحم البشري المعادي واعتبرته عملية استهلاك لجسد الخصم وروحه. إلا أننا وبالمنظور النفسي نجد أن استمرار الممارسة السلوكية بدءاً من القيام بمهاجمة الخصم مروراً بالاقتتال معه وانتهاءً بقتله ثم أكله تدلل على المزج بين العدوانية والعدواة(أي تحميل السلوك العدواني صفة الحقد أو الكره).

وقد ناقش الباحث ماسلو تدرج الحاجة الذاتية في الفرد واعتبر أن تحقيق الذات أو البحث عن الذات هو الهدف النهائي في كل السلوك البشري وأن التدرج الحاصل في الوظائف الأخرى مثل ارتقاءً سلوكياً نحو هذه الحاجة القصوى في انتماء الانسان لنفسه. ويتعرض الفرد لكثير من الاسقاط العدواني خلال عملية ارتقائه على معيقات التنامي الذاتية نحو الهدف الأخير. والجدول المرفق يبين أهم تصورات ماسلو في هذا الصدد.


تحقيق الذات وصول الهدف
٧
حب الجمال والفن والانتظام
٦
المعرفة والادراك والبحث
٥
الاحترام . الكفاءة . الاستحسان
٤
الانتماء والمحبة . الصداقة
رضا الآخرين وتقبلهم
٣
الحاجات الأمنية : استقرار ، وقاية من الاخطار
٢
الحاجات الفسلجية : جوع ، عطش ، هواء
١

نظرية ماسلو

الفصل الخامس
العدوان والمرأة

مقدمة

ننشأ – كما يقول العلم – من بيضة مخصبة. معنى ذلك: ننشأ من نصفين بيضة وحيمن. وتأتي البيضة من الأنثى ويأتي الحيمن من الذكر. معنى ذلك أيضاً: تشارك البيضة بتكوين نصفنا. وبذلك فللمرأة نصف الكائن الجديد. وربما لا يمكن اقتسام الانسان الجديد إلى نصفين متساويين في الخصائص الجسمية والملحقات الجنسية والمواصفات الشخصية، ولكننا بالاجمال نحتفظ للجنس الأنثوي بنصف مكوناتنا بدءاً من الخلية المفردة وانتهاءً بالسلوك العام. ولكن السلوك العدواني يختلف باختلاف الجنس. فالفرد الذكر له خصائص معينة في عدوانيته كما للفرد الأنثى خصائص غيرها في هذه الناحية.

مؤثرات الفوارق بين الرجل والمرأة

يفترق الرجل عن المرأة في بعض الخصائص التكوينية التي تترك أثراً واضحاً في نوع السلوك العدواني لكل منهما. وأهم هذه الخصائص: –

(١) فارق القوة الجسمانية بينهما.

(٢) طبيعة الهرمون السائد في كل منهما.

(٣) مردود السلوك العدواني على الحياة الاجتماعية لكل منهما.

فارق القوة الجسمية

من الأمور التي اكتسبت البداهة، لشيوعها، أن القوة العضلية الجسمية في الرجل أكبر منها في المرأة وهذا مأخوذ باحصاء العموم وعدم الالتفات إلى الشواذ في عالميهما. وتدلل نظريات كثيرة على سبب هذا الاختلاف التكويني فهناك

النظرية القائلة بأن المورث الكروموسومي (Y) هو السبب في اختلاف مكونات الخلية الذكرية عن مكونات الخلية الأنثوية. وتعتبر تلك النظرية هذا العامل الجيني هو السبب في ميل الخلايا الذكرية إلى النشاط الأكبر وطبع الأنسجة التي تحتويها أو تحتويه بطابع الغلظة والصرامة. وهناك نظرية تعزو هذا الاختلاف إلى النشاط الهرموني. وتعطي هذه النظرية الهرمون الذكري مسؤولية نشاط الخلية الذكرية ابتداءً. وربما تعتبر هذه النظرية قدرة هذا الهرمون على احتقان السوائل والأملاح في الجسم الذي يسود وجوده فيه، سبباً في التضخم الميكانيكي للنسيج الذكري وبالتالي للجسم الذكري. وهناك النظرية العصبية التي تقول بوجود افراز تكويني للموصلات العصبية (NEUROTRANSMITER) في الذكر أكبر من افراز مثيلاتها في الأنثى. وتقول نظرية رابعة أن فرق حجم دماغ الذكر ودماغ الأنثى يوفر قدرة للأول في النشاط الكهربائي المرتبط بفارق المساحة السطحية التي يدخل في زيادتها حجم الدماغ. وتقول نظرية خامسة بأن مورثات الطول التي تجعل من الذكر على العموم فرداً أطول من الأنثى، مسؤولة عن اضافة الملحق التكويني للطول وهو الوزن - على وفق معادلة التوازن البيئي - البايولوجي للجسم. بينما تساوي نظرية سادسة بين القوتين الذكرية والأنثوية في البداية وتعتبر البيئة هي المسؤولة عن نشوء الفارق طبقاً لقانون ستارلنكك(Starling Law) في علاقة طول العضلة مع الجهد الذي تؤديه. ويستند هؤلاء في نظريتهم إلى أن الفارق الهرموني هو صاحب الأثر الأول إلى جانب فعل البيئة.

طبيعة الاختلاف الهرموني

أما عن طبيعة الهرمون السائد في كل من الذكر والأنثى فمما هو معروف أن الأندروجين هو هرمون الذكر والاستروجين هو هرمون الأنثى. ويؤثر هذان الهرمونان في الجنس الذي يسودان فيه في :-

(١) التأثير الوظيفي المرتبط بوظيفة الجهاز التناسلي.

(٢) الخصائص الجسمية الملحقة بالتكوين العام.
(٣) الخصائص النفسية للسلوك.
(٤) طبيعة النزوع العدواني.

وقد اتصفت طبيعة المرأة - بناء على هذه الاختلافات البايولوجية - بسلوك يختلف في ابعاده وعدوانيته خاصة عن السلوك الذكري. وربما كان في شرح الاختلافات التي أوردناها بين الهرمونين الذكري والأنثوي ما يكفي للدلالة على نتائج تلك الاختلافات في السلوك بينهما. ويقول بعض الباحثين أن الذكر الحديث الولادة المتعرض للاخصاء كما في بعض العادات القبلية التي تقوم بهذا العمل بمعيار شعائري ديني، يسلكون سلوكاً شبيهاً بالأنثى في ميلهم العدواني علي أنفسهم وعلى الوسط. بينما يرى آخرون أن عملية الاخصاء هذه لا تقدم تقريباً في الذكر لحالة الأنثى، ودليلهم في ذلك أن مسؤولية الاختلاف بين السلوكين لا تستند إلى الهرمون، بل إلى اختلافات جينية وبيوكيمياوية أخرى، ويجد بعض الدارسين أن المرأة لا تقل عدوانية عن الرجل، إن لم تكن أشد منه في بعض الحالات. ويقول هؤلاء أن الهرمون الذكري يحمل تأثيراً على الميل العدواني بشكل نوعي لا كمي. ولهذا فلا يرتبط مستوى أو نسبة هذا الهرمون في الأنسجة بشدة النزوع العدواني وفارقه. ثم يقولون أن الهرمون الأنثوي يحمل تأثيراً كمياً لا نوعياً. ويعتمدون في ذلك على تزامن الميل العدواني والاضطراب في الأنثى مع موعد حلول الدورة الشهرية وهي الفترة التي يزداد فيها مستوى الهرمون هذا، بينما لا تكفي كمياته القليلة في مدد ما بين كل دورتين - لاثارة الاضطراب والعدوانية. وتحتاج الأنثى لكي يتغير سلوكها إلى الاعتداء والهياج إلى كميات مضافة من الأستروجين وربما البروجستيرون.

العدوان والدورة الشهرية والحمل

إنَّ ملاحظة الاضطرابات النفسية العديدة التي يشكو منها كثير من النساء قبيل حلول العادة الشهرية لا تفسرها - في أغلب النظريات - إلا ظاهرة الاضطراب الهرموني واختلال النسبة بين الاستروجين والبروجستيرون في دمها. كما تقدم دراسة حالة الاضطراب والأفكار الاضطهادية والسلوك العدواني في المرأة. أما توقف العادة الشهرية أثناء الحمل - وهو ظاهرة فسلجية طبيعية - فيتزامن مع تبدل كبير في شخصية الحامل وسلوكها وظهور حالة التذمر والاستثارة من أبسط ما حولها من اثارات. وربما دفعها حالها هذا إلى ممارسة العمل العدواني على أطفالها ونفسها وبيتها. كما يفعل اضطراب نسبة الاستروجين - بقلة نسبته خاصة - فعله في الهايبوثالموس واللوزة والجهاز الحافي فيقلل من عتبة الألم وتزداد حساسية الحامل تجاه الآلام زيادة كبيرة مما يزيد في عدوانيته (وهذا ما أشرنا إليه في علاقة العدوان بالألم). وربما أحدث نقص الاستروجين زوالاً لعملية الكفّ لنشاط بعض المراكز العصبية فتعود تلك المراكز إلى اظهار مثل هذا النشاط الزائد وهذا ما نلاحظه في ظهور حالة الصرع أثناء الحمل على الرغم من عدم ظهور تلك الحالة في المرأة في فترات غير الحمل ولا يخفى مالعلاقة هذه المراكز (الصرعية) بالنزوع العدواني.

الثنائية وعدوان المرأة

تلعب العلاقة الجنسية - علاقة الأنثى بالرجل - دوراً بالغاً في استتباب النفس في الأنثى والحد من نزوعها العدواني وهذا ما يمكن أن نجد دوره السالب في سلوك كثير من النساء اللائي لم تحصل لهن خبرة الممارسة الجنسية - الزواج مثلاً - فهن في الغالب غضوبات، هائجات، متمردات يثيرهن ما يمكن اعتباره تافهاً من الأمور. ويرى بعض الباحثين أن هناك مركز استلام خاصة (Receptors) في الرحم، يعمل وجود الجنين عند تكونه على احداث الضغط الميكانيكي عليها

ويؤدي تمدد العضلات الرحمية ميكانيكياً إلى استقرارها واستقرار الرحم بالكامل ويؤثر على الاستقرار الهرموني على وفق قاعدة التغذية الخلفية الراجعة (Bio-feed back Mechanism) فيخلق وضعاً هادئاً في الأنثى. وبعكسه - كما في حالة العقم الأولي - فإن حالة التمدد هذه لا تحصل في الرحم ويخلق توتراً وهياجاً كما نرى ذلك في الوضع العدواني للمرأة التي لا تنجب.

إن الاشارة إلى وجود مثل هذه المراكز في الرحم ويخلق توتراً وهياجاً كما نرى في الوضع العدواني للمرأة التي لا تنجب.

إن الاشارة إلى وجود مثل هذه المراكز في الرحم وطبيعة عملها لم ترد إلا في بحث واحد منشور في إحدى دوريات النشرة العلمية التي تصدرها الجمعية الأمريكية لأمراض النساء والتوليد. وعلى الرغم من طرافتها العملية واشراقها فإنها تبدو ضعيفة امام النقاش العلمي بالمنظور الفسلجي كما دللت بعض الدراسات أيضاً على أن المرأة تستطيع أن تصل إلى الذروة الجنسية بدون الاتصال الجسدي مستفيدةً في ذلك من الكلام الرقيق المعسول والغزل والاباحات الهادئة المهدهدة لمشاعرها وجوعها العاطفي، ولذلك نجد أن المرأة التي تتلقى حباً مقنعاً لطموحها ومشبعاً لعواطفها أهدأ بكثير من تلك التي تبحث عن حب غير موجود. ويرى بعض الباحثين في التحليل النفسي أنه في الوقت الذي تزود فيه الذكر ببطن واحدة، تزودت الأنثى ببطنين، بطن يشبعها الأكل وبطن رحمية يشبعها وجود الجنين وبانعدام الاشباع الثاني تعاني الأنثى من جوع يولد بدوره احباطاً ونزوعاً للعدوان.

وراء عدوان الرجل امرأة

ظهرت في أوائل هذا القرن بعض الكتابات العلمية حول موضوع العدوان في المرأة وحاولت تلك الكتابات أن تدلل أن المرأة لا تقل عدوانية عن الرجل إن لم تكن أكثر منه في كثير من المواقف. وتقول تلك الكتابات أن المرأة تملك احباطاً

مزمناً ولده وهنها الجسماني وحالة الضعف في التركيب الهيكلي لها . وحاولت المرأة على وفق مبدأ التعويض أن تتسلل إلى الانتصار في هذا الجانب وتحقيق حالة عدوانية بمسارب وحيل دفاعية أخرى، فاستخدمت كثيراً من الوسائل مثل البكاء والحرد والازورار عن الشريك في مواقف الاحباط . كما عوضت عن هذا النقص العضلي في دفع الرجل إلى مواقع الصراع الفعلي فوقفت منه وخلفه – لا أمامه – تشد من أزره في المعارك وتحثه على القتال (الذي يمثل الرمز العنفي لنزوع العدوان لديها)، ترعد وتزبد أنها لا تحب إلا القوى، ذا السيف البتار وأنها مخطوبة قلباً لأقوى الرجال صرامة وشدة ومضاءً. وقد وجدت الدراسات الاجتماعية أنه لا يوجد في ذهن الرجل حافز أكبر من حافز رضا المرأة ربما يبدو هذا شرحاً بايولوجياً صرفاً ولكن عطاءه الاجتماعي يؤيد حقيقته، فالمرأة اكتسبت في ذهن شريكها مدعاة للتناخي الوطني ضمن اطارات المحافظة على السيارة الوطنية بقيمتها الشعائرية الكبرى(اللغة والعرض والقومية والتراث والعادات . . ومنها النواة الأولى والحاضن الأول لنشوء الرجولة الكبرى : – المرأة). إن الخوف الكبير من فقدان الرجل لعدوانيته في ذهنه هو خوف من ارفضاض الرضا الأنثوي حوله . إنَّ شرحنا هذا لا يعدم وجود نساء كان لهن من الاقبال النفسي والاجتماعي على قيادة المعارك ومصاحبة الجيوش – ولكن الشرح الذي نقدمه هنا شرح بايولوجي يحاول أن يجد أسساً لعلاقة الثنائية الجنسية بالعدوان.

عدوان المرأة والبيئة

إن أثر البيئة بينً في تحوير السلوك العضلي للمرأة. ففي المجتمعات الزراعية - حيث القوة الجسمانية مطلوبة في المقام الأول - وقعت على الرجل مهمة العمل العنيف والميل العدواني الدفاعي عن بيته وأملاكه التي احتوت ضمن ما احتوت على المرأة. أما في المجتمع الصناعي حيث خففت الآلة من حاجة الحياة إلى هذا المجهود العضلي، فقد أصبحت مشاركة المرأة في البناء بكل أشكاله قريبة من مشاركات الرجل إن لم تفقه أحياناً، ولكن تطور المجتمع لم يخف في المرأة نزوعها العدواني الذي يبرز من حين لآخر في مجالات الحيّاة. إن عواطف المرأة - وهي الهدف البايولوجي الأول لفعل هرموناتها - كثيرة التبدل، قاسيته، فقد تكون لينة رقيقة في حين أنها صعبة، مجافيةً في حين آخر. وعلى حساب هذه الفورات والانطفاءات العاطفية تتأرجح المسألة العقلية كثيراً. وهذا ما يجعل الطريق أمام المرأة شائكاً وصعباً عند اتخاذ قرار يتطلب المزيد من التبصر العقلي والمماحكة الحسابية للأمور. أن من يظن أن عالماً تحكمه النساء، سيسوده السلام بدل الحروب، مطلوب منه أن يراجع حساباته في ذلك.

الفصل السادس
العدوان والجريمة

مقدمة

كثيراً ما ارتبط السلوك العدواني البشري بالعنف، وكثيراً ما اتخذ السلوك الجرمي أو القيام بجريمة معينة تعبيراً عن مثل هذا العنف. ولما كان لدينا الكثير من العدوان في الانسان لا يفضي إلى ارتكاب جريمة أو حصولها، فيمكن أن يكون هناك عدوان بدون مفرزات جرمية، إلا أنه من الصعب على الباحث خاصة أن يفرق بين جريمة وعدوان، مثلما يصعب عليه أن يفرق بين عدواني ومجرم. فليس كل عدواني في سلوكه مجرماً كما عرفنا أثناء تناولنا البحث عن العدوان بأدواره الموجبة البناءة، ولكن كل مجرم أو مرتكب لجريمة عدواني بالضمن – ضمن الاطار السلبي لمفهوم العدوان. ونود في هذا الفصل مناقشة السلوك الاجرامي في الانسان من باب علاقته بالعدوانية البشرية، ومحاولة مثل هذه تهدف بالتأكيد إلى استبيان حدود العلاقة بينهما. كيف يؤدي العدوان إلى جريمة؟ هل الجريمة تفريغ شعوري واعٍ للدافع الفطري؟ هل الجريمة ازاحة دفاعية لنزوع عدواني – بتغيير اتجاهه – نتيجة موقف احباط؟

نظريات تشرح استعداد الفرد للجريمة

(١) نظرية الوراثة: تقرر هذه النظرية أن الانسان يمكن أن يرث الميل الجرمي من أسلافه وعليه فمثلما يمكن أن يوجد وريث مجرم فإنه يمكن أن يوجد مورث مجرم. وتستند هذه النظرية إلى احصاءات بيئية وإلى بعض التفسيرات البايولوجية كالطفرات الجينية والتأثير الكروموسومي، واختلافات الـ(DNA) في الخلية. ولكن هذه النظرية لا تجيب عن سؤال كبير مطروح أمامها: أين بدأت الجريمة؟ في أي الأجناس؟

هل هناك مواصفات تشريحية وفسلجية للانسان لكي يكون مجرماً؟ إن معُتنقي هذه النظرية يفصلون بالنتيجة، بين العدوان البشري وبين السلوك الجرمي؛ لأنهم يقررون ؟أن الانسان لكي يكون قادراً على الاتيان بعمل جرمي، يجب أن يكون حاملاً لتغيرات تشمل الخلية وكيميائيتها.

(٢) نظرية الغرائز: تعتبر هذه النظرية العمل الجرمي في الانسان انفعالاً حركياً نتيجة الدافع الجبلي الفطري الذي يستند إلى وجود الغريزة(القتل والفناء).

وهذه النظرية تعتبر العدوان كلاً غير قابل للفصل وأن الدافع واحد(دافع فطري جبلي) ومسألة الجريمة مسألة مرحلية في السلوك تتعلق بشدة الانفعال ونوع السلوك الناتج قد يصل إليها الانسان كممارسة وقد لا يصل إليها.

(٣) نظرية البيئة: تعتمد هذه النظرية مبدأ صناعة الجريمة في الانسان بتأثير الوسط الذي يعيش فيه، وتقرر هذه النظرية أن الانسان في الأصل كائن غير مجرم، ولكن الجريمة سلوك خاطيء تمليه عليه الظروف الصعبة التي قد لا توفر له الخيار الأمثل لاجتناب مثل هذا السلوك.

(٤) نظرية التعلم: تفيد هذه النظرية أن الجريمة - كسلوك عدواني - لا تعدو كونها أفعالاً منعكسة شرطية، يمكن أن يتعلمها الفرد في وسط يسمح باكتساب مثل هذه المعرفة السلوكية الخاطئة. وترى هذه النظرية أننا يمكننا أن نصنع مجرمين مثلما يمكننا أن نصنع انساناً فاضلاً بواسطة التعلم. وترى هذه النظرية أيضاً أن تعلم الاستجابة في الكائن البشري بطريقة الاجرام هو اكتساب مثل بقية الاكتسابات، يمكن تعزيزها واطفاؤها بوسيلة معينة وزمن معين.

(٥) نظرية اللذة والألم: ترى هذه النظرية أن الجريمة تحقق اللذة، ويعمل التحقيق للذة هذه بصفة المدعم للاستمرار فيها. وقد يكون هذا السلوك على وفق دافع داخلي أو تشترك به البيئة الخارجية بوسيلتي الثواب والعقاب.

(٦) نظرية الارادة الحرة: وهي نظرية فلسفية ترى أن الانسان لا يملك قدراً من المسؤولية تجاه جريمته، لا بدافع داخلي ولا بتحكمات بيئية معينة، وترجيء هذه

النظرية نزعة الاجرام فيه إلى قوى عليا تسيره كما تسيره قوى عليا نحو الخير.
وقد كانت هذه النظرية من السعة والانتشار ما جعل لها منظرين وعشاقاً كما جعل لها ناقدين ومنتقدين لا نتناوله هنا لأنه خارج موضوع الدراسة.
(٧) النظرية العصبية: ترى هذه النظرية أن الأسس البايولوجية للسلوك الجرمي تستند إلى كيفية تكوين الجهاز العصبي المركزي والجهاز العصبي الذاتي وجهاز الغدد الصماء. وقد قامت في مجال هذه النظرية دراسات عديدة محاولة ايجاد علاقة بين نشاط هذه التكوينات الجسمية والميل الجرمي. ولعل نظرية فريمان في عام ١٩٤٨م من أهم وأوائل هذه الدراسات. لقد قسم فريمان الناس مزاجاً على متغيرات ثلاثة: (١) استثارة الدافع (٢) تفريغ الضبط (٣) القدرة على التمييز. فاستثارة الدافع يعينها ادراك المنبهات ذات الدلالة. ويتضمن الضبط تقدير عواقب الفعل. وتتحدد القدرة على التمييز باستخدام الفرد لمعلوماته عن البيئة واستثارة الدافع بقوة مع ضعف الضبط قد تؤدي إلى اقتراف الجريمة. وربما إلى الانتكاسة والمرض كما في حالة بعض الأمراض النفسية. أما في حالة ضعف الدافع وزيادة الضبط فإن ذلك قد يؤدي إلى العزلة وخلق فردمنتكس، خجول.
(٨) النظرية الجسمية: وناقش كرتشمر، الطبيب الألماني، علاقة المقاييس الجسمية بالميل الجرمي فميز ثلاثة أنماط جسمية:-
(١) النمط النحيل: Asthenic وهو ما يتيميز بالنحافة وفقر الدم وجفاف الجلد وطول الأطراف ورقة اليدين.
(٢) النمط الرياضي Athletic: وهو ما يتميز بانتشار العضلات وضخامتها ونحافة الخصر والحوض.
(٢) النمط السمينPyknic: وهو ما يتميز باستدارة الجسم واتساع الحوض وسمنة الأطراف. وقد ربط كرتشمر بين ظهور الأمراض العقلية وبين هذه الأنماط، فرشح النمط السمين لأمراض الجنون الدوري المميز بظهور الحالات الهوسية. بينما رشح النمط النحيل لحالات الفصام، واعتبر النزوع الاجرامي

مظهراً مرافقاً لهذا البنيان الجسمي إما بمصاحبة الحالة المرضية أو كنزوع تعويضي يمارسه الفرد بديلاً عن ظهور الحالة المرضية. أما شلدون فإنه يطبق الأنماط بشكل آخر ويقول أيضاً بوجود ثلاثة منها ومن الجانب، وبوضع الفلم السلبي للصور الثلاث على بعضها وأعادة تصويرها ومانقشة الناتج ومن تصويرها بعد التطابق، ميز شليدون ثلاثة أنماط:

(١) النمط البطني Endomorphy ويتميز بامتلاء الجزء حول الجهاز الهضمي وظهور السمنة.

(٢) النمط العضلي Mesomorphy ويتميز بسيادة العضلات والعظام.

(٣) النمط النحيل Ectomorphy ويتميز بالنعومة والرقة والنحافة.

وقد أعطى شيلدون درجات لكل نمط ووضع مقياس (٧) كحد أعلى لكل نمط: فإذا كان الفرد قد حصل في هذه التجربة على ١-٧-١ فهو من النمط العضلي المتطرف، العدواني المرشح لقيامه بالجريمة. أما إذا كانت (٣-٣ ٣) مثلاً فهو متوازن الأنماط غير اعتدائي وغير مرشح للقيام بالجريمة.

الجريمة والبيئة

تقول مدارس كثيرة أن العدوان الجرمي البشري لا يمكن له أن يظهر إن لم تتوفر بيئة مساعدة على تحويل الانسان إلى مجرم. وتبريء هذه الدراسات ساحة الانسان من الميل الجبلي إلى الجرم. وتلقي بالمسؤولية في ذلك على عاتق ظروف الوسط. وأهم هذه النظريات التي تربط بين البيئة وظهور الجريمة كتعبير عنيف ما يأتي:

(١) التحضر وطبيعة المجتمع الصناعي: مفاد هذه النظرية أن تحول الانسان إلى المجتمع الصناعي لعب دوراً كبيراً في ظهور الجريمة أو نزوعه إلى العمل الجرمي. وذلك لأن ظهور المدنية ساعد على التباعد العائلي وانحلال أواصر التعارف واللقاء الرحمي وساعد كذلك على ظهور عامل العزلة، والعزلة كما أسلفنا هي

إحدى مثيرات العدوان الذي قد يمتد حتى يتحول إلى سلوك جرمي(باعتبار أن العدوان حالة استعدادية سابقة على النزوع الجرمي). ولا يخفى ما لارتفاع تكاليف المعيشة وصعوبة الناحية الاقتصادية من أثر في ظهور أنماط جديدة في حياة الفرد كنمط جرائم السرقة والادمان والجنس.

(٢) الجغرافية: ترى هذه النظرية أن البيئة لا توزع السكان وحسب بل تغير طباعهم أيضاً. وقد درست هذه النظرية طباع فئات اجتماعية عديدة مقارنة بالحالة المناخية من تربة ورطوبة وحرارة وأمطار، وقد اختلفت نتائج الأبحاث إلى الحد الذي لا يمكن اعتماد واحد منها ورقة عمل ثابتة لتقويم الحالة ولكنها تبقى عملية ومفيدة بالمنظور الاحصائي في الأقل. فالبرودة الشديدة قد تؤدي إلى اجتماع أعداد كبيرة من الأسرة أو الأسر المتجاورة في ساعات طويلة من السمر والمؤانسة في البيوت أو المحلات أو الأندية مما يجعل هذه اللقاءات بمثابة جلسة علاج جماعية تخفف من وطأة العزلة الفردية ويؤدي ذلك إلى تخفيف نزعة السلوك العنفي بتغيير الوضع الاجتماعي للفرد. كما يؤدي جفاف الأرض وجدبها إلى نشوء مجتمع فقير يلجأ أفراده إلى السرقة وسلوك الاجرام.

(٣) الطقوس: يؤدي ايمان مجتمع ما بطقوس معينة كالطقوس الدينية أو الاجتماعية الأخلاقية إلى فرض حظر على السلوك العام لأفراده وبالتالي إلى محاصرة السلوك الجرمي في الفرد وتضييق دائرته وربما إلى تلاشيه وزواله.

(٤) الثقافة: ثقافة المجتمع تؤثر تأثيراً كبيراً في ظهور الجريمة. وقد لعبت الثقافات المنحرفة في اعلامها وتربيتها دوراً كبيراً في ظهور جرائم الجنس. فالدول التي تسمح بثقافة جنسية خاطئة عبر دورها ووسائلها الاعلامية، سرعان ما تقطف ثمار جرائم الجنس بأشكالها في أجيالها من الجنسين على السواء. والمجتمع المتخلف قد يعزز ظهور الجريمة ويساعد على نشوئها. فقد ينظر مجتمع في ثقافته إلى الفرد السارق على أنه بطل وشجاع يمتلك من القدرات الشخصية ما لا يمتلكها غيره، فيحترمه ولا يحترم سواه ويوصمهم بالتخنث والذلة. وهذا

المنظور يعزز كثيراً من تمادي الفرد في سلوكه الاجرامي وربما يحول كل نزعاته العدوانية إلى مسار جرمي.

(٥) الأسرة : وتمثل الأسرة المجتمع الأولي المصغر في مخيلة الفرد ويستلم منه كل معطيات التعلم والعادات المكتسبة . والفرد الذي ينشأ في أسرة مفككة متخلِّفة ، يسود الأبوين فيها العصاب والتشرد قد ينشأ مهيأ للجريمة .

على أننا يجب أن لا ننسى الفروق الفردية في ذلك والتي لا تمنع من ظهور القاعدة العامة . فقد ينشأ في أسرة واحدة فرد مجرم ومعه أخوه لا يملكون مثل هذا الاستعداد . أو قد ينشأ فرد مجرم لأبوين مسالمين هادئين كما قد ينشأ فرد هادئ الطبع ، محجم عن كل سلوك جرمي لأب يعج تاريخه بالجرائم . وهنا يجب أن نراعي الأسس البايولوجية في الفرد والطفرة التي تطبع كل فرد بسمات يختلف فيها عن سمات مورثه أو سمات وريثه .

الفصل السابع
العدوان وأخطاء الجنس

مقدمة

قسم فرويد وتلاميذه مراحل النمو الجنسي على :-

(١) المرحلة الفمية : وتتركز اللذة في هذه المرحلة في الفم؛ فهو سبيل الطفل لاشباع دوافعه الداخلية، ووسيلة اتصاله بالعالم الخارجي. وحالة الطفل بعد الشبع وحالة استرخائه تشبه حالة الاسترخاء بعد الانتهاء من الممارسة الجنسية عند البالغ. وقد لوحظ أن هناك تثبيتاً يعاني منه البالغون في قسم كبير منهم يعود إلى تلك المرحلة. فالقبلة والتدخين وشرب الخمر والمخدرات والتواصل الجنسي الفمي مراحل تثبيتية أو رموز لبقايا تأثير تلك المرحلة السالفة في حياة الفرد.

(٢) المرحلة الشرجية : وتتركز اللذة في هذه المرحلة في فتحة الأُست والمستقيم. وتبرز هذه الممارسة لدى الطفل في حدود سنته الثالثة. وتكون هذه اللذة مصاحبة لعملية « التبرز» و « التبول» وكثيراً ما يعاقب الطفل والده الرافضان لاستمرار تبوله أو تبرزه ومنعه من هذه العملية بأن يؤديها في إماكن يمنعانه منها كغرفة الجلوس مثلاً. كما قد تؤدي عملية الامساك أو التغوطّ المفرط « الاسهال» نفس هدف الاعتراض. وقد يعاني الفرد الذي لم يحقق اشباعاً لهذه المرحلة في كثير من سلوكه القادم كأن يصبح نحيلاً نتيجة رمزية لتعبيره عن الامساك الذي درب عليه ومنع فيه من أداء عملية التغوط صغيراً كما قد يصبح متلافا إذا كانت تربيته من قبل أمه تحثه على كثرة التبرز.

(٣) المرحلة القضيبية : هنا يصبح القضيب وملامسته مركز اللذة لدى الطفل وتمتد هذه المرحلة إلى السنة الخامسة.

(٤) مرحلة الطفولة المتأخرة أو المراهقة المبكرة : وفيها يحدث حال من الكمون والكف للاستمتاع بالمظاهر الجنسية ما تلبث أن تعود ويرجع فيها الطفل إلى

تفحص حالته الجنسية والاعتناء بها.
إنَّ أياً من هذه المراحل قد لا تشبع بشكل كاف. أو قد يتم اشباعها بشدة أو بنقص وأي نقص أو زيادة في الاشباع قد يترك تثبيتاً يرجع إليه الفرد لاحقاً. وتشرح نظرية التحليل النفسي أخطاء واضطرابات الحالة الجنسية وابتعادها عن مسارها الصحيح.

العوامل التي تؤدي إلى الانحراف الجنسي

(١) الاشباع الزائد في مرحلة من المراحل النضجية يجعل الفرد يواجه صعوبة في التخلي عن تلك المرحلة فتقوم ممارساته رمزاً لتلك المرحلة، كما أن الحرمان من ذلك الاشباع قد يؤدي إلى معاودة تذكرة ذكريات غير مشبعة لمرحلة من المراحل وارتجاعها.
(٢) الشعور بالاحباط مما يعيق التقدم إلى مرحلة أخرى ويؤدي إلى انفصال الفرد عن المسايرة الطبيعية لنضجه والتجائه، إلى مرحلة سابقة لتمثيل حاجاته.
وقد التفت بعض الباحثين إلى تزامن حالة العدو مع ظهور الانحراف الجنسي، ووجد هؤلاء أن الأفراد المنحرفين جنسياً يمارسون اسقاطاً لعدوانيتهم بطريقة جنسية خاطئة فعندما لا يستطيع الفرد المنحرف الخلاص من ربقة مرحلة من مراحل نموه الجنسي، يجد لذة خاطئة مشبعة لحاجاته بطريقة خاطئة؛ وبالقيام بعمله المنحرف، يشعر بحالة تفريغ لعدوانيته على الوسط. ولهذا يرى فرويد أن المنحرفين لا يعانون من أذى الصراع أو تأثير الكبت على ظهور العدوان لأنهم ينفسون عن الدافع الجنسي ويحققون سبيلاً للذة وبينما يعاني مريض العصاب من القلق الناتج عن الخوف من التعبير عن الحاجة الذاتية، نجد أن المنحرف جنسياً لا يعاني من القلق وذلك لتحقق مبدأ اللذة بعيداً عن المعيار البيئي والاجتماعي.

العدوان والجنسية المثلية

يقصد بالجنسية المثلية: اتجاه الدافع الجنسي في الفرد إلى فرد من جنسه. فلا يميل الرجل جنسياً إلا إلى رجل مثله ولا تميل المرأة إلا إلى امرأة مثلها. وعلى الرغم من اشارتنا في فصل سابق إلى تأثير الأنيما والانيموس - جانبي الأنوثة والذكورة في الذكر والأنثى على التوالي - على ظهور الجنسية المثلية، فإن الأبحاث التي حاولت أن تجد أساساً بايولوجياً أو مختبرياً للجنسية المثلية لم تحقق شيئاً يستحق الاعتداد به. وترى بعض الدراسات النفسية الاجتماعية أن ارتداد الفرد إلى تعشق ذاته وبالتالي إلى تعشق أبناء جنسه(المثل) يعود إلى موقف احباطي مزمن تجاه الجنس الآخر فيعبر عشق المثيل عن اعتراضه على هذا الاحباط. إن جميع الناس مثليون في علاقاتهم وإن اختلفوا في الدرجة. إن الميل الذي نبديه نحو أبناء جنسنا وقضاء الساعات الطويلة في حضورهم وغشيان مجالسهم، يشرحه علم النفس على أنه نوع من المثلية التي تتضمن أساساً جنسياً لا يرتفع إلى مستوى الممارسة الشاذة. وربما أدى الاختلاط المبكر بين الجنسين إلى التقليل من ظهور المثلية بكل درجاتها بما فيها المثلية الجنسية. لا يملك الرجل ذو الميل الجنسي المثلي زيادة في زيادة في هرمونه الأنثوي ولاتملك المرأة ذات الميل الجنسي زيادة في هرمونها الذكري. ولم تؤيد الدراسات مثل ذلك أبداً. وتفسر الدراسات الميدانية ظهور النزوع أو السلوك المرتبط بالجنس الآخر لدى الفرد كاللباس أو تصفيف الشعر أو تكحيل العينين أو تلوين الخدود أو صبغ الشفاه أو ارتداء الملابس المثيرة على أنه تعبير عن احباط تجاه الجنس الآخر(المقابل)؛ واشعار واع عن انتفاء الحاجة إلى المثير الجنسي الطبيعي بمثير يمكن اصطناعه ونادراً ما نجِد ميولاً عدوانية لدى الجنسيين المثليين نظراً للارضاء أو الاشباع الخاطيء الذي تقدمه الممارسة الجنسية الخاطئة كحل للتوتر الحاصل بسبب الاحباط.

العدوان والعادة السرية

في سياقاتها الطبيعية بدءاً من المراهقة وحتى مراحل العمر الأخرى؛ لا تشير العادة السرية الجنسية(الاستمناء) إلى أي مؤشر لعلاقتها بالحالة العدوانية، ولا تعبر عن موقف في السلوك يمكن أن يدلل على نزوع عدواني على المحيط أو الذات. فهذه الممارسة الجنسية المفردة التي تصنعها ملامسة الأعضاء التناسلية وتساعدها المخيلة لا تؤشر حالة من حالات الاضطراب الجنسي في حياة الفرد وهي شائعة في حياة الناس، ولكن بعض الدراسات تؤكد أن العادة السرية التي يمارسها البعض عقب احباط معين في موقف جنسي معين قد تفضي في إحدى نتائجها إلى توتر نفسي يزيد من النزوع العدواني في الفرد. فإذا ما أخفق فرد في لقاء جنسي - كأن يكون تجربة أولى أو ممارسة في موقف فزع أو خوف - ولجأ إلى العادة السرية، فقد تزيد هذه الممارسة الشعور بالذلة والاخفاق الاجتماعي الذي كان يجب أن يتحقق مع الشريك الطبيعي فتزيد بذلك من التوتر المؤدي إلى العدوان. كما أن فشل أحدهم في الفوز برضا وحب معشوقه مع اخفاق كل محاولاته، قد يحيله إلى لقاء معشوقه في الخيال وممارسة تلك العادة على أمل كاذب زائف وهذا ما يزيد الاحباط في الموقف ويعجل في ظهور الاكتئاب وممارسة العدوان على الذات.

العدوان والنرجسية

النرجسية هي حب الذات المفرط؛ وتشمل ضمن ما تشمله الحياة الجنسية للفرد وفيها لا يصل الفرد إلى الذروة الجنسية إلا برؤية نفسه في الصور والمرايا وبأوضاع شتى وأوقات مختلفة. ويشير التحليل إلى أن الفرد النرجسي عانى من تثبيت على المرحلة القضيبية، فهو انعزالي في طبعه وكثيراً ما يميل إلى قضاء حاجاته الجنسية بواسطة العادة السرية. وعندما تؤدي النرجسية إلى ظهور العزلة كواحدةٍ من مظاهر حياة الفرد فإنها تزيد من ميله العدواني وسخطه على المحيط

الذي لم يستطع أن يقدم حلولاً لمشاكله بطرق ممارسة الجنس الطبيعية .

العدوان والاستعراء

يقصد بالاستعراء كشف الأعضاء التناسلية الذكرية علناً للنساء في مكان عام، ويشعر المتعري في ذلك بلذة لا يحققها له غير ذلك العمل . والمنحرف بالاستعراء فرد محبط العلاقات، لم يتخلص من عقدة أوديب ويعاني من تثبيت في المرحلة القضيبية ويحاول هذا الفرد اتخاذ التعويض آلية دفاعية للانتصار على مواقفه السابقة تجاه الجنس الآخر . ويعتبر المنحرف هذا الجنس الآخر مصدر احباطه . وكثيراً ما نجد شيوع هذه الظاهرة في الرجال المسنين . ويرشح باحثو النفس الفسيولوجيون ظهور وهن وتلف عضوي في لحاء مخ مثل هؤلاء الأفراد مما يجعله عاجزاً عن احداث حالة كف للنزوع العدواني لمراكز الاثارة تحته ويتم التعبير عنها بهذه الطريقة الجنسية الاستعراضية .

العدوان والممارسات الجنسية الفمية

وهنا يشتق الفرد مصدر اللذة من فمه، فيلمس الأعضاء التناسلية للجنس الآخر بفمه وتتلذذ المرأة بإنهاء العملية الجنسية في فمها . ويرى الباحثون ذلك أن مثل هذا السلوك يمثل اعتداء على الذات كنوع من العقاب نتيجة احباط قابلوه أثناء محاولة استدرار اللذة بطريقها الطبيعي وتمثل تثبيتاً للمرحلة الفمية .

العدوان والأثرية

يتجه النزوع الجنسي في الأثرية نحو رمز من رموزه الأخرى في الجنس الآخر كالملابس الداخلية والحلي – ولا تتم الاستثارة الجنسية لدى هؤلاء المنحرفين إلا بارتداء نوع معين أو حذاء معين . وهؤلاء المنحرفون محبطون تجاه الموقف الجنسي الطبيعي ويقدمون عملاً اسقاطياً . وكثيراً ما يقومون بجريمة سرقة بعض الملابس والأشياء التي تشبع فيهم الدافع الجنسي ويعاني هؤلاء كثيراً من شعورهم بسيطرة الجنس الآخر عليهم، وأعمال السرقة التي يقومون بها هي تعبير عدواني يتخذ

آلية الازاحة للتنفيس عن هذه الهيمنة .

العدوان في المرأة ومرض السرقة

تعزو بعض الدراسات النفسية ظهور ميل بعض النساء إلى السرقة بشكل مزمن إلى تأصل الشعور لديّهن بموقف احباط تجاه النقص البايولوجي التكويني في الجهاز التناسلي وافتقارهن إلى القضيب . وتعمل آلية التعويض عملها في تحويل تلك المرأة إلى ممارسة العدوان بالسرقة كرد على الاحباط .

العدوان والسادية والماسوشية

الرجل السادي لا يحصل على اللذة الجنسية مع شريكه إلا بايلامه بالوسائل التي لديه كالضرب المبرح الذي قد يصل حد اسالة دمه والمرأة الماسوشية لا تحصل على اللذة الجنسية مع شريكها إلا عندما يبدي لها المزيد من العنف والأذى . وتعزو الدراسات حالة ظهور السادية إلى مواقف الاحباط التي يعانيها الرجل تجاه المرأة وشعوره بعدم انتصاره عليها أو اخضاعها لارادته فيخيل إلى مبدأ فقير من مبادئ التعامل الجنسي والانحياز إلى جهة العنف . إن كل سادي يحمل بعض الصفات الماسوشية وكل ماسوشي يحمل بعض الصفات السادية .

الفصل الثامن

العدوان البشري في المنظور الباراسايكولوجي

مقدمة

الحديث عن الباراسايكولوجي في الانسان هو الحديث عن الجديد في النفس. وبعبارة أصح هو الحديث عن إعادة قراءة الظواهر القديمة التي لم تجد لها عملياً شرحاً موفياً، قراءةً جديدة. وإذا ما تقدم هذا الموضوع في أساليب الكشف، فإنه سيقدم فتحاً كبيراً في مغاليق النفس البشرية. ويدرس هذا الموضوع الظواهر الخارقة في السلوك الانساني والتي تظهر عند عمومنا بشكل ضيق - ولكنه موجود - وعند بعضنا بشكل واضح، ملفت للنظر. ولقد ظلت هذه الظواهر خاضعة للمناقشة الفلسفية والتكهن، تتخبطها اجتهادات العرافين وأدعياء الحقيقة زمناً طويلاً. ويمتد الشوط بهذا الموضوع حتى يصل إلى مناقشة كل مناحي السلوك الأنساني. ونحاول في هذا الفصل أن نناقش الميل العدواني في النفس البشرية في ضوء علم قواه الخارقة محاولين أن نجد علاقة بين المخفي الخارق من قدرة الانسان وبين البين الملموس من سلوكه.

المؤثرات في علم الباراسايكولوجي

أثرت فتوحات كبرى في الفكر العلمي الانساني وفي مسيرة قوته الخارقة وقدمت اسهاماً فاعلاً في دفع محاولات الاستكشاف. هذه المؤشرات هي التحليل النفسي وعلم الفلك ونظرية الارتقاء والتطور. فلقد قدمت مدرسة التحليل النفسي ظاهرة اللاشعور التي بينتّ أن للنفس مجالات أخرى. وأوضحت أن ما يمكن مراقبته من السلوك الانساني لا يمثل إلا العمليات الواعية التي يلامس بها الفرد المحيط ولكنها لا تعين حقيقة سلوكه وجلية خفاياه. وأن الحياة الأخرى التي تستكن في العقل الباطن هي الأساس في قيام الانفعال العام

وبرمجة الدوافع الجبلية التي تولد مع الانسان وتحمل طبعات الوراثة ومكونات الخلية. وقدم علم الفلك كثيراً من التصور المقبول عن علاقة الانسان بما حوله من الفضاء الأثيري وحاول ويحاول أن يعتبر الانسان وجوداً قبل وجوده الجسدي. فالانسان في هذا المجال جزء من المنظومة الفلكية التي تعتمد الشد الكهرومغناطيسي أساساً (لوحدة الوجود). كما قدم هذا العلم حركة الكون وديناميه الخلق ووجود ترابط الحركة الاهتزازية التي توحد السيال الحي في الكائنات والأثير. والانسان على هذا الأساس محكوم بالتواصل، رهين بالاستجابة لمؤثرات البيئة وظروف الجغرافية بكاملها. وقد لعبت نظرية النسبية والاضافات التي قدمتها وخاصة في مداليل البعد الرابع «الزمن» فتحاً جديداً في مسيرة السلوك الانساني وعودة علم الخلية إلى أسسه الفيزياوية الأولية. أما في نظرية الارتقاء والتطور فإن النظرة التي احتكم اليها الباحثون في المقارنة بين الارتقاء السلوكي والارتقاء البايولوجي الجيني قدمت أيضاً شرحاً للمفارقة والتفاوت الهائل بين التقدم السلوكي والتقدم الطفري الجيني ودللت أن المقارنة بين الارتقائيين محاولة في عالم السخرية.

علاقة السلوك المحسوس بالسلوك اللامحسوس

يمتلك بعض الناس قدرة حسية فائقة لا تتوفر لغيرهم. وقد سجلت هذه الظواهر في العديد من المراكز النفسية ودونت في البحوث. وقد رصدت ظاهرة التخاطر التي يستطيع الفرد المالك لها قراءة فكر فرد آخر أو التأثير عليه بدون استخدام أية وسيلة محسوسة، وبغض النظر عن المسافة التي تفصل بينهما. وعندما يستطيع الفرد الأول قراءة أفكار الفرد الثاني بطريق (اللاوسيلة)، فسوف يكون رد فعل وسلوكاً محسوساً بناء على فهمه لأفكار هذا الطرف. وفي التجربة الشهيرة التي أجريت على المتخاطرين السوفيتيين (نيليا ميخائيلوفا) و(كامنسكي)، استطاعت نيليا التي وضعت في إحدى المختبرات في موسكو أن

تقرأ أفكار كامنسكي الذي أودع احدى مختبرات لينيغراد على مسافة لا تقل عن ٥٠٠ ميل عن نيليا.

وبعد مدة وجيزة أظهرت نيليا مزيداً من الاضطراب والتوتر وأمارات القلق ونوبات النزوع المهتاج وأصدرت كلمات وبدا عليها الشكل النموذجي للانسان الغاضب الذي يمكن أن يصدر عنفاً على نفسه وعلى الوسط. وعندما سئلت المتخاطرة نيليا عن سبب ظهور هذا الميل العنفي لديها أجابت أن كامنسكي - المتخاطر الثاني في لينيغراد - يبدي تجاهها شعوراً بالعدوانية والميل لايذائها وأنها تضطرب وكرد فعل لهذا الشعور. ربما تقودنا هذه التجربة الباراسايكولوجية إلى أن الانسان يتحرك في سلوكه المحسوس وبضمنه السلوك العدواني طبقاً لاستجابات غير محسوسة يتلقاها من البيئة (الأشياء، الحوادث، الأفراد). ويفسر الباراسايكولوجي النزوع العدواني بأنه استجابة لاحقة لتخاطر فكري سابق عليها. يعني هذا أن هناك شبكة فكرية تربط أدمغة الناس في عالم (اللاحس) أو عالم الحس الفائق. وأن تصرفنا وسلوكنا يتبنى طبقاً لمحتوى هذه الشبكة الفكرية. وقراءة أفكار الأشخاص الآخرين قدرة تتوزع على الناس بنسب متفاوتة. يبدو أن الانسان محكوم في سلوكه بردود فعل الوسط عليه كما يقرر ذلك المنظور الباراسايكولوجي. وأقرب النظريات التي يناقشها اباراسايكولوجي في هذا المضمار نظرية الاشعاع الكهرومغناطيسي من المساحة السطحية للفرد والأفراد الآخرين. ويتصرف الفرد سلوكاً في ضوء مقدار الاشعاع هذا من جسمه وعلى مقدار قدرته على استلام الاشعاع من الآخرين. واختلاف الناس في الاستجابة السلوكية تتوقف على مقدار اشعاعهم واستلامهم للاشعاع المقابل.

نظريات تشرح علاقة العدوان بالحس الفائق

إن الأبحاث التي ظهرت حديثاً في مجال الباراسايكولوجي والتي حاولت أن تقرّر هذا الموضوع في حقل الاختبار والتجريب، استندت إلى افتراضات عديدة نذكر أهمها :-

(١) النظرية الكهرومغناطيسية : تقول هذه النظرية أن الخلية العصبية تحمل مقداراً معيناً من الشحنة الكهربائية التي يتكون من مجموعها في جميع الخلايا مجال كهرومغناطيسي يلف الجسم البشري. ويؤدي هذا المجال إلى طبع السلوك الانساني بطابع التجاذب أو النفور طبقاً للمجال الكهرومغناطيسي في الأفراد الآخرين. ويتحول سلوك الانسان على هذا الأساس إلى طابع معين من العنف أو الفتور.

(٢) نظرية كهربائية الدماغ : من الأمور التي أثبتتها أبحاث علم النفس أن هناك كهربائية في الدماغ البشري يمكن تقصي أثرها في مخطط الدماغ الكهربائي الذي يبين نوع الموجات الكهربائية في حالات عديدة. وبمقارنة مخططات الدماغ للاشخاص المتخاطرين والذين أبدو سلوكاً عدوانياً تجاه بعضهم ثبت أن هناك علاقة بين تطابق الكهربائية الدماغية الظاهرة في المخطط الدماغي ونوع السلوك في الفرد.

(٣) النظرية الحيوية : تقول هذه النظرية أن التغيرات البيوكيمياوية في الدم والسائل الدماغي ونسب الهرمونات السابحة في الدم تلعب دوراً كبيراً في السلوك الفردي، وتقول نظريات الباراسايكولوجي أنه يمكن أن يحصل السلوك العنفي عند الفرد في حدود معينة من مقادير هذه الكيمياء والهرمون، ويندر حصوله خارج تلك الحدود. وتحصل استجابة العدوان عندما تكون كيمياوية الدم ونسب الهرمونات متقاربة في فردين يسقط أحدهما نزوعاً عدوانياً على الآخر. وأن الأفكار الاضطهادية أو العدائية التي يقدر الفرد صدورها من الطرف الآخر خاضعة - حسب هذه النظرية - لتأثير التغيرات في الأحماض الأمينية

والهرمونات على أجزاء الدماغ الحافي والهايبوثالموس، حيث يتم التأثير بالتالي على قشرة الدماغ في المتخاطر ويؤدي ذلك إلى اسقاطها على الوسط بشكل سلوك حركي عنفي.

(٤) نظرية التوزيع الجغرافي :- تربط هذه النظرية بين سلوك الفرد والبيئة الجغرافية التي تتوزع على الرياح والأمطار والبرودة والرطوبة والحرارة. وتشير الأبحاث الباراسايكولوجية إلى أن الرياح التي تهب على بعض المناطق في شرق الأبيض المتوسط تثير نزوعاً عدوانياً واضحاً في سلوك الأفراد الذين يتعرضون لها وحالما يتوقف هبوب هذه الرياح يعود هؤلاء إلى الهدوء والسكينة في السلوك. وتشير تلك الأبحاث إلى أن طباع سكان القطب الشمالي من الكرة الأرضية أقل عدوانية من طباع أهل القسم الجنوبي طبقاً لتأثيرات المطر والبرودة. وهذه النظرية تحاول الربط بين التغير الحاصل في البيئة والمناخ والتغير الحاصل في كيميائية وكهربائية الجهاز العصبي في الفرد.

(٥) نظرية البعد الرابع(الزمن): تقول هذه النظرية أن مدار الأرض حول الشمس في اقتراب وابتعاد عنها في عملية تكوين الفصول تطبع الوليد البشري بسمات وسلوك معينين يؤثران على تكوينه الشخصي. والحقيقة أن هذه النظرية قديمة ترتبط بنظرية الأبراج وعلاقة تاريخ ولادة الفرد بطبيعة البرج الذي يتحدد زمنه بزمن دوران الأرض حول الشمس. وقد مرت هذه النظرية بناقشات عديدة بين التأييد والرفض. والباراسايكولوجي لا يرفض هذه النظرية قدر ما يتبناها من جديد. فالزمن هو ناتج الحركة وبدون حركة الأرض حول الشمس في المجموعة الشمسية لا يوجد زمن. وقرب وبعد الأرض من الشمس يؤثر على جغرافية الأرض في القسم الذي يواجه به قرص الشمس. إن هذه النظرية تؤكد أثر الزمن الولادي في الفرد وحسب منطوقها فإن مواليد الخريف سيختلفون - كما اختلفوا - عن مواليد الربيع وعن مواليد الشتاء والصيف في السلوك العام والعدواني بالضمن، فتصف مواليد الربيع مثلاً بهدوء الطبع والتفاؤل وعدم الميل إلى ابداء

العنف في المواقف ولقد ناقش بعض الباحثين علاقة ظاهرة المد والجزر التي تصنعها حركة الأرض والقمر مع الشمس مع سلوك بعض الأفراد. ولقد سجلت مشاهدات طبية حول التغير الحاصل في سلوك الأفراد الذي يقطنون مناطق قريبة من البحار التي تحصل فيها هذه الظاهرة. فيصبح هؤلاء الأفراد متشنجين، غضوبين، تنتابهم حالات خطيرة من الهياج مصحوبة باضطرابات في الجهاز الهضمي والصدر وتلازمهم حالات من أوجاع الرأس. إن علم القوى الخارقة في الانسان - على قدمه - ما يزال حديثاً في نشوء اكتشافاته وغامضاً في الكثير من تفسيراته. وأن التقدم في هذا العلم سيحل اشكالات كثيرة في السلوك البشري. .

الفصل التاسع

العدوان والارتقاء

مقدمة

منذ أن ظهرت الدارونية التي أفرزت تنظيرات فلسفية وعلمية في أصول الأنواع وبدء الحياة؛ والدراسات العلمية تتوالى بين مؤيد لها، ومعترض عليها أساساً . فالانتخاب الطبيعي الذي تختفي بموجبه الأنواع الأقل صلاحاً أمامَ تنازعها مع الأنواع الأرقى تكونياً، ومسألة الصراع في سبيل البقاء وبقاء الأصلح، مفاهيم أدخلها دارون، بل أوجدها ، على مسار الخليقة الحيوانية والنباتية، وتلتقي الدارونية في كثير من شروحها مع الجدل المادي، فهي تفترض السبق المادي علي الفكر وتفترض ظهور الحاجة إلى الحياة في الخلية(الجامدة) . فهي لذلك تضع تاريخاً لهذه الحياة على الأرض يبدأ بالحاجة اليها وظهور الحياة - حسب الدارونية- يجب أن يكون بدءاً بأبسط أشكاله متمثلاً بعمليات أيض بدائية ووظائف خضرية ساذجة تلبي حاجة المستجد الأول في الانبعاث الحياتي - الخلية . والانسان في الدارونية كائن حديث، له تاريخ، يسبقه إليه في مراحله الأولى حيوان أقدم منه ظهوراً سبق أن ارتقى عن أسلافه بحكم الصراع والانتخاب، ويبدو أن مبدأ التفاضل الدينامي هو المتحكم في مسيرة الصراع في سبيل البقاء. وعليه فالانسان ضمن هذا المنظور ليس الحاصل النهائي للمسيرة الحياتية مثلما لم يكن الحاصل الأولي في الظهور، وعليه فإن كثيراً من الشكل والمضمون في السلوك الانساني عرضة للتبدل وفقاً لقانون التطور، ربما يشمل هذا الارتقاء ثورة بطيئة على عاداته على غرائزه. فالعادات، حاصل المزاوجة بين الجسم والبيئة، تطورها مجالات الاتيان بالأفضل وطرح المتردي منها خارجاً . والغرائز، مجموع الدوافع الداخلية، عرضة للتحوير وفقاً لانتفاءات الاشباع وزوال الحاجة في البيئة. والعدوان، فائض الفارق بين النزوع الداخلي الانساني

الزائد والبيئة الفقيرة غير الموفية بتلبية الحاجة، عرضة للزوال أو التعديل أيضاً في مرحلة من مراحل الارتقاء البشري، هذا ما يمكن التعرف إليه في علاقة أو أثر الارتقاء على السلوك العدواني البشري.

المكاسب الارتقائية في الانسان وأثرها في السلوك العدواني

لقد استوى الانسان الحالي في نهاية سلسلة طويلة من التحول البايولوجي. وتقول الدارونية أنه في الأصل حيوان من الفقريات والثدييات. كما أن الوظائف الأساسية في جسم الانسان(التنفس والهضم والتمثل والهرمون) تجري بالطرائق ذاتها التي تتم في الحيوانات الأخرى. وإذا أخذنا مواصفات الارتقاء البطيء في الانسان، وجدنا في مقدمتها: انتصاب القامة. وعلى الرغم من أن الانسان، بقامته المنتصبة، ليس أعلى الحيوانات، مقارنةً بالزرافة مثلاً، إلا أن مشيه على اثنين وفر له فرصة الاستفادة من طرفيه العلويين في أعمال البناء والرقي والمكسب الارتقائي المهم الآخر هو العقل. ويمثل العقل الانجاز المعرفي الأول والكبير والمتفوق على بقية الحيوانات. وتعزو الدارونية تنامي القدرة العقلية وزيادة عطائها المعرفي إلى زيادة حجم الدماغ عبر ملايين السنين في الانسان. فعبر مليوني عام كبر حجم دماغ الجد البعيد للانسان ثلاث مرات ولكنه حافظ على ما هو عليه منذ ٦٠٠٠ سنة، لقد ناقش طبيب الأعصاب الأمريكي(ماك لين) علاقة بنية دماغ الانسان القديم وبنية دماغ الانسان الحديث. وقد قرر هذا الباحث أن الانسان الحديث وارثٌ لثلاثة أدمغة يجب عليها أن تتصل وتعمل فيما بينها كمجموعة. وهذه الأدمغة الثلاثة هي: (١) الدماغ الزواحفي (٢) الدماغ الثديي(٣) الدماغ الانساني أو الارتقائي (النهائي). ويقول ماك لين أنه في الوقت الذي يمتلئ الدماغ الزواحفي في الانسان بالذكريات السلفية، وينفذ ما أمره الأجداد، يقوم الدماغ الثديي بلعب الدور الرئيس في السلوك العاطفي،

ويقرر ماك لين أن الدماغ الزواحفي هو الجزء البهيمي الذي يمثل الاستجابات السريعة الشرهة لمثيرات البيئة، بينما ينحو الدماغ الثديبي إلى تنظيم التعامل بين المثير والدافع. وبهذين الدماغين يتماثل تطور الانسان مع غيره من الحيوانات الراقية في السلم كالقرود. ولم يتحقق للانسان تطوره الذي فرقه عن باقي الثدييات إلا عندما تطورت في دماغه تلك القشرة الرقيقة التي استحالت إلى لحاء يُغلفّ الدماغين السابقين. ونشأت بحكم الحاجة إلى عقلنة الحياة البهيمية، قدرات اللغة والكلام والحساب والكف وضوابط الحركة في الدماغ الثالث: الدماغ الانساني. ويقودنا هذا التصنيف الانثروبولوجي إلى أعزاء دافع العدوان في الانسان إلى خصوصية امتلاكه لدماغ زواحفي ودماغ ثديبي قبل حصول تطوره. وربما يقودنا ذلك أيضاً إلى استنتاج أن انسان الملايين القادمة من السنين سيحقق ضموراً وربما اختفاءً للدماغ الزواحفي والدماغ الثديبي بحكم تضخم حجم اللحاء أو الدماغ الانساني أو تلاشي وظيفة هذين الدماغين بحكم هيمنة اللحاء الانساني كلياً على وظائفهما. يعني هذا أن العدوان كسلوك محكوم بالتطور، وأن الآلاف المضافة إلى عمر الانسان جديرةٌ باحداث الانتصار على هذه الخصلة المتبقية من السلوك الحيواني في الجملة العصبية الانسانية.

هل سيرتقي الانسان على عدوانيته؟

ضمن المفهوم الداروني للارتقاء الذي تتنافس فيه الأنواع على البقاء بمعطيات جديدة، ظهرت عدة نظريات وافتراضات تناقش خصائص السلوك البشري ومفرداته ومنها ظاهرة العدوانية البشرية. ومن هذه النظريات نستطيع أن نستخلص منظوراً مختصراً يمكن أن يقدم شيئاً من العلاقة القائمة بين العدوان كسلوك وبين الانسان ككائن مرتق على أسلافه.

(١) الارتقاء هو عملية تغلّب علّى الوسط الصعب بوسائل جديدة تجبر الوسط على الانصياع للكائن. وتؤدي عملية قهر البيئة إلى تغير في فسلجة العنصر

المرتقي ودماغه .

ففي العملية الحضارية يقهر الانسان البيئة الصعبة ويسخرها لمدنيته ، وعملية القهر هذه تترك ضرورة قائمة لتنحية العناصر التي لم تثبت فاعلية في الصراع وتحل محلها عناصر هرمونية وكيمياوية وحوامض أمينية كفيلة بالقيام بعملية صراع لاحقة .

(٢) الارتقاء هو غربلة للجينات التي تحمل صفات انحطاطية متخلفة في سلم الحضارة السلالية ، فالمورثات التي تؤدي إلى ظهور التخلف العقلي في تناذراتها العديدة كالمنغولية وتناذر تيرنز والمورونيه ، جدير بها الاختفاء وحلول ما هو أفضل ، لأن الانسان – بالمفهوم الارتقائي – يدفع به العوق العقلي إلى انتكاس لا إلى ارتقاء .

(٣) الارتقاء هو تأشير الوظائف الدماغية العليا كالتفكير والمساجلة الحسابية والاستنباط ورهافه للسمو بها وتأشير الوظائف الخضرية المتدنية التي لا تلبي إلا حاجات الخلية الأولية البسيطة والتي يستوي فيها الانسان والهايدرا والأميبا فتحاول الحد منها وعدم اعطائها فرصة التغلب على الوظائف العالية .

من هذه المؤشرات الثلاث التي تناقشها نظريات التطور في المملكة الحيوانية بدءاً بالخلية وانتهاءً بالانسان . ينزوي السلوك العدواني ضمن الوظائف الخضرية . فتعتبره الدارونية نمطاً سلوكياً حيوانياً ينزع الانسان في ارتقائه إلى الخلاص منه والانتصار عليه ، وإذا أدى مجيء الملايين من السنين القادمة إلى تضخم دماغ الانسان أو تعقد أدائه للوظيفة العليا ، فإن ذلك ستيزامن مع زوال النزوع العدواني وستعتبر الأجيال الآتية عدوانية الانسان في هذا الزمن الذي يعيشه سلوكاً من بقايا السلوك الحيواني السحيق .

نظريات معترضة

يرى باحثون آخرون أن دماغ الانسان ارتقى كثيراً في الحجم والتعقيد الوظيفي عبر ملايين غابرة من تاريخه ولكنه توقف منذ ما يقرب من ٦٠٠,٠٠٠ سنة عن الزيادة في الحجم.

ولكن التحسن المتدرج في الأداء الوظيفي لم يفق الزيادة في هذا الحجم أن التقدم التقني والعلمي العام تطور كثيراً خلال هذه المدة، ويبدو أنه ليس هناك تزامن أو تطابق بين التقدم الحجمي في دماغ الانسان والتقدم العلمي الذي أفرزه كحضارة وتقنية عامة. وخلال عملية التوقف في حجم الانسان عن الزيادة واستمرار الارتقاء الوظيفي له، ظل كثير من الصفات المشتركة بين الانسان والحيوان مهيمناً على السلوك الانساني. وفي عملية انتخابه للبيئة ومفرداتها وارتقائه على سائر المملكة الحيوانية باستخدام العقل، لم يتمكن هذا الرائد المرتقي الانفكاك من كثير من الوظائف الخضرية وإنهاء العدوانية في سلوكه. ربما أدى ارتقاء العملية العقلية وتعقد مسارها الانتاجي إلى توظيفها من جديد في خدمة السلوك العدواني. يبدو من وجهة نظر أخرى أن العدوان البشري لا يعدو كونه إحدى وسائل الارتقاء أو الانتخاب الطبيعي. إن الحيوانات في الأرض تمارس انتخاباً طبيعياً وتستخدم وسائل عديدة للبقاء وتحقيق البقاء للأصلح، ومنها وسائل القوة المتمثلة في الظفر والناب ولكن الانسان يستخدم في الصراع في سبيل البقاء احدى وسائل العقل المدمرة أو قل عقله: العدوان.

تقرر نظرية أخرى أن تاريخ نشوء الانسان رافقه ظهور الأمراض النفسية التي قررتها معوقات البيئة وأخطاء الفسلجة التي تتركز في الهرمون والكيمياء. وإذا اعتبرنا عامل البيئة مسؤولاً رئيساً عن ظهور الأمراض النفسية في الانسان فإن هذا دليل على كونها الحاصل النهائي للصراع من أجل البقاء. ولكن الخطأ الفسلجي وتوريث تلك الأمراض ظل ملازماً للانسان منذ عصور سحيقة وإلى يومنا هذا. والاكتئاب هو الناتج الذي يكون عليه الانسان بعد اخفاقه مع ظرف بيئي صعب.

ولم يحدث الانتخاب الجيني تفاضلاً ارتقائياً في الانسان الحاضر يجعل منه عنصراً مختلفاً في كآبته عن كآبة انسان العصر الغابر. كما أن انحطاطات الجهاز العصبي نتيجة الخطأ الكروموسومي معروفة في القديم ومعروفة في الحاضر أيضاً. وتوجد مخلفات يشترك فيها اكتئاب الانسان والسلالة التي تليه تقدماً: القرود. والحقبة التي توقف فيها حجم دماغ الانسان عن التضخم لم تمنع الانسان من معاناته التي قدمتها الحضارة بحسابات التقدم التقني. ويقرر علماء الانثروبولوجيا ان انسان العصر الجليدي استخدام العصا في هجومه على الطبيعة بينما استخدم انسان القرن العشرين بعد الميلاد، القذيفة في الهجوم. هنا ينبغي السؤال عن استمرار العدوان لا عن وسيلة تنفيذه. والانسان المعاصر ماض قدماً في ابتكار المزيد من وسائل عدوانه وإذا كان الارتقاء في الدارونية يغني شيئاً فإنما هو يعني ارتقاءً نحو الأقوى والأذكى من الأسلحة البشرية التي يجابه بها الوسط وينفس به عن عدوانية موغلة في دواخله. وربما تجيء السنون بآلافها أو ملايينها القادمة لتعتبر الصواريخ عابرة القارات سلاحاً هزيلاً مقارنةً بالجديد الذي سيستخدمه الانسان في عدوانه(الارتقائي).

القسم الرابع

العدوان البشري
الحلول والمعالجات

الفصل الأول
المعالجة الفسلجية والعضوية

مقدمة

لاحظنا في الفصول التي سبقت أن العدوان، بالمنظور التشريحي وعلاقة الفسلجة بالبيئة المحيطة بالفرد، ليس ظاهرة مفردة، بل مجموعة من الاستجابات تشكل نمطاً معيناً من السلوك. ولهذا فقد لاحظنا أن هناك عدوان القتل والعدوان الذكوري أوما بين الذكور، وعدوان الخوف، والعدوان الاضطرابي غير المنظم وعدوان الاقليم وعدوان الأمومة والعدوان المرتبط بالجنس. وكل من هذه الأنواع الفسلجية للعدوان يمكن أن يتحدد ظهوره بنوع الحافز وطبيعة الموقف المثير، يبدو أن دماغ الانسان بمنظوماته العصبية، تتوقف استجابة كل منظومة فيه على نوع المثير. كما يبدو أن بعض المثيرات لها تأثير على أكثر من مركز أو منظومة كما لاحظنا في العدوان الاضطرابي غير المنظم.

(١) معالجة المنظومة العصبية :-

(أ) تجربة فلاين وفائدتها في العمل العلاجي :- يشير فلاين إلى أن عدوان القتل والعدوان الاضطرابي غير المنظم، يمكن احداثهما بتحفيز القسم الخارجي من الهايبوثالموس بزرع قطب كهربائي في دماغ القطة التي أخضعت للتجربة. وبتحفيز هذا الجانب من الهايبوثالموس فإن الحيوان قد يهاجم أي شيء أمامه(عدوان مضطرب). بينما حدث عند تحفيز الجانب الداخلي من الهايبوثالموس أن القطة هاجمت الشخص القائم بالتجربة بالذات(عدوان القتل المدبر المنظم). ولهذا فقد استنتج فلاين أن الجانب الداخلي من الهايبوثالموس هو المسؤول باستثارته عن احداث عدوان القتل ولما كانت الأعصاب التي تنبعث أو تحمل استجابات هذا الجانب هي أعصاب كولنرجية(Cholinerigic)، لذا يمكن الاستفادة من هذه التجربة في التعامل مع الميل العدواني القتلي بإعطاء

مضادات العمل الكولنرجي. تبقى أمامنا مسألة الاستفادة من تجربة فلاين هذه في تطبيقها على الانسان. وقد جربت مرة أخرى على (٣٠) حالة من السجناء ذوي ميول القتل أو المسجونين لجرائم قتل وأظهرت المتابعات بعض التأثير في سلوك هؤلاء. وما تزال هذه التجربة في حاجة إلى المزيد من البحث نظراً إلى فائدتها الكبرى إذا ما حصل اقرارها علمياً.

(ب) عمل المثبطات الدماغية والاستفادة العلاجية منها: يبدو أن هناك مراكز في الدماغ تعمل عملاً مضاداً أو كافاً لعمل منظومة مراكز العدوان. وقد استنتج كارلي أن احداث أو ايقاف لعمل نويات المركز الشمي تحول الحيوان في التجربة إلى عنصر هائج ثائر. كما لاحظ باحثون آخرون إن كف أو تعطيل عمل الهايبوثالموس ومنطقة اللوزة يؤدي إلى زيادة العدوان مما يوضح العمل الكاف لأجزاء من الهايبوثالموس واللوزة(فنلاحظ هنا أن الهايبوثالموس يحتوي على مناطق اثارة ومناطق كفّ للاثارة). وقد أكدت دراسات أخرى أن زيادة عمل تلك المراكز في المنطقة الشمية أو جزء من الهايبوثالموس أو اللوزة يساعد على التقليل من عدوانية الكائن ويكفّ من هياجه كثيراً.

٢- معالجة الاستثارة بمنع الاحباط: يشكل الاحباط في سلوك الكائن مؤشراً كبيراً لحدوث العدوان. كما يمثل الكرب أو الضغط النفسي الشديد ردَّ فعل عدواني كبير فيه وتتوقف الاستجابة على شدة حساسية المراكز المسؤولة عن السلوك العدواني. ولهذا يعمل الاحباط كعامل تعزيز وتدعيم سالب لاحداث العدوان في مسلسله المتكرر. ويمكن أن نقلل من عدوانية الفرد بالتقليل من فرص التعرض للاحباط. ونستطيع تقليل هذا الاحباط بتغيير ظروف البيئة المحيطة بالفرد. فمثلما يمكن تعليم المصاب بالسمنة تناول كميات أقل في غذائه، كذلك يمكن تعليم الفرد تقليل الاستجابة العدوانية تجاه الوسط. فكلما جوبهت استجابة فردية عدوانية بموقف سائل، لين، لا يتوفر فيه تحطيم للرغبة أو تفتيت للطموح أو محاربة للعواطف، قل النزوع العدواني وساعد ذلك على الانطفاء في دائرة

التشريط الضرورية لقيام المنعكس الشرطي.

(٣) معالجة العدوان بالجراحة الدماغية: أثبتت بعض التجارب أن استئصال بعض النويات الدماغية أو قطع بعض الأعصاب الموصلة بينها في الدماغ يؤدي إلى ازالة الميل العدواني في بعض حيوانات التجربة. وفي العام ١٩٣٨م توصل كلوفر وبيوسي إلى أن استئصال الفص الصدغي يؤدي إلى تهدئة الحيوان وتحويله إلى عنصر ينعدم فيه نزوع العدوان عند الاستثارة. ولكن هذه التجربة أيدت اختفاء العدوان ولكنها لم تحول الكائن إلى من الهدوء والسكون بل ظلَّ مستثاراً متطيراً مستجيباً للحوافز ولكن دون القدرة على اظهار المهاجمة(وجود النوازع العدوانية وافتقار التنفيذ). ولهذا على ممارسة صفحتي الاستثارة أو الهدوء تباعاً. إن الميل إلى الهيمنة الاجتماعية ونزوع السيادة على الآخرين له علاقة بنشاط القسم الأمامي من الفص الصدغي الذي يؤدي شل وظيفته بالتيار الكهربائي أو بالجراحة إلى ايقاف مثل هذا النزوع، كما دللت على ذلك أبحاث يوتنك عا، ١٩٦٨م. وقد أظهرت عملية استئصال هذا الفص مضاعفات كثيرة مثل زيادة النشاط الجنسي وزيادة الفاعلية البصرية. وبالرغم من قيام اللوزة الدماغية في بعض أجزائها بنشاط عدواني وفي أجزاء أخرى بعمل الكف له، فإن استئصال اللوزة له أثر في خفض درجة استجابة الخوف وبالتالي إلى خفض عدوان الخوف. وهذه حالة خاصة في علاقة اللوزة بالعدوان الهروبي أو عدوان الخوف. وربما تؤدي العمليات الجراحية على اللوزة إلى زيادة في كل أنواع العدوان الأخرى باستثناء عدوان الخوف نظراً إلى خفض درجة الخوف بتأثيرها. وقد توصل كلور عام ١٩٦٠ أن اللوزة الدماغية تحتوي على خلايا كافة للعدوان وأخرى قابلة لاثارته - شأنها في ذلك شأن الهايبوثالموس.

وقد جربت حالات الاستئصال الجراحي أو ابطال عمل الخلايا بالتيار الكهربائي على مراكز دماغية أخرى مثل النويات الأمامية للمهاد (الثالموس) والجانب الظهري منه والدماغ الأوسط والجانب الخارجي من الهايبوثالموس

ووجد أن ايقاف عملها يؤدي إلى خفض التوتر في الحيوان. وفي الانسان وجد أن ظهور الورم في الفص الصدغي يتصاحب مع زيادة السلوك العدواني في المصاب. كذلك تؤدي اصابات الهايبوثالموس، في الانسان النتيجة نفسها. والأشخاص الذين يعانون من الصرع الصدغي يتزامن مرضهم مع الاضطراب والهياج وابداء العدوان على المحيط. ولهذا فمعالجة الحالة الصرعية تؤدي إلى شل نشاط هذا الفص وتحول دون ظهور النزوع العدواني. وقد جربت حالة استئصال النطاق اللفائفي ووجد أنها مفيدة في ازالة حالة الغضب والعنف، كما أثبتت فائدتها في معالجة بعض الحالات الصرعية والوسواس القهري، وقد قام بهذه التجربة الباحث وارد عام ١٩٥٢ م على بعض القرود، وقد أعاد التجربة بإيقاف عمل هذا النطاق اللفائفي في أحد مرضى السرطان فأثبتت فائدتها أيضاً.

وفي العام ١٩٦٦ قام سانو باجراء ما أسماه «الجراحة المهدئة» على القسم الخلفي من الهايبوثالموس، في بعض مرضاه ذوي الميول العدوانية، فاستحالوا إلى عناصر هادئة. ويبدو من هذا أن ميلنا إلى حالة الهدوء لاعلاقة لها باستئصال العدوان فينا. في العام ١٩٥١م وجد شبيكل أن أبطال عمل الجانب الظهري من الثالموس بالتيار الكهربائي يؤدي إلى ايقاف التوتر والقلق والهياج وقد أمكن حديثاً احداث شل أو ايقاف عمل اللوزة الدماغية في جزء منها بحدود ١٠ ملم قطراً وذلك بحقن ٦ ,٠ – ٨ ,٠ سم٣ من الزيت المزوج بالليبودول وقد أدى هذا الاجراء إلى تهدئة مرضى التجربة واكسابهم حالة من الاستقرار والراحة. ويبدو أن هذا الاجراء قد شمل الأجزاء الهياجية وليس المخفضة للعدوان في اللوزة. إن هذه التجربة قام بها كل من سايتو وناكاو.

(٤) معالجة العدوان بالتحفيز الدماغي: يمكن احداث سيطرة على السلوك العدواني باحداث تنشيط لعمل المنظومة الكافة أو المانعة لنشاط المراكز التي تؤدي استثارتها إلى النزوع العدواني. وكان من المشتغلين على هذا الجانب الباحث ديلكادو.

وقد استفاد ديلكادو من ربط أقطاب كهربائية على عظام جمجمة قردة مثارة، ثم أكمل ايصال الأقطاب إلى جهاز سيطرة راديوي في غرفة ثانية. وبوضع تحفيز على ظهر القردة موصولاً بأقطاب تحت الجلد واتمام السيطرة على الدماغ بتحفيز الموصل الراديوي من خارج حيز التجربة وتحفيز الذنب النهائي للحبل الشوكي Caudate Nucleus، تم ايقاف الهياج والاضطراب في القردة. أي أن تحفيز أو تنشيط المراكز الكافة في الحبل الشوكي أدى إلى ابطال فعالية المراكز العدوانية في الدماغ.

وفي أعمال سيم - جاكو بسين عام ١٩٦٠م ظهر أن المنظومة العصبية في الانسان يمكن أن تخضع للقاعدة نفسها، فتحفيز القسم الباطني الداخلي من الفص الأمامي له تأثير مهديء لكثير من السلوك الهوسي العنيف في المرضى. والنتيجة نفسها يمكن الحصول عليها من تحفيز المنطقة المركزية أو الجزء المركزي في الفص الصدغي.

(٥) معالجة العدوان بالهرمون: بينا أن السلوك العدواني في الكائن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالهرمونات ونسبة وجودها في الدم، كما أنه يتأثر بوجود مواد أخرى كالسكر والمواد الكيمياوية والايونات فيه، إن أي تغيير في كيمياء الدم ينتج عنه خفض في نسبة الأندروجين سوف يؤدي إلى ارتفاع عتبة الاثارة العدوانية. ولقد جربت بعض المواد التي تعمل عملاً مضاداً للأندروجين كما يقول ليرنر ١٩٦٤م مثل:

(١) نوربروجستيرون (٢) كلورمادينون أسيتيت (٣) سيبرتيرون أسيتيت.

هذه كلها تملك تأثيراً مضاداً لعمل الأندروجين. ويؤدي ادخال هذه المواد في جسم الكائن تأثيراً خافضاً لعدوانيته. كما دلت بعض الأبحاث أن المواد الاستروجنية التأثير (أي التي تعمل عمل الأستروجين) تفيد كثيراً في هذا المجال لخفض السلوك العدواني. ومع هذا فإن عدد الأبحاث في هذا المضمار ما يزال قليلاً وفي حاجة إلى مزيد من التحري والتدقيق والمراجعة. ويبدو أن

للاستروجين عملاً خاصاً في خفض العدوان وذلك لسد أو ابطال تأثير الأندروجين من الغدد الكظرية . وهذا يعني أننا حتى في حالة اخصاء تامة فإن نسبة من الأندروجين من الغدد الكظرية ما يزال في حاجة إلى ابطال عمله لحصر النزوع العدواني ويستدعي هذا اضافة أو حقن الاستروجين. هناك عدد من النساء اللائي يعانين من اضطراب ما قبل العادة الشهرية والذي يتميز بالألم المصحوب بالاضطراب والشعور بالميل العدواني على النفس والوسط والأسرة. ويبدو أن فسلجة العلاقة بين هذه الدورة وظهور العدوانية غير واضحة وغير معروفة السبب. ولكن هذه الأعراض تظهر في وقت يتزامن مع انخفاض البروجستيرون في الدم كما يقول هامبوركك في العام ١٩٦٨م . وعند اعطاء هرمون البروجستيرون تخف هذه الآلام ويقل النزوع العدواني. كما أن النساء اللائي يتعاطين موانع الحمل عن طريق الفم والتي تحمل تأثيراً مشابهاً لهرمون البروجسوتيرون، يشعرن بتحسن هذه الأعراض وخفتها عن السابق قبل حلول العادة الشهرية نظراً إلى ارتفاع نسبة البروجستيرون بفعل هذه الأدوية. كما يبدو أن نشاط هرمون الالدوستيرون وتسبيبه احتقان الماء والأملاح وزيادة الوزن يؤدي إلى ظهور أعراض ما قبل الدورة الشهرية في النساء. ولذلك فإن تعاطي الليثيوم والمدررات له تأثير معاكس لعمل الالدوستيرون، ويؤدي طرح السوائل والأملاح إلى خفض التوتر المصاحب لهذه المرحلة ويقل الهياج لدى المرأة. ومثلما يؤدي انخفاض السكر في الدم، لسبب ما، إلى زيادة العدوانية والسلوك الهياجي، لذا فيجب أن تؤخذ هذه النقطة بعين اللاعتبار عند تحري وسائل معالجة الحالة العدوانية، ولهذا يؤدي تصحيح كيمياء الدم بالأغذية أو باستعمال الـ ستيرويدات Adreno Cortical Steroids إلى تحسين كبير في العدوان الفردي، ويؤدي انخفاض السكر في الدم إلى زيادة الحساسية العامة في الجسم، وعلى الرغم من جهلنا لهذه الميكانيكية بين ظهور الحساسية ونسبة السكر الواطئة، إلا أننا يجب أن نعرف أن ظهور الحساسية بشكلها الهرشي الحاد أو المزمن يزيد من التوتر

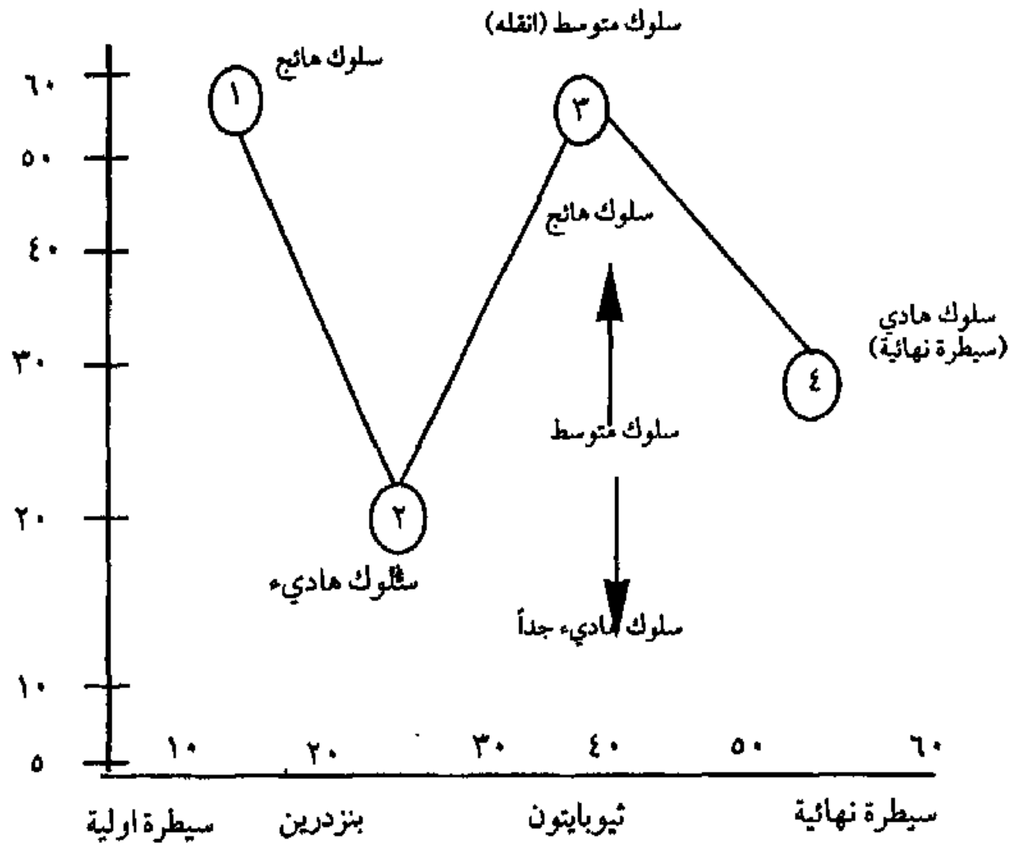
والاضطراب وتصحيح نسبة السكر ومعالجة التحسس العام يؤديان إلى خفض الاضطراب والهياج في المصاب.

(٦) معالجة العدوان بالأدوية: إن نشاط المنظومة العصبية المسؤولة عن بروز ظاهرة العدوان في الكائن يمكن أن تتأثر كثيراً باستعمال بعض الأدوية التي أصبح الكثير منها شائع الاستعمال في المصحات والعيادات والمختبرات. ومع أنه لا يوجد دواء معين يحمل صفة مواجهة العدوانية البشرية بشكل متخصص، إلا أن هناك مجموعة من هذه الأدوية التي تستعمل لأغراض أخرى قمينة بخفض العدوان عندما يكون هو أحد الأعراض لأمراض أخرى، ومن المهم أن نلاحظ أن تأثير الدواء يمكن أن يكون مرتبطاً بنوع الكائن البشري وبنوع العدوان الحاصل على أساس فسلجي. فيقوم دواء بايقاف أوتخفيض وتيرة عدوان من نوع معين بينما يسهل أو ينشط عدواناً من نوع آخر (يرجى مراجعة التقسيم الفسلجي للعدوان في هذا الكتاب).

إن مجموعة الفينوثايزين التي استخدمت في علاج كثير من الأمراض النفسية والعقلية، يبدو أن لها تأثيراً كبيراً على اختزال العدوان الذهاني. ولهذه المجموعة، فضلاً عن التهدئة واصلاح عملية التفكير، تأثير على المراكز الناشطة للعملية العدوانية، ولقد وجد أن استعمال الـ بيرفينازين لوحده أو مشتركاً مع مضادات الاكتئاب كالأمتربتلين يبدو مفيداً جداً في خفض الميول العدوانية في مرضى الكآبة كما ورد في أبحاث بينكتون عام ١٩٦٤م" كما أنها مفيدة أيضاً في عدوانية المتخلفين عقلياً وفي عدوانيين الجنس أو العدوان المرتبط بالجنس كما يقرر ذلك ديوكي عام١٩٦٤م ومفيدة ايضاً في العدوان الكحولي كما يقول بارثولوميو عام١٩٦٣م بينما تتم السطيرة على عدوانية المصروعين واضطرابالت المراهقين ، والأطفال الهياجيين باستخدام الثايوريدازين كما يقرر ذلك الدرتون عام١٩٦٤م

وبينما يتسخدم عقار ال ايبانيوثن في علاج النوبة الصرعية في قسم كبير من أنواعها فإنه قد وجد ذا تأثير مفيد في علاج كثير من النزوع العدواني في مرضى غير مصروعين كما يقرر ذلك روزنفيلد عام١٩٦٧م وربما يرجح هذا التحسن في مرضى عند مصروعين وجود درجة من الصرع تحت السريرية تحدث هذا النوع من السلوك العدواني ولكن سلامة التخطيط الدماغي لهؤلاء أكدت عدم وجود هذه الحالة ومع ذلك فإن فاعلية هذا العقار مثبتة في كف النزوع العدواني. ومن الاستعمالات التي أثبتت فائدة تذكر في موضوع الـ ايبانيوتن، استخدامه في اضطرابات العصابيين والذهانيين والسايكوباثيين والاضطراب العاطفي لدى الأطفال. ولقد أعطيت بعض الأدوية المحفزة للجهاز العصبي كالـ أمفيتامين إلى الأطفال المضطربين فأبدوا تحسناً كبيراً على الرغم من عدم وضوح ميكانيكية عمل هذا العقار المنشط وعمله في اطفاء الهياج هذا في الأطفال المصابين. وقدم الـ أمفيتامين فائدة كبيرة في اضطرابات الشخصية المصحوبة بنوبات هياج متكررة وقد وردت هذه الملاحظات في بحث بان عام ١٩٦٩م. أعطي عقار الـ بينادريل للأطفال تحت سن العاشرة وأثبتت فاعلية في السيطرة على عدوانيتهم. أما عقار الـ هالوبيردول فقد أثبت فاعلية في علاج الأطفال المضطربين كما يؤيد ذلك باركر عام ١٩٦٨م.

هناك عقاران آخران جديران بالملاحظة والاهتمام لما لهما من أثر واضح في السيطرة على السلوك المضطرب في الفرد والحد من الهياج واختزال حالة العدوان لدى العديد من الأفراد. الأول من مجموعة الـ يروبانديول وأهمها الـ مبروباميت والثاني من مجموعة الـ بنزوديازبين وأهمها الفاليوم والليبريوم، والمجموعة الأخيرة مؤثرة في الجرعات التي تبدو أوطأ قدرة على أحداث النوم عند الفرد. أما المبروباميت فتسيطر بشكل فعال على التوتر والقلق وأعراضه ومنها الهياج. ولقد قدم الفاليوم قدراً كبيراً من النجاح في اختزال العدوان الذهاني والحد من النزوع الاجرامي عند أفراد سايكوباثيين.



منحنى المعالجة السلوكية الدوائية لحالة العدوان ببعض العقاقير.

شرح يمثل الخط البياني الأفقي طرفي حالة فردية في حالة هياج. في النقطة(٥) تتمثل حالة هياج شديدة وفي النقطة(٦٠) حالة سيطرة نهائية تامة. وهنا أخذ عقاران كمثال هما الفينوباربتون والبنزدرين، ويعطى الفرد جرعات أولية من البنزدرن للتهدئة ثم جرعات أخرى من الفينوباربتون لأنه ذو مدة تأثيرية(مهدئة) أطول. أما في وسط المنحنى فتمثل النقطة(١) وعلى قمة الخط البياني الشاقولي قمة السلوك الهياجي وباعطاء جرعة البنزدرين تحصل حالة سيطرة أولية على السلوك الهائج كما في النقطة(١) وتحدث في حالة أخرى أنه على الرغم من حصول التحسن (السيطرة) الأول ينتكس السلوك في الفرد فترتفع الحالة كما في النقطة(٢) وباضافة جرعات مكملة من الفينوباريتون يسود الهدوء ويكون السلوك هادئاً وتحدث السيطرة النهائية كما في النقطة (٤) .

الفصل الثاني
المعالجة النفسية

مقدمة

إن العدوان كسلوك محسوس في حياة الفرد لا ينظر إليه في علم النفس والطب النفسي إلا من ناحيتين: العدوان في الناحية الأولى حين يكون مبرراً وفي الحدود الموجبة له والعدوان حين يكون مهدداً لصاحبه وللوسط في الناحية الثانية. وعندما يكون من النوع الثاني يعامل على أنه سلوك مرضي يحتاج إلى متابعة ومعالجة. ويتوجس المعالج النفسي والطبيب من مريضه خيفةً عندما يشرح له الأخير مشاعره العدوانية تجاه نفسه وتجاه الوسط؛ فيتعامل المعالج مع هذه المشاعر بلغة الحرص على الفرد المريض بها وعلى البيئة من خطر هذه المشاعر. لأن وجودها سرعان ما يستحيل إلى عمل مؤذ، مدمر لمسيرة الفرد والوسط. وتظهر حالة العدوان في الفرد أمام المعالج في المصحات والعيادات بصيغتين: صيغة مفردة بمعنى أنهاليس بالضرورة أن تتزامن مع أعراض أخرى فيقدم الفرد نفسه إلى المعالج أو يقدمه ذووه مشتكياً أو مشتكين فيه عدوانيته المستفيضة واعتداءاته المتكررة بإيذاء نفسه وغيره. أو يقدم الفرد مريضاً باحدى الأمراض الأخرى ويظهر العدوان فيها أمام المعالج كعرض بارز من أعراضها. والأمراض التي يظهر فيها العدوان كواحد من أعراضها عديدة ذكرنا أغلبها في الفصول التي خلت. فنحن في المجال النفسي مدعوون لمعالجة العدوان عندما يكون مهدداً لوحده لحياة الفرد والمجتمع ومدعوون لمعالجة الأمراض التي تعجّ قائمة أعراضها بالعدوانية الهائلة للمريض.

هدف المعالجة النفسية للعدوان البشري

تتناول المعالجة النفسية للعدوان ما يلي من النواحي :-

(١) شخصية الفرد تحليلاً ومعالجة لما للعدوان من أثر في تدهورها واعتلالها.

(٢) مرض الفرد النفسي أو العضوي المتزامن مع العدوان كعرض من أعراضه.

(٣) تصحيح الدائرة الأولى المسؤولة عن ظهور العدوان في الفرد: الأسرة.

(٤) الاستخدام السلوكي الصحيح لمعالجة أخطاء البيئة المسببة للعدوان الفردي.

تاريخ المعالجة النفسية

يمكن أن تقدم المعالجة النفسية الذين يشعرون أنهم في حاجة إليها بواحدة أو أكثر من الطرق والوسائل الكثيرة التي يعتمدها المعالجون. والعلاج النفسي بحد ذاته هو تحوير لعقلية المريض وتعديل لنفسيته كي يعود إلى حالة أخرى تبدو سوية أو قريبة من السواء في المعدل الاجتماعي العام. وقد اتخذ العلاج النفسي عدة صور وأساليب مع التطور الزمني لظهور مدارسه العديدة الواسعة. لقد كان المريض الذي يمارس العنف على نفسه وعلى بيئته يعامل على أنه مسكون مرصود بالأرواح والقوى الشريرة التي تتحكم في نوع سلوكه وأنه خاضع لهذه القوى التي لا مجال للخلاص منها. وقد لجأ المعالجون الأوائل إلى كثير من الممارسات البدائية البسيطة في تقديم العون لمثل هؤلاء المرضى فالقراءات والتعاويذ والأدوية المستحضرة من الأعشاب والنباتات كانت تشكل الأساس في العلاج. ولم يكن يلتفت إلى الأمراض الأخرى التي كثيراً ما تكون سبباً لظهور الحالة العدوانية كأمراض النفس بأنواعها وأمراض الجهاز العصبي كالصرع الذي كان يعتبر «مرضاً مقدساً» حيث اعتقد ولزمن طويل أن المصروع معشوق من قبل آلهة توحي إليه مرضه وهذاءاته وتزوره وتحل فيه أثناء سقطاته ونوباته. ثم جاءت مدارس علم النفس الحديثة علي أيدي « كريبلين» و « جانيت» و« شاركوت» و « فرويد» و «يونج» و « أدلر». وظهر التنويم المغناطيسي والتحليل النفسي وظهرت العقاقير

وظهرت الدراسات المختبرية العديدة وتوسعت دراسة فسلجة الغدد الصم وأنواع افرازاتها الهرمونية وظهر التوجه العلمي إلى ربط هذه الفسلجة بالنزوع العدواني في الفرد. ثم قدم البحث العلمي مخطط الدماغ الكهربائي الذي أظهر أن حالة الدماغ البشرى تتغير كهربائياً مع حالة الفرد الوجدانية. وأن السلوك العدواني الواعي الذي يظهر في حياة الفرد ما هو إلا فرز محسوس لاختلالات واضطرابات عضوية ودوافع غريزية لا حول للفرد ولا قوة في منعها. وركز العلم الحديث من جديد على هذه الظاهرة واعتبر وجودها بشكل معقول آلية من آليات الدماغ الموجبة في حياة الفرد بدءاً بأيام طفولته الأولى في كنف أمه وأبيه ومروراً بحياته اللاحقة. وإن توفر هذه الآلية يؤثر كثيراً في بناء شخصية الفرد وصيانتها من الترهل والاعتلال والانحدار إلى مستويات غير مرغوبة على صعيد المجتمع. والتفتت مدارس علم النفس إلى كوامن النفس البشرية تستقريء الدوافع وتستنتج من اللاشعور كل المكبوت الذي يعمل عمله في ظاهر الفرد. إن طرائق المعلاج النفسي تفترض أن الخطأ في السلوك ناتج عن اضطراب في المنظومة العصبية الفسلجية وأن تصحيح هذا الخطأ السلوكي لا يتم إلا بإعادة الهزة إلي الدماغ من جديد بغية تهديم هذا البناء الخاطيءثم اعادة البناء النفسي والعصبي الفسلجي من جديد على أساس صحيح. إن ما قدمته مدرسة العلاج السلوكي بدءاً بروادها الأوائل أمثال واطسون ودايك وبافلوف يعتبر فتحاً جديداً في تفهم السلوك العدواني الفردي وتفهم الأسس التي يمكن أن تقدم عوناً في تصحيحه وعلاجه. وسنذكر الآن أهم الطرق التي ظهرت في مدارس علم النفس والتي يمكن أن تفيد في علاج ظاهرة العنف في الانسان أو في الحد منه على الأقل.

١- الجلسات النفسية

تهدف تلك الجلسات إلى تحليل حياة الفرد الأولى وظروف الحضانة الأسرية والتعرف إلى مواقف الاحباط التي تعرض لها الفرد. كما تهدف إلى الاشباع

الأولي أو الافتقار إلى اشباع المراحل الفمية والشرجية والقضيبية وحالات التثبيت التي قد يعاني منها الفرد في حياته والتي تؤدي إلى انتكاسه ورجوعه إلى ممارستها. وتترك تلك الجلسات المجال مفتوحاً أمام الفرد في غرف العلاج الخاصة في العيادات والمصحات والمستشفيات لتداعي ذكريات طفولته وعواطفه المكبوتة والمرور بصورة عكسية على كل مسارحياته والتوقف عند المواقف الصعبة التي يمكن أن تكون سبباً في تعطل قابليته على تجاوز المواقف اللاحقة. وتبدأ تلك الجلسات بشرح مسيرة الفرد أمامه تحليلاً ومناقشة وتظهر له ممارسته لآليات دفاع خاطئة تقوده إلى سلوك مملوء بالاسقاط العدواني على الذات والوسط.

٢- العلاج باحداث الاختلاجات

ويمكن إجراء ذلك بالحقن بالكارديا زول وريدياً لاحداث رعشة كافية لتصحيح الفسلجة الخاطئة في الدماغ والتي ابتنى في ضوئها سلوكاً عدوانياً خاطئاً.

٣- العلاج بالعقاقير

تخلق حالة الهياج والغضب اختفاء البصيرة العقلية لدى الفرد وتجعله مضطراً لاتخاذ سلوك تغيب فيه معطيات وفرص الانتباه إلى أخطائه وخطورته. وفي كثير من الحالات التي يحتاج فيها إلى فهم السلوك العدواني نلجأ إلى اعطاء المريض العدواني أنواعاً متعددة من العقاقير التي تهدئه وتحد من ثورته وتمكن المعالج من إقامة تواصل معه في العقل والمشاعر ويتمكن هو بعدها من شرح طبيعته الغاضبة ببصيرة أفضل.

٤- الصدمة الكهربائية

وتساعد هذه الطريقة في العلاج على احداث تغيير في المسار الكهربائي للدماغ وتبديل في الوضع الفسلجي الخاطيء الذي جعل من الفرد عنصراً معتدياً. ومن الحالات التي تقدم فيها الصدمة الكهربائية عوناً واضحاً، حالة

العدوان البارانوي (الاضطهادي). ففي كثير من الحالات الذهانية والفصامية، عندما يهيمن على المريض شعور بعدواة الوسط له ويصير عرضة للشكوك والأوهام والمطاردة، يصبح هذا المريض في حاجة إلى دورة مكثفة من الصدمات الكهربائية بمجموع ٤ - ١٠ صدمات كهربائية تتوزع على مدى اسبوعين - ثلاثة، ويشعر المريض بعدها بتحسن كبير في شعوره العدائي ويغادر هواجسه المريضة وقد لا يعود يتذكر حالته الواهمة بتاتاً.

٥ - عملية قص جزء من الفص الدماغي الجبهوي

ويجريها الجراح المختص في الجملة العصبية ويقطع أليافاً تربط الفص الجبهوي بالمراكز الانفعالية الأخرى خاصة الثالموس والهايبوثالموس. وتزول بذلك حالة التوتر والقلق التي تحول حياة الفرد جحيماً. كما أجريت حديثاً عملية قص الألياف الرابطة للفصينّ الجبهوين الأيمن والأيسر في علاج العدوان الذهاني المزمن. وتستعمل مثل هذه الجراحة في علاج العدوان الذي يكون عرضاً من أعراض مرض الحصر القهري والكآبة المتكررة. إن هذه العملية تبدل كثيراً من شخصية الانسان وتغير كثيراً من عقائده وأفكاره، وقد ينسى المريض بعد العملية كثيراً من معتقداته التي كانت تشكل سبباً في صراعه مع غيره ودعامةً من دعائم عدوانيته.

٦- العلاج السلوكي

ويعتمد هذا العلاج على قاعدة العقاب والثواب في السلوك الفردي. فيقوم المعالج بتوجيه صيغة من صيغ العقاب لكل سلوك عدواني يبديه الفرد كما يقوم بإثابة كل سلوك يقدمه الفرد خالياً من النزوع العدواني. وربما عرض المصاب إلى جلسات التحفيز الكهربائي المؤذية نوعاً ما عند كل مبادرة سلوكية عدوانية. ويفيد هذا النوع من العلاج في السلوك العدواني المرتبط بمثير معين مخيف كما في حالات الرهاب (Phopia). ويستخدم أحياناً في علاج السلوك العدواني

المرتبط بتعاطي الكحول وعقاقير الادمان الأخرى.

٧- العلاج الجماعي

ويتم بزج المريض ذي الميول العدوانية ضمن مجموعة أخرى ضابطة أو مجموعة لمرضى آخرين تفتقر إلى العرض العدواني في أعراض أمراضها. وتعمل هذه الجلسات على إجراء مقارنة سلوكية يشعر الفرد العدواني فيها بفارق الدرجة بين سلوكه وسلوك غيره وقوم باجراء تعديل شعوري واستخدام أفضل لآلياته الدفاعية الخاطئة.

٨- العلاج المسرحي

ويهدف إلى اخضاع أدب المسرح ونصوصه وسلوك شخصيات مسرحياته لاظهار العدوان البشري كحالة خاطئة يجب الحد منها كمايهدف إلى اظهار نتائج السلوك العدواني الخطيرة وأثر الجريمة وردع القانون كنوع من العقاب لسلوك الأفراد الخاطئين. ويفيد هذا النوع من العلاج في مرضى الجريمة والسايكوباثيين والعدوان المرتبط بأخطاء الشخصية.

٩- العلاج الحرفي

تخلق العزلة والافتقار إلى العمل انحراف الكثير منا إلى الاضطراب العاطفي، ويخلق الفراغ جواً مسهلاً لبروز كثير من الممارسات السلوكية العدوانية. وتوفير فرص للعمل الهادىء المنتج وملء حياة الفرد بالمشاغل الهادفة، كل ذلك يحدّ كثيراً من الانحراف إلى مهاوي العزلة ومعها العنف على الذات والوسط. ويفيد هذا النوع من العلاج في الحد من ظهور العدوانية لدى المسنين من الجنسين ومرضى الخرف الذين يكونون عرضةً للأوهام والاضطهادات.

الفصل الثالث
المعالجة الاجتماعية

مقدمة

يقف وراء هذه المعالجة الاجتماعية في ظاهرة العنف البشري سؤال كبير: هل الانسان قادر على النهوض بمهمته الانسانية والحضارية بدون عدوان؟ وهل يؤدي اختفاء النزوع العدواني إلى استمراره في عطائه الوجداني والوظيفي؟ هل العدوان جزء من طبيعته بحيث تقف المعالجات الاجتماعية وارساء أسس بيئية صحيحة عاجزة عن الحد من هذه الطبيعة التي كان مقدراً لها أن تظهر؟

إن النظريات التي تقرر حتمية النزوع العدواني، إنما تقرر كونه ميلاً غريزياً تحمله المورثات وعوامل البايولوجيا من جيل إلى جيل من بني البشر. إلا أنه يبقى طموحاً لدى الباحثين في الاجتماع ورواد المدارس السلوكية أن يقدموا مناخاً بيئياً يحد من هذا الميل (الفطري) على أساس وجوده - ويختزل كثيراً من شراهته وغابيته ولا يعدم هؤلاء الأمل بأن تساعد محاولات التربية ومعدلات السلوك في تلطيف الاستتراه الجبلي في النفس البشرية. وقد شملت محاولاتهم تلك مناحي الثقافة كافة في وسائل التعليم والاعلام والعلاقات وطرائق الاتصال الاجتماعي والسياسي والاقتصاد.

البديل عن العدوان

أو أسلمنا أن العدوان ليس تعبيراً حتمياً عن الطبيعة البشرية وأنه يمكن زواله كسلوك مكتسب بتغيير العادة على وفق قاعدة التعليم الشرطي، فما هو المآل النهائي لعلاقات الانسان برفيقه الانسان؟ وكيف ستسير الحياة الاجتماعية في عالم بلا عدوان؟ إن عالماً بلا عدوان يحتمل ظهور نزعات جديدة لدى الفرد يمكن أن تحل محله ولكنها لايمكن ان تكون أهون خطراً منه على مستقبل الحياة. ومن

هذه النزعات السلوكية، بل وأهمها: الخوف. إن الخوف هو رد فعل بيولوجي أساس قد لا يستطيع الفرد بدونه اتخاذ اللازم والسليم من التصرف لحمايته وبقائه. ولقد ظل الباحثون يناقشون زمناً طويلاً الأثر الناجم من الخوف والذي يهبط بالفرد إلى مراحله البدائية. إن الانسان سرعان ما يهوي إلى مرحلة من رد الفعل لا تقل، إن لم تزد، عما هي عليه في الحيوان في ظروف الخوف الشديد أو الذعر. إننا في حريق في سيارة مزدحمة قد لا نهتدي إلى الباب الرئيس المفتوح في السيارة ولكننا نتسلل هرباً من النار من منافذ قد تقتلنا بصغرها وضيقها قبل النار. أن سبب ذلك هو فقدان البصيرة وزوال العملية العقلية المناسبة أمام خطر داهم، إن ذلك وليد الخوف، في عالم بلا عدوان، يختفي الخوف المباشر من خصم مباشر، وهو خوف مبرمج واضح، محدد الجوانب، موضوعي، نظراً لوضوح المثير حجماً وقدرة والعامل المطمئن فيه هو وجوب تحديد الاستثارة من جانبنا وفقاً لما يتطلبه حجم المثير. هذا الخوف سرعان ما يستبدل، في عالم بلا عدوان، بخوف آخر... خوف مجهول المصدر.. والدراسة التجريبية تعلمنا إن الخوف من معلوم أهون وقعاً من الخوف من مجهول. وكثيراً ما حول الخوف من مجهول من صيغته الفردية(الخوف الفردي) إلى صيغة العموم والشمول وظهر كميل شديد إلى العنف الجماعي. العامل الآخر الذي يمكن ظهوره في عالم بلا عدوان هو عامل (الادراك المتركز على الجنس) إن هذا العامل يؤدي بروزه إلى بروز(ظاهرة الحشد): تلك الظاهرة التي تحمل مجموعة بشريةمعينة توحدها مؤثرات اللغة و الجغرافية والعادة الاجتماعية على التشرد بفضائلها وامتيازها على مجاميع بشرية أخرى... مما يؤدي إلى توليد الضيق بوجود الجانب الآخر. إن هذا العمل سرعان ما يقود إلى ظهور عامل آخر هو عامل نشوء الاتجاهات المتعاكسة: وهو الذي يحمل من جديد خطر صراع الأفكار التي لا تلبث أن تكون طريقاً جديداً لظهور العدوان. ربما يؤدي الحسر الجغرافي لجماعة بشرية معينة إلى فك اشتباك الصراع الفكري أو الحد منه ولكن الشك

المتبادل: هو عام آخر يؤكد من جديد استحالة تطبيق الحسر الجغرافي، فظهور الامبراطورية البيزنطية لم يمنعه الحسر الجغرافي عن ظهور الشك في نزوع وآمال الامبراطورية الساسانية التي ما فتئت تحمل شكاً ربما يفوق شك الامبراطورية البيزنطية مما يجعل في ظهور عامل الشك المتبادل الذي يعمل تهديداً مباشراً لحيوية عالم بلا عدوان. أن عامل الشك المتبادل هو الذي عجل في ظهور القنبلة الذرية والهيدروجينية في منظومتي الصراع الشرقية والغربية. إن عامل الشك المتبادل هو الذي حول الخوف العائم إلى خوف مستقر، هو الذي حول الخوف من مجهول إلى خوف من معلوم، فأدى بالنتيجة إلى استقراره ذهن المتصارعين وركز ذهنية القوتين على مصدر مخيف صنعتاه بأيدهما، وخافتاه في دواخلهما فولد الخوف منه شعوراً بالأمان وحداً من العدوان.

إن ظهور عالم بلا عدوان، على جماله واشراقه الظاهريين، ربما يحد من طموح حكومات ذات نمط ديكتاتوري ويلغي سببية التوسع واسترخاء وتيرة الافتراض. . في شرعية العدوان والانتشار وهذا ما لا يتماشى مع طبيعة هذه النظم الموهمة بالعظمة والخيلاء فيعمل (عالم بلا عدوان) كعنصر محبط لآمال أمثال هؤلاء في التوسع والهيمنة؛ فيعود لديهم عامل الادراك المتركز على الجنس قوياً فاعلاً.

محاولات للمعالجة

لقد كتب الكثير منهم عما لزيادة السكان والتصنيع وظهور المدن من تأثير أبرزه فقدان الانسان لتواصله وظهور اغترابه عن المجتمع. إن الاغتراب عامل كبير في ظهور العدوانية البشرية. فالمجتمع الصناعي - على هيولته - يحمل جوانب مؤثرة في تعزيز عزلة الانسان وزيادة عدوانيته. إن ظهور وسائل الدمار الشامل والطائرات والصواريخ عابرة القارات عزلت الفرد عن رؤية الفاجعة التي تحدثها عن قرب وزادت في نزوعه العدواني. إنه حقاً لو أتيح لرامي المدفعية أو الطيار أن

يشاهد آثار سلاحه في الجانب الآخر بعينه، لحد ذلك كثيراً من عدوانيته. إن القاء قنبلة على مجموعة من الناس تفصلنا عنها حواجز الرؤية المباشرة، لا يمكن مقارنته باستعمالنا خنجراً أو سيفاً نقطع به رقبة فرد آخر. إن رؤية الكارثة تحمل جانباً كبيراً من جوانب الحد من المأساة العدوانية في الفرد. وهذا جانب التفت إليه السلوكيون في المعالجة، ألا وهو العودة إلى السلاح البسيط كمرحلة أولى من مراحل الحد من العدوان البشري. ومن النقاط الأساسية التي يتناولها علاج العدوان البشري: معالجة أنواع المؤثرات التي يتعرض لها الطفل. إن ألعاب الحرب واللعب العسكرية مفيدة للأطفال حيث تعمل كمنافذ تتسرب عبرها مشاعرهم العدوانية، ولكنها تمهد كثيراً لتقبل العنف والعدوان. ويصدق نفس الشيء على مشاهد العنف في التلفزة والأفلام السينمائية والرسوم الكاريكاتورية. إن الادعاء بأن هذه العروض الاعلامية للعنف تروض فروسية الطفل وتنشط فيه عناصر التصالب لا تصح عليه كلمة أفضل من كلمة: ادعاء. فعندما يصدق أن الطفل يولد مزوداً بنزوع الغريزة العدوانية، لا يصدق معه أنه يولد عارفاً بوسائل التنفيذ لهذا النزوع. ومقارنة طفلين، أحدهما ترك بدون (تثقيف) اعلامي بهذه الطرائق وآخر تم ترويضه على مشاهدة هذه المظاهر من التعذيب والتدمير وفنون القتل، تشرح أثر وخطورة التعليم الخاطيء في بروز الميل العدواني بشكله المدمر. إن ظهور التعاليم الدينية الموصية بالحد من العدوان يجب أن لا تترك على الرفوف؛ يجب أن تدخل أنسجة حياتنا اليومية ويجب أن توظف توظيفاً حياً في خدمة هذا الهدف السامي. إن جيلاً كاملاً يمكن تخريبه بالتعليم الاعلامي الخاطيء وجيلاً كاملاً يمكن بناؤه بالتعليم البعيد عن معالم الجريمة ووسائل تنفيذها. إن كتب التربية والتعليم المدرسية تحمل الكثير من مشاهد اشاعة البطولة في مشاهد القوة. إن الكتب التي تعتبر العنف والمعارك لوحدها عنوان البطولة يجب أن تلتفت إلى أن الفتوحات العلمية والأدبية والفنية بطولة أيضاً. إن استخدام الكلمة مهم جداً وأساس. فالمهندس والطبيب والفنان

والاقتصادي والفلاح والعامل والمعلم ابطال شأنهم شأن الجندي المقاتل في المعارك. وعندما يعم استعمال الكلمة بالتوزيع العادل على نواحي الحياة المبدعة ومساربها تفقد المقولة مصادرتها لصالح جانب واحد وتوحي نفسياً إلى الطفل بأن البطولة ليست العنف. إن تاريخ روسيا لم يصنعه ابطال ستالينغراد بدمائهم لوحدهم، بل شارك في صنعه مكسيم كوركي وتولستوي وديستوفسكي بأدبهم أيضاً. وتاريخ فرنسا ليس تاريخ نابليون حسب بل تاريخ بودلير وهيغو وبلزاك أيضاً. وتاريخ العرب ليس تاريخ عنترة وخالد بن الوليد بل تاريخ ابن حيان وابن النفيس وابن خلدون والمتنبي.

إن البطولة العسكرية مجد من أمجاد الشعوب تصون بها ذاتها وتراثها ووطنيتها ولكنها ليست كل المجد. إن الوطنية ملك مشاع للعمل المشترك ولا نصفق بيد واحدة أبداً.

ومن محاولات المعالجة التي قدمها السلوكيون في الحد من العدوان: مناقشة قوانين العقاب والثواب في المجتمع. وينظر هؤلاء لا إلى المجرم بل إلى الجريمة. إن هؤلاء الباحثين يرون أن الجريمة هي التي تصنع المجرم وليس المجرم هو الذي يصنع الجريمة. ويؤكدون من جديد على ضرورة تحويل المحاكم إلى قاعات علاج نفسي والسجون إلى مصحات نفسية. إن البيئة - في نظرهم - يجب أن تتعدل ليتعدل بعدها الانسان. إن الطبيعة مغرية وقاهرة في آن واحد. ظروق الجريمة تغري بالاستمرار فيها وقاهرة للانسان في التوقف عنها: ويؤكد هؤلاء أن الاعدام كعقوبة لكثير من المجرمين والمنحرفين يميت اثنين: ضحيّة الجريمة والمجرم. بينما يمكن - كما يقولون - ربح الثاني بعد خسارة الأول. ويذهب هؤلاء السلوكيون إلى المزيد من المعالجة فيناقشون علاقة العدوان الجماعي بالانحياز للمذهب. ومن هذه المذاهب: المعتنق الفكري والقومية، إن ظهور التطرف في النزوع القومي خطر يتهدد المجموعة البشرية. إن لكل فئة بشرية جغرافيتها وتاريخها وطرائق نشوء قوميتها المستندة إلى البيئة واللغة والتراث

والعادة والثقافة. إن اظهار الوجه المشرق لقومية شعب من الشعوب يعمل عملاً موجباً في طبيعة ردود الفعل لدى الفئات والشعوب الأخرى. إن سقوط النازي الألماني واندحاره في حرب عالمية دليل على ضيق النفس واضطراب الرؤية الشمولية لمفاهيم الحضارة، جعله مثار استعداء المنظومة الأخرى عليه فقبر - نتيجة خطأه - في مهاوي النسيان والضياع. ومثل ذلك: التشدد الديني. إن المباديء - على صلابتها - بنيت على التسامح. وليس ديناً ذلك الذي يدعي القوة والعصمة على حساب مشاعر ومحتويات دين آخر لفئة أخرى. إن شعباً بلا دين عرضة لضياع القيمة الذاتية ولكن شعباً بدين متشدد عرضة لاستعداء الآخرين وحنقهم. إن اعتزاز الفرد بوطنه (الاقليم) يمثل اعتزازه الأول بأسرته بدءاً بأمه وأبيه: ولكن استنزاف حب الآخرين لأوطانهم بطريقة من الطرق اعتداء على حقهم في ممارسة هذا الحب. وعندما نلغي حب الآخرين لحياتهم، نلغي الجغرافية الحقيقية للحب الذي بدونه لن يقوم عالم بلا عدوان. إن حبنا للناس الآخرين دليل على التنامي بل القدرة على التنامي في الفكر ففي الطفولة لا نوفر حباً إلا للدائرة القريبة: الأم والأب والأخوة، وفي مرحلة لاحقة نحب أبناء الحارة ونحب بعدها أبناء مدينتنا أو قريتنا ونحب بعدها وطناً له حدود وعلم وحكومة.. وفي النضج الثقافي الكبير اللاحق نحب العالم. فكيف نستطيع ممارسة الحب في عالم عدواني؟

إن لدينا بدائل عديدة للعنف في عالمنا.. إن لدينا ممارسات عنيفة حقاً - إذا ما جوبهنا بعنف - ولكنها لا ترتفع بممارستها إلى مرتبة الحرب بين الشعوب. فغاندي لم يلجأ إلى الحرب مع أعدائه ولكنه لجأ معهم إلى أساليب المقاطعة الفكرية والاجتماعية. ومع أن هذا يمثل ممارسة للعنف أيضاً إلا أنها لم تكن حرباً دموية وقد أدت نتائجها المطلوبة. إن إفهام الرجل الأبيض في أمريكا أن الرجل الأسود لا يختلف عنه في شيء استطاع أن يقدمه مارتن لوثر كنج بأسلوب القوة الأدبية الهائلة التي أدت مؤداها الموجب. إن السلوكيين يعرفون اللجوء إلى

العنف إنه أقصى درجات الضعف الانساني وسيادة العاطفة وتلاشي العمل العقلي وأن هناك اثنين لا يمكن أن يلتقيا أبداً: العنف والعقل. إن المتناقضات الأساسية في ميدان العلوم الطبيعية لم تحسم إلا بتطبيق أساليب الفكر الحديثة في نظرية اينشتاين عن النسبية بصدد الزمان والمكان. وبالمثل ظلت المتناقضات السلوكية رهينة الجهل بتفسيرها إلى أن تم شرحها بقيادة فرويد في شرح الدوافع الذاتية وراء هذا السلوك وقدم بذلك حلاً لغوامض السلوك الفردي والدولي على السواء. إن المسيحية يمكن أن تعيش مع الاسلام، واليهودية يمكن أن تعيش مع البوذية، والوطنية اليابانية يمكن أن تنشأ وتدوم إلى جانب الوطنية الصينية على أساس مبدأ توازي المحاور لا على أساس تقاطعها الشائك. إن تقاطع المحاور في صراع الفكر الانساني هو الذي يصنع المنحنيات التي يكفي أن يكون اسمها دالاً على عوجها وانحرافها المرير.

إن المبادئ لا يحميها إلا الشعور بالأمن ولا يحطمها إلا الشعور بالخوف. صحيح أن حرمان الأمن الثقافي يولد ظاهرة الحث الفكري إلا أن العنف في الحرمان يبقى مختلفاً عن الارهاب في الحرمان. إن العدوان كوسيلة بناء ذاتية في الفرد يجب أن لا تلغي دواعي الأمن ويجب أن لا تعزز عدواء الخوف.

وعندما تقوم الحروب تزداد المباحثات السياسية شدةً ونشاطاً وما دليل ذلك إلا أن شبح الحرب رسول إلى البحث عن الأمن في زوايا العقل لا في مطارق العنف.

لقد التفت علم النفس الاجتماعي إلى الخطر الذي يتهدد المجموعة البشرية من حين إلى آخر ألا وهو الحرب. الحرب مفرزة من مفرزات العدوان الجماعي تخلقها عوامل عديدة متشابكة أهمها عامل الخوف من فقدان الأمن فضلاً عن عوامل النزوع الجماعي لفئة بشرية معينة في تعزيز روح الاقليم ووافده التاريخية والاقتصادية والاجتماعية. إن قيام دائرة نفسية كبرى تعالج الآليات اللاواعية في باطن الشعوب وتحول دون قيام العنف، ضرورة حتمية عليها حاجة الانسان إلى الحفاظ على حضارته وابقائها غير مصبوغة بدماء أبناء الجنس البشري. وقد

قامت منظمات سياسية عديدة في العالم تحد من شدة التوتر وتكف من الأثر الذي تتركه مواقف الاحباط السياسي بين الدول. فبروز منظمةالأمم المتحدة، تلك المنظمة الداعية إلى ازالة التوتر في العالم والحد من استخدام أسلحة الدمار الشامل. كان مثالاً لمثل هذا التفكير الجاد. وقيام منظمات عديدة كجمعية حقوق الانسان ومحكمة العدل الدولية ومنظمات التضامن من أجل السلام، ظاهرة من ظواهر ردع العدوان البشري ومواساة الاجتراح الحاصل في الجسد الحضارة الانسانية من مخالب ونيوب العدوانية البشرية. إلا أن ما يهمنا قوله في مثل هذه المنظمات علي حيويتها وأهميتها أنها إلى الآن لم تلتفت - على ما يبدو - إلى الأسس النفسية التي تكمن وراء ظاهرة الحرب، فلقد ظلت هذه المنظمات تعالج الطافي على السطح من السلوك البشري، فتقدم الحلول االضحلة للظاهرة عندما تحدث بشكلها الدموي المرير وعندما تحدث فقط، إن هذه المنظمات والهيئات مدعوة لأن تكون دوائر نفسية تتعرف إلى باطن النفسية الدولية قبل الحرب بغية توفير الردع. إن قيام منظمات تختص بمجموعة بشرية دون غيرها يزيد من التوتر ولا يخفضه ومثال ذلك الأحلاف الدولية. . فإنها تضم مجاميع توحدها مناظير معينة ما تلبث أن تختصم مع مناظير وتوجهات حلف آخر مما يهدد الأمن ويزيد التوتر. إننا مدعوون إلى حالة ظهور النقابة في التمثيل الدولي لا إلى ظهور النقابية. فظهور النقابة يدعو إلى تفهم وجهات نظر المتصارعين، والنقابية عامل من عوامل ظهورالشك المتبادل الذي سبق أن أشرنا خطورته على الانسان والمجموعة الدولية. إذا استطاعت تلك المنظمات تقديم الحل لمشاكل عالم بلا حرب، فإنها قادرة على ازالة الحرب نفسها. فإن الحرب حالة تظل قائمة مادامت عوامل الخوف في عالم اختفائها قائمة أيضاً. وأذكر هنا أن مجموعة من علماء النفس الاجتماعيين في الولايات المتحدة الأمريكية قدمت لائحة للعمل السياسي النفسي الدولي تهدف إلى المعالجة النفسية للصراع السياسي في العالم. وقد رحبت تلك اللائحة بكل طلب يقدم إليها في نزاع دولي مائل إلى احتمال حدوث الصدام المسلح. أن تفهم الحاجات البايولوجية الأولية ومؤثرات التاريخ

والجغرافية، ومؤثرات عدوان الاقليم(لأعدائه) يمكن أن يقدم عملية كف واعية للدخول أو احتمال الدخول في حرب.

مراجع الكتاب
المراجع الأجنبية: -

1 - Luria A.R.(1966): Higher Cortical Functions in Man: Tavistock Publ., London.

2- Tower D.B. & shade J.P. (1960): Structure & Function of the Cerebral Cortex, Elsevier Publ. Co., Amsterdam.

3- Bremer F(1953): Some Problems in Nenrophysioloyy Athlone Press, The Univ. of London,

4- Raisman G(1966): Neural Connections of The Hupothal omus. B.M.B 22.

5- Barclay, A.M. & .N. Haber: The Relation of aggression to Sexual Motivotion. (1970). Uni Press London.

6- Colle Ctions of Thesis on aggresion by:

a - egger vflynn

b- Huthchison

c- KARL VVERGENES.

D- Beeman

e- MAcDONNELL & FLYNN

f- Roportz

7- selecked readings in some works of the following Researchers:

a- scott & Fredericson.

b- yen, Day & Kling

c- schreiner & Kling.

D- Dollard & miller.

e- Boshka, heath & maclean.

8- selected Readings for:

a- Gibson

b- morton

b- NAKAO.

9- Herrick: the brain of tiger salamander univ. of chicago press. 1964.

10- Delgado:(1961) Arch. intern. pharmacodyn(pp. 133 - 163).

11- Eysneck & RAch man: Causes Factors of Neurosis Routledge d keg-am, London. 1978.

12- Acheson: Neuro Psychopharmacdogy(E. Rothlin editor, 1978) Amsrerdom,

13- Blscko & krusciel: J. phusial. (Londom) 128 - 391.

14- miller(1948): Abnormal psychology: pp. 43 - 155.

15- VALWELLI, (1966): pharmautlcal expts.

C.I.N.P. 5 Th Inter n. cngr washington, D. C. March.

16- scott: (1962): the Roots of Behavior

(E. Bliss . ediror). pp: 167 - 200.

17- DAVIS the physioagical Analysis of aggressive behavior vuxien pp 53..

(chicago univ. press.(1966)

18- Beemann: the effeet of male hormone on aggressive behavior in

Mice. physiol. Zoo. (1947) pp. 20, 370 .

19- Tollman: the effects of testosterons on aggression In Male and female J. of ani . Behav. (1956).

20- NADler: Musculini Xahon of Female Rats bu Intracranial insplantrkion of andrage in infant.

physial. psycholagy j.(1986) pp: 66, 157 - 167.

21- Anthony StoRR: Human aggression(penguin books) (reprinted ealation) 1979.

22- H.J. Eysenck: crime & personality: Routledge & kegar paul' london & henley.(1979).

23-PATrick D. wall: textook of pain: Churchill living sotnc Ronald MelzAck. (1984).

24- ERic Berne: GAmES people play:

25- HAROLD KAPLAN, Modern synopsis of compere Hensive Benjamin J. sadock TestbookText book of psychiatry.(4th eclit).

26- ELIZABEth. M.Lion will lams and wilkins u.s.A(1985). Human Sexuelity on nursing proces U.S.A. John wiky & sons (1982).

27- Sigmond Freud: Beyond the pleasurec principle (London, Hogarth press 1948).

28- Brown J.A.C.(1963): Techiques of persuation. pelican book.

29- Ciba sympoisum(1965): Transcultnral psychiatry J. & A. churchill, Ltd london.

30- Encyclopedia Brittanica: (1966).

31- H. JEysenck(1960) the structure of humen personality Methuen, London.

32- Freud s., on Relligion Quared From Psycho - ANAL YSIS ndysis Theory by R.BALbiez (1941).

33- Gooky w.(1958): The Human clock the lancet.

34 - Meerlo J. (1962) : SUICIDE & mass suicide Gurne & straiton N. y.

35- Sargant williom, (1956): BATTLe for the mind Heinman, London.

36- Dollard J. Frustration and aggression(Routledge akegan paul) 1944.

37 - Klein. Melanie: Contribution to Psychoanalysis London, Hogarth press Is Instirute of psychoanalysis(1950).

38- scott J.P Aggression chicago: univ of chixago press. 1958).

39- Kinsey, Alfred sexual behavior in the human female(phila delphia, saunders 1948).

40- Eric Fromme Anatomy of Human distructivity New yark, paris, 1976.

41- Lorenz, konRAD, on aggression (London, Methuen 1966)

42- ARdrey, Robert, the Territorial aggrression(London, callins, 1967).

43- PARKER, Tony, and Allerton, Robert the curage of his Conivctions. (London, Hutchi Nsion 1962).

44- Adler, Alfred, superiority & socical interest (London Rautledqe & kegan paul 1965).

45- Gibbon, Edward, the decline as fall of the Ronen Empire(London, Methuen, 1998).

المراجع العربية

(١) عبدالرحمن بدوي: (الانسانية والوجودية في الفكر العربي) مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧م.

(٢) ول ديوارنت(قصة الحضارة) ترجمة محمد بدران وزكي نجيب محمود، القاهرة.

(٣) فرويد، س، تفسير الأحلام(١٩٠٠م)، ترجمة مصطفى صفوان، دار المعارف ١٩٥٨م.

(٤) فرويد، ثلاث مقالات في النظرية الجنسية(١٩٠٥)، ترجمة سامي علي، دار المعارف ١٩٦٣ .

(٥) فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي(١٩١٧)، ترجمة أحمد عزت راجح، الأنجلو، ١٩٦٦م.

(٦) فرويد، الموجز في التحليل النفسي(١٩٣٨)، ترجمة سامي علي وعبدالسلام العقاس: دار المعارف ١٩٦٢م.

(٧) هربرت ماركوز: «الانسان ذو البعد الواحد».. مقالة مترجمة عن الفرنسية، النشرة الاقتصادية العربية الفرنسية ص ٩٦ - ١٠٠ عام ١٩٦٨م.

(٨) النشاط الجنسي وصراع الطبقات: رايموت رايش. ترجمة محمد عيتاني. دار الآداب ١٩٧٧م.

(٩) ويلهلم رايش: علم النفس الاجتماعي. دار الجديد. ١٩٧٤ .

(١٠) جود مارمور وآخرون: مجموعة أبحاث . ترجمة د. راشد البراوي. مكتبة المهضة ١٩٦٣م.

(١١) الموسوعة الفلسفية للاكاديميين السوفياتيين: بإشراف روزنتال ويودين: ترجمة سمير كرم: دار الطليعة بيروت(١٩٨١).

(١٢) رايش والتحليل النفسي: قيس خزعل جواد، دار الحداثة للطباعة والنشر

بيروت(١٩٨٣).
(١٣) مقدمة في الباراسايكولوجي : د. ريكان ابراهيم : دار الشؤون الثقافية العامة بغداد(١٩٨٧م).
(١٤) بول سارتر « نظرية في الانفعالات» ترجمة د. سامي محمود علي وعبدالسلام النقاش، دار المعارف مصر، ١٩٦٠م.
(١٥) لي إرمان : « وراثة وتطور السلوك» ترجمة د. أحمد شوقي حسن ود. رمزي علي العدوي وبيتر بارسونز - دار ماكجر وهيل للنشر(١٩٨٣)م.
(١٦) مقدمة في علم النفس : الدكتور فخري الدباغ. منشورات جامعة الموصل.
(١٧) قاموس حتي الطبي (انكليزي - عربي).

الفهرست




محمد خطاب